تاريخ الدولة العباسية

(العصر العباسي الثاني)

222-656هـ 840-1258م

د. فوزي أمين يحيـــى
د. فتحي سالم حميدي









تاريخ الدولة العباسية

(العصر العباسي الثاني)

222-656هـ 840-1258م

الجزء الثاني

956,05

يحيـى -د. فوزي أمين / حميدي د. فتحي سالم

تاريخ الدولة العباسية/ د. فوزي أمين يحيـى / د. فتحي سالم حميدي

عمان - دار الفكر ناشرون وموزعون 2009

ر.أ.: 2009/8/3605

الواصفات: تاريخ العصر العباسي الثاني/التاريخ الإسلامي 222-656هـ 840-1258م

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الطبعة الأولى، 2010 - 1431



www.daralfiker.com

المملكة الأردنية الهاشمية - عمّان

ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري

هاتف: 4621938 6 962+ فاكس: 4654761 6 962+

ص.ب: 183520 عمان 11118 الأردن

بريد الكتروني: info@daralfiker.com

بريد المبيعات: sales@daralfiker.com

ISBN: 978-9957-07-723-5

تاريخ الدولة العباسية

(العصر العباسي الثاني)

222-656هـ 840-1258م

د. فوزي أمين يحيى د. فتحي سالم حميدي

الجزء الثاني

الطبعة الأولى
1431-2010



المحتويات



المقدمة

تعد دراسة التاريخ العربي الإسلامي وخاصة في العصر العباسي حلقة مهمة من حلقات التاريخ الإسلامي والذي مثلت فيه الحضارة العربية الإسلامية دورها المهم والمميز في رقي المجتمع إنسانيا وعلميا وغذت فيه الروح البشرية متجاوزة كل الحدود والفواصل الطبقية وأعطت للعالم قيما تجاوزت حدودها الاقليمية، لذا فان دراسة هذه الدولة يعطينا حافزا لمعرفة هذه الدولة، وقد تكالبت عليها قوى أجنبية أرادت النيل منها لمكانتها العالمية ومن هذه القوى (الأتراك، والبويهيون والسلاجقة ثم المغول) .

وقد قدمت في هذه الدراسة موقف بعض الإمارات من هذه القوى وموقف الشعب منها ثم موقف الفقهاء ورجال الدين إضافة إلى موقف بعض الخلفاء الذين تصدوا لهذا الغزو، وقد تغلغل في عمق هذه الصرعات قوى عالمية أخرى فيزمن الخلافة العباسية أرادت النيل من الإسلام والمسلمين وقد شنت لهذا الغرض حروب ضد المسلمين تعارف عليها و سميت (بالحروب الصليبية) وقد قمنا بتغطية بعض جوانب هذه الحروب ونتائجها،ثم عرجنا إلى نهاية الغطرسة المغولية في معركة مهمة جدا يذكرها التاريخ وهي معركة عين جالوت والتي أصبحت مع معركة حطين من المعارك المهمة في هذه الحقبة الزمنية .

نرجو قد وفقنا في إعطاء القارئ العربي والإسلامي صورة عما تعرض له العرب خاصة والمسلمين عامة .

... والله الموفق

د.فوزي أمين يحيى

د.فتحي سالم حميدي

تمهيد

عند الحديث عن الخلافة العباسية في عصرها الثاني لابد من التعريف أولا لماذا هذا التقسيم ؟ للإجابة عن ذلك نقول إن الدولة العباسية مرت بعصور متباينة من حيث السيطرة على إدارة الدولة أو تسلط الأجانب عليها ففي الفترة الأولى والتي تبدأ منذ تولي أبو العباس السفاح وبالأحرى أبو جعفر المنصور لخلافة الدولة وحتى سنة 245 هـ /859 م [1] نرى إن الخلفاء العباسيين تمتعوا بالسيطرة التامة على إدارة الدولة في جميع نواحيها ولم تستطع أية قوة خارجية سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات من تجاوز حدودها السياسية والتي كانت تعمل مع الدولة. لذلك نرى واضحا مدى قوة الخلافة وسيطرتها على شؤون الدولة وحتى عندما أدخل الخليفة المعتصم الأتراك كقوة عسكرية لم يجرأ أي واحد منهم في تجاوز صلاحياته أو موقعة، لذا فان معظم المؤرخين اعتبروا ضعف الخليفة العباسي وتدخل الأجانب في شؤون الدولة بداية لعصر جديد هو عصر التدخل الاجنبي. ويمكن اعتبار نهاية العصر التركي ومجيء البويهين [2] إلى السلطة بداية عصر جديد أطلق عليه الدور الثالث وينتهي بانتهاء العصر البويهي في العراق ومجيء السلاجقة [3] حيث الفترة الرابعة أما الأخير فهي مرحلة الانتعاش التي مرت بها الخلافة العباسية والتي سوف نتحدث عنها بالتفصيل عند الحديث عن الخلافة في عصر النهضة .وتمتد حتى سقوطها على يد المغول [4] سنة 656هـ/1258م.

1- الطبري /تاريخ الرسل والملوك 245/6.

2- ابن الاثير / الكامل:120/7 .

3- ابن الاثير/ الكامل:210/9 .

4- ابن الاثير/ الكامل:11 /154 .

1

الفصل الأول

العصر العباسي الثاني من

212هـ/334هـ

ذكرنا فيما سبق إن هذا العصر تميز باعتماد الخلافة على العنصر التركي بشكل كبير وعناصر أخرى في الجيش والبلاط ثم بدا نفوذهم بالازدياد والسيطرة على مقاليد الحكم، ولابد لنا ونحن نتكلم عن معرفة العرب للعنصر التركي لابد بالقول إن ظهورهم لم يكن فجائيا أو تلقائيا، فقد عرف العرب الفاتحون الترك حين دخلوا خراسان منذ عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، ثم توغل العرب الفاتحون شرقا في بلاد ما وراء النهر حيث فتحت هذه البلاد على يد قتيبة بن مسلم الباهلي وغيره من القادة العرب.

دخولهم في الجيش العباسي

من المعروف إن أساس ديمومة الدولة هما عنصران الموارد الاقتصادية، والقوة العسكرية فكانت الدولة بحاجة إلى عنصر قوي تستخدمه الدولة لأغراضها المتعددة، ولكن من الملاحظ على إن عملية جلبهم واستخدامهم في الجيش والإدارة العباسية بهذه الصورة السريعة دون تخطيط مسبق حيث ان الإدارة كان يعوزها رجال أكفاء موالين بشكل نهائي للخلافة لكي تواجه بهم الأخطار الخارجية.

وقد ازداد خطرهم نظرا لتزايد اعتماد الخليفة عليهم في ضرب الحركات المناوئة لهم حتى أصبح هذا الخطر يهدد مركز الخليفة نفسه بل حياته[1] ومن الملاحظ ان تواجد هؤلاء الناس بشكل أفراد أو جماعات في الدولة العباسية كان إما عن طريق الحروب (الأسرى) أو عن طريق الشراء، أو كانوا يرسلون إلى الخليفة كجزء من الضريبة السنوية المفروضة على المنطقة، أو عن طريق الهجرة وكانت تزداد على مر الوقت، أو عن طريق التجنيد أو التبشير وكان الخليفة يقدم لهم الهدايا ويكرمهم [2].

وتشير بعض المصادر [3]إلى إن الجند الترك في الجيش العباسي أدوا دورا مهما في القضاء على مقاومة بعض الخارجين عن القانون [4].

وقد ازداد اهتمام الخلفاء بالترك حتى نرى إن الخليفة المعتصم الرجل العسكري فقد كان على رأي المسعودي [5] اعرف الناس بهم حيث أكثر منهم وشاع استعمال الترك بالجيش وذلك لما امتازوا به من الجرأة والشجاعة والإقدام [6] ولم يكن هؤلاء الجند من أصل تركي بكونهم من الأتراك بل نرى إن من بينهم المغاربة المستوردين من مصر والمغرب، وكانوا عرب يمانية وقيسيه استوطنوا من شمال أفريقيا بعد الفتح الإسلامي[7].

وكانت هناك أمور كثيرة دعت الخليفة المعتصم إلى أن يعتمد على الجند التركي منها تعرض العراق إلى الجدب، وكذلك عدم التوافق والانسجام بين المعتصم وأهل بغداد حيث كان الخليفة غليظ الطباع يحترف العسكرية والفروسية ويعتد بقوة الجسد، وكذلك للأخطار الخارجية التي هددت الخلافة العباسية وعدم وجود جيش قوي يعتمد عليه في مواجهة تلك الأخطار.

ولكن على الرغم من ذلك فان الجند الأتراك قد أساءوا السلوك في بغداد مما ألب العامة وسكان بغداد عليهم وابلغوا المعتصم بما يحدث لهم من قبل الأتراك، لذلك أدرك المعتصم ضرورة الابتعاد عن بغداد والبحث عن موقع أخر فاختار سامراء وخططها على شكل قصر وجامع ومعسكر وسوق (8) وكان من خلال هذا الإجراء الذي اعتمده الخليفة من الاعتماد على الترك فقط أن يمتعض العرب من سياسته حتى نرى إن القائد العربي عجيف بن عنيبة بالاتفاق مع العباس بن مأمون من تدبير مؤامرة ضد المعتصم، أثناء غزوة عمورية (9) لكنها فشلت. وحيث جاء الواثق إلى الخلافة (227-232 هـ)(842- 847م) كان الأتراك قد وصلوا إلى بعض المناصب الإدارية القيادية في العراق، وقد سار هذا الخليفة على نفس سيرة أبيه في الاعتماد عليهم (10)حيث ظهر القائد التركي اشناس واستخلفه على كرسي السلطنة والبسه تاجا مما أثار حفيظة أهالي الحجاز والشام، وقد أساء القادة الأتراك للعرب حيث نرى إن القائد التركي بغا الكبير يعمد إلى إساءة أسرى العرب وجلدهم بالسياط وتقيدهم بالأغلال (11).

وحينما توفي الواثق لم يعمد لأحد بالخلافة لذلك كان مجيء الخليفة المتوكل (232هـ/ 845م)إلى السلطة بمساندة القادة الأتراك، ولكن هذا الخليفة أدرك خطر الأتراك وتدخلهم في شؤون البلد، فاخذ يعمد إلى الحد من نفوذهم من خلال سياسة جديدة يربط نفسه بتكتلات جديدة لينقذ نفسه والخلاص من الأزمة التي تمر بها البلاد من خلال ازدياد نفوذهم في العراق .ولكنه لم يستطع من انجاز مهمته حيث قتله الأتراك وكان ذلك بداية لنهاية سلطة الخليفة وقوة الخلافة العباسية حيث أصبح الخليفة من صنع القادة العسكريين الأتراك الذين يعينونه ويعزلونه بقوة سيوفهم، فكان اغتيال الخليفة المتوكل أول مؤامرة دبرت على خليفة عباسي (12) حيث اتفق المنتصر مع القادة الأتراك على قتل أبيه المتوكل ثم اجبر أخويه المعتز والمؤيد على التنازل عن الخلافة بناءا على رغبة الأتراك حيث أورد لنا الطبري قول المنتصر ((والله لان يليها بنو أبي أحب إلي من أن يليها بنو عمي ولكن هؤلاء وأومأ إلى سائر الموالي -يريد الأتراك -ممن هو قائم عنده وقاعد،الحو علي في خلعكما فخفت أن لم افعل أن يعترضكما بعضهم بحديده فيأتي عليكما))(13).

ولكن نرى أن الخليفة المنتصر لم يستطع أن يحتفظ بالخلافة لنفسه أكثر من ستة أشهر فقد جرده القادة الأتراك من كل شيء مما أثار سخطه وحفيظته عليهم وهددهم بالقتل، ولكنه اغتيل وقيل قتل بالسم وتخلصوا منه قبل أن يتخلص منهم (14).

وعقب اغتيال الخليفة برز ثلاث قادة أتراك هم بغا الكبير وبغا الصغير واوتامش ووزير المنتصر احمد الخطيب الذي كان متعاونا مع القادة الأتراك ومنفذا لرغباتهم حيث دبر أمر اجتماع القادة معه لقتل الخليفة على رواية الطبري (15).

وعلى الرغم من ان القادة الثلاثة كانوا متفقين على قتل الخليفة إلا إنهم كانوا مختلفين في شخصية الخليفة الجديد، ولكنهم في النهاية نزلوا على رأي القائد بغا في تعيين المستعين بالله للخلافة سنة 248 هـ/862 م وعين اوتامش وزيرا له وبذلك نرى ولأول مرة ينصب قائد عسكري وزيرا بعد ان كان مدنيا.

لقد كان رأي بغا الكبير محقا في نفسه حينما أراد أن يعين خليفة قوي حفاظا على مصلحة الأتراك وتجنبا لتفكك وحدتهم، ولكن تجري الرياح بما لاشتهي السفن، لقد كان الخليفة المستعين ضعيف الشخصية واقعا تحت تأثير أمه، حيث قدم اوتامش وشاهك الخادم على سائر الناس(16)وقد أدى ذلك الى تصدع وانشقاق في جبهة الأتراك حيث أصبح وصيف وبغا ضد اوتامش وانتهت الحالة بقتل اوتامش بموافقة المستعين ونهبت داره.

ولم يستطع الخليفة باسترداد هيبة الخلافة حيث حل قائد تركي أخر هو باغر الذي له سجل سابق في التآمر على الخلافة حيث كان من رؤوسها ومع ذلك فقد كانت كتلة وصيف وبغا الأقوى حيث استطاع التخلص من باغر وقتله (17) وفي خضم هذه الفوضى التي كانت تحدث في سامراء استغل أهل بغداد هذه الأوضاع وقاموا بمظاهرة مطالبين باحترام الخليفة وعقدوا اجتماعات ونادوا بالنفير (18)، لكن الأتراك اخمدوا هذه الحركة وفضوا اجتماعاتهم، وكان أهالي بغداد يرغبون في استرداد بغداد عاصمة للخلافة بعد ان نقلها المعتصم إلى سامراء، على إن المستعين بعد أن رأى ما آلت إليه الخلافة هرب إلى بغداد سنة 251هـ/865م ومعه بعض أنصاره من الأتراك وعلى رأسهم بغا.

وقد جرت محاولات لإعادته إلى سامراء إلا انه رفض وعندئذ بايعوا ابن عمه المعتز بالله حيث أصبحت بغداد وتوابعها إلى جانب المستعين وسامراء مع المعتز.

ولم تستمر الحالة هذه طويلا حيث نرى إن المستعين تضعف جبهته وذلك لتخلي أمير العراق محمد بن عبد الله أمين وابن طاهر عنه على اثر نزاع نشب بين بغا وابن طاهر حتى

استطاع جند سامراء من أن يخلعوا الخليفة نفسه بعد ان فرضوا الحصار عليه ومنعوا الميرة عنه ثم رحل إلى واسط حيث دبر أمر قتله من قبل قادة سامراء الأتراك بالتعاون مع احمد بن طولون[19] ولابد لنا من القول إن الخليفة المستعين على الرغم من الظروف التي مرت إلا انه قام بأعمال جليلة منها وقوفه ضد القادة الأتراك.وعمل على تحصين سور بغداد وحفر الخنادق وفتح السدود باتجاه سامراء لمنع وصول الجند إلى بغداد كما نظم الجنود المدافعين عن المدينة من أهل بغداد[20]. استلم المعز أمر الخلافة من قبل الأتراك الذين راءوه الرجل المناسب لهم في تلك الظروف، وأصبح تحت سيطرة بايكبال (زعيم الأتراك) وكانت الكتلة المسيطرة من الجند التركي هي وصيف وبغا اللذين تجاوزا كل حد في علاقتيهما مع الخليفة ولذلك أراد الخليفة التخلص منهما وكانت خطته بالاستناد إلى فرقة المغاربة والفرغانيين، كما إن الخليفة تخلص من بغا الذي اغتيل وأحرقت داره وجثته وصودرت أمواله بأمر من الخليفة [21] .

ولكن خطة الخليفة باءت بالفشل حيث أصدمت بالأزمة المالية حيث إن الخليفة كان لكي ينفذ خطته بحاجة إلى الأموال في حين ان الخزينة كانت فارغة وعلى وشك الانهيار المالي نتيجة لتصرف وسيطرة الأتراك على أمور الدولة والتنازع الحاصل بين الكتل والقيادات العسكرية التركية في الوصول إلى السلطة وعدم اهتمامهم بأمور البلد وتدهور الزراعة والتجارة فقلت واردات الدولة وقد ثار الجند مطالبين بأرزاقهم لأربعة أشهر، فما كان من الخليفة إن أرسل وصيفا لتهدئتهم فنشبت مشادة انتهت بقتله.

وتفاقمت مشكلة الأرزاق مما أدت إلى إثارة الفرق ضد الخليفة حيث توحدت بين الأتراك والفرق الأخرى من المغاربة والفرغانيين وأصبحوا كتلة واحدة ضد الخليفة وعندما استنجد الخليفة المعتز بأمه التي كانت تمتلك الأموال لم تنجده عندها كانت نهايته مؤلمة على يد الأتراك الذين أساءوا الأدب تجاهه، وقد مات مسجونا بعد أن تنازل عن الخلافة [22].

استقر الرأي على تعيين المهتدي بالله خليفة للمسلمين فأراد هذا الخليفة وقبل أن يتسلم أمر الخلافة أن يعيد لـها شيئا من هيبتها وشرعيتها، فأرادوا أن يتنازل المعز علنا [23] عن الخلافة ثم أن تكون بيعته موافقة للتقليد الذي كان سائد سابقا دون أن يكون للقادة الأتراك فضل في تنصيبه وكانت خطته تلك جعل الخلافة قوة فعالة غير واقعة تحت نفوذ العسكريين.

لقد أيقن هذا الخليفة بان ضعف مؤسسة الخلافة راجع إلى تواجد تلك القلة من القادة العسكريين الذين يمثلون كتلا عسكرية متنازعة وان الحل الوحيد لإنقاذ الخلافة هو التخلص منهم والحد من نفوذهم السياسي وانه قد رأى بان هناك حقد من بعض الجند والضباط

الصغار على القادة الكبار لعلمهم بأنهم أصبحوا مستغلين من قبل هؤلاء القادة الكبار وحصولهم على امتيازات وأموال ومناصب دون أن يصيب الجندي أو الضابط الصغير شيئا، ومن هنا فقد ثار الجند في سامراء ورفعوا شكواهم للخليفة، كما ثار الجند الموجودين في بغداد متذمرين من واليها الذي امتنع من دفع أعطياتهم (24).

وهكذا أعطى الجند للخليفة فرصة جيدة لكي يضرب ضربته ويتخلص من القادة ويستعيد مكانته خاصة وان هؤلاء الجند تعهدوا بحماية الخليفة وقتل كل من يعترض له (25).

لم ينجح الخليفة المهتدي في مسعاه وذلك لأنه لم يعتمد على الجند واستقطابهم تجاهه بل رأى انه من الأصلح ضرب الرؤوس بعضها ببعض وإتباع سياسة التحريض والإغراء فاتصل بالقائد بايكبال وأغراه بالامتيازات إن هو قتل موسى ابن بغا.

ولكن با يكبال أدرك نوايا الخليفة واخبر جماعته بالأمر وعندها تحول النزاع إلى معارضة علنية والتنديد بسياسة الخليفة ولكن الخليفة استطاع قتل بايكبال والتخلص من خطره، كما انه تقرب من رجال الدين ومن الشعب حيث جلس الخليفة للمظالم وقرب الفقهاء واصبغ على خلافته صبغة دينية قوته حتى يكون سندا قويا له، حيث رجال الدين لهم تأثيرا كثيرا على العامة ينصرونه عند الحاجة .(26)

قابل الخليفة شغب الأتراك بكل جرأة. حيث استدعى موسى بن بغا وأصحابه وعنفه وانذره قائلا ((والله لئن سقط من شعري شعرة ليهلكن بدلها منكم وليذهبن بها أكثركم :أما دين، أما حياء، اما تستحيون ؟كم هذا الإقدام على الخلفاء والجرأة على الله عز وجل وانتم لا تبصرون(27))). إلا ان القادة الأتراك استمروا في سياستهم المناهضة للخليفة وبالرغم من إعلان الأخير النفير العام مبيحا دم الأتراك وأموالهم رافعا شعار ((يامعشر الناس انصروا خليفتكم)).

ولكن العامة خافت من الجند فتخاذلت مما أدى إلى اندحار الخليفة وخلعه ومبايعة احمد بن المتوكل الذي لقب بالمعتمد على الله سنة 256هـ-870م(28).

تعتبر إجراءات الخليفة المهتدي أول شرارة في سبيل استعادة هيبة الخلافة ومركزها فقد كان هذا الخليفة إداريا جيدا حازما ابتعد عن مجالس الغناء والشراب والجواري، كما ابعد السباع وكلاب الصيد عن البلاط(29).وبدا يسمع مظالم الناس ويصرف أمور الدولة بنفسه، إلا أن القادة العسكريين انتبهوا له جيدا وافشلوا خطته، كما ان الأوضاع السياسية في البلد

اضطربت حيث وقعت حركة الزنج وثورات القبائل في الشام وامتناعها عن دفع الضريبة للخليفة .

على ان صمود الخليفة المهتدي بوجه الجيش كانت له نتائجه الايجابية حيث بدأت أول حركة منظمة تدعو إلى إعادة سلطة الخليفة العباسي، وقد بدأت هذه الحركة كما رأينا في صفوف الجند التركي نفسه وبتحريض من الخليفة الذي يقف ولأول مرة تجاه هذه القوة العسكرية .

أستلم الخليفة المعتمد بالله الخلافة حيث شارك أخيه المعروف بإدارة الدولة وكان المعتمد له الخطبة والسكة والتسمي بأمير المؤمنين ولأخيه الأمر والنهي وقيادة العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء[30] كان الاثنين على النقيضين فبينما كان المعتمد مشغولا بلذاته كان الموفق ذات شخصية قوية ومقدرة عسكرية ممتازة فسيطر على زمام الأمور السياسية والإدارية في خلافة اخية المعتمد ويعود ذلك إلى سياسة الخليفة الموفق الرشيدة حيث استطاع أن يبعد المؤسسة العسكرية عن السياسة .

نجح الخليفة الموفق حيث فشل القادة الأتراك حيث استطاع أن يسحق الزنج ويقضي عليهم ويضرب الصفاريين[31].

توفي الخليفة الموفق سنة 278هـ/891 م بعد أن أعاد هيبة الخلافة وثبت السلطة المركزية وكسب ثقة الجيش الذي منح ثقته أيضا بابنه أبي العباس الذي كان يتمتع بخصائص والده وقد اجمع قادة الجند على اخذ البيعة له فقبل الخليفة المعتمد وبايعه لولاية العهد بعد ولده جعفر ولقب ((المعتضد بالله))[32].

على ان الأمور سارت باتجاه خلع ابن المعتمد بتدبير من المعتضد وتأييد الجيش له وكان ذلك سنة279هـ/892 م .ولم تدم حياة المعتمد طويلا حيث توفي بعد ذلك بستة أشهر بعد أن نقل مقر الخلافة إلى بغداد.

كان المعتمد حازما قويا أهابه القادة والعامة ذلك لأنه كان إذا أساء احد أمامه الأدب عنفه وأمر بإلقائه في حفرة وردم علية[33]حتى أطلق عليه بالسفاح كما ذكر ذلك السيوطي على لسان ابن الرومي بوصفه بأنه جدد ملك بني العباس[34].

استطاع الخليفة المعتضد من تدبر أمور البلد السياسية بشكل سريع، كما استطاع من قمع الحركات الخارجية بنفسه، فقد استطاع إخماد حركة القبائل الحدودية والخوارج كما

استطاع إخماد حركة القرامطة [35] وان يضرب الصفاريين بالسامانيين ويحسن علاقته بالسامانيين [36].

واستطاع من إعادة بسط نفوذ الدولة على منطقة الجبال [37] كما حسن علاقته بالطولونيين وتزوج ابنة خمارويه بن احمد بن طولون.

من خلال ذلك نرى إن تحسن الوضع السياسي والعسكري أدى إلى تحسين في الوضع الاقتصادي للبلد حيث اهتم بأمور الري وتسليف الفلاحين بالحبوب [38].

كما أخر استيفاء الخراج من ظلم دافعي الخراج من المزارعين ليعطي فرصة اكبر لنضج الحاصل وبيعة.

ومنع عمال الخراج من ظلم دافعي الخراج [39] وكان المعتضد رجلا شهما حازما [40].

عمل الخليفة المعتضد على تعيين ابنه عليا وليا للعهد الذي لقب بالمكتفي بالله .الذي لم يكن كوالده سياسيا وإداريا وعسكريا حازما انما امتاز بضعف الشخصية والاستسلام للدسائس . كما انه أهمل اختيار وليا للعهد من بعده، وبعبارة أخرى استجاب لرأي بعض رجال حاشيته ووزرائه ولم يتخذ إجراء رسميا في قضية ولاية العهد، وقد فسح بذلك المجال امام القادة والوزراء للتدخل في شؤون الدولة .

كان الخليفة يرغب في ان يكون أخوه جعفر وليا للعهد وقد عمل فعلا على أن يكون الأمر كذلك حيث دعا القضاة وأستشهدهم بان جعفر بالغ السن والرشد وانه سيكون وليا لعهده ويلقبه (المقتدر بالله)، ولكنة مات دون أن يصدر أمرا بذلك [41].

وبالرغم من اختلاف وجهات النظر بين القادة والوزراء حول من سيخلف الخليفة إلا إن الاتجاه استقر على نصيحة ابن الفرات لهم في إبقاء المقتدر وليا للعهد حتى يكون تحت سيطرتهم.

عصر المقتدر

امتاز عهده بتدهور الخلافة بسبب صغر سنه وعدم كفاءته على إدارة دفة الدولة وتزايد تدخل القوى العسكرية والحكم في شؤون الدولة ولم يكن له سوى الاسم فقط حيث وصفه المسعودي بقوله ((أفضت الخلافة إليه وهو صغير السن لم يعان الأمور ولا وقف على أحوال الملك فكان الأمراء والوزراء والكتاب يديرون الأمور وليس له في ذلك حل ولا عقد ((فذهب ما كان في خزائن الخلافة من أموال بسوء التدبير)).[42].

حاول الجيش منذ بداية عصر المقتدر أن يتدخل في السياسة حينما رأى ما آلت إليه أوضاع الخليفة، ولكن قوة الوزراء حالة دون تحقيق ذلك، كما وان ألازمة المالية بدأت تسوء واخذ الجيش يطالب برواتبه وبأرزاق إضافية في كل مناسبة وحتى بدون مناسبة .

وبالرغم من ان الجيش وبقيادة نازوك قام بانقلاب ضد الخليفة واضطره إلى الهرب وذلك سنة 317 هـ/929م ومبايعة أخاه محمد بن المعتضد ولقبوه بالقاهر بالله إلا ان ألازمة المالية تفاقمت حيث لم يستطع قائد الانقلاب من توفير الأموال للجند وكانت النتيجة مقتل نازوك وخلع القاهر وإعادة المقتدر إلى الخلافة الذي بدوره باع ما في خزائنه من جواهر ليهيئ لجند القائد مؤنس الأرزاق المطلوبة.

اشتد الخلاف بين الخليفة وقائد الجند مؤنس الذي حاصره الخليفة لكنه هرب ثم لملم شتاته وعاد وحاصر بغداد ودارت حرب بين الاثنين انتهت بمقتل الخليفة المقتدر في شوال سنة 320 هـ/932م (43) وعين مكانه محمد القاهر أخا المقتدر.

استمرت الأوضاع تسوء يوم بعض يوم ولم يكن بمقدور القاهر ولا الذي جاء بعده الراضي بالله من تعديل الأمور لصالح الخلافة بل ازداد الصراع بين الجند .ظهر أمراء جدد في بعض مناطق العراق مثل واسط والبصرة كما برزت في الأطراف قوة الحمدانيين وسيطر البويهيين على فارس واستقلال البريديون في خوزستان (44).

استلم القائد التركي بن رائق أمور بغداد وقلده الخليفة الاماره وقيادة الجيش وجعله أمير الأمراء الذي شارك الخليفة في خطبة الجمعة والأعياد وأفضى إليه لقب أمير الأمراء (45)الذي كان عليه أن يقوم بأمر النفقات العامة ووضع رواتب الجند (46) وأصبح ابن رائق الرجل الأول في الدولة حتى نراه يقوم بتعين وزير الخليفة بنفسه، كما اشرف على الدواوين والأمود المالية(47).

عهد إمرة الأمراء

يعتبر هذا المنصب من مستجدات الأمور السياسية في البلد حيث نرى ان هذا المنصب يجمع بين رئاسة الجيش والخزينة المالية والدواوين وهكذا أصبح هذا المنصب فوق الوزارة بل انه أبطلها (48).

وهو منصب استحدث في عهد الخليفة الراضي بالله في سنة 324/هـ لحل مشاكل الخلافة المالية لعدم تمكن الخلافة من دفع راتب الجند بالإضافة إلى التخلص من صراع قادة الجند

الأتراك في السيطرة على أمور الدولة حيث انتقلت أمور الخلافة العسكرية والسياسية والإدارية إلى أمير الأمراء ولم يعد الخليفة يمثل سوى السلطة الدينية متمثلة في ذكر اسمه في خطبة الجمعة ونقشه على السكة [49].

ومن أهم القادة الذين تولوا هذا المنصب :

1- ابن رائق 324هـ-326 هـ

وهو ابا بكر محمد بن رائق والي واسط فقد عرض الأمر على الخليفة الراضي بان يقوم بدفع الأموال مقابل منصب أمير الأمراء فرفض الخليفة ذلك ولكن لما رأى الخليفة تردي الأوضاع الاقتصادية قام بمراسلة ابن رائق وهو بواسط، يعرض عليه إجابته إلى ما كان بذله من القيام بالنفقات وأرزاق الجند ببغداد فلما أتاه الرسول بذلك فرح به وشرع يتجهز للمسير إلى بغداد فقلده الراضي إمارة الجيش وجعله أمير الأمراء وولاه الخراج والمخازن في جميع البلاد والدواوين وأمر بأن يخطب على جميع المنابر وانف أليه الخلع وانحدر إليه أصحاب الدواوين والكتاب والحجاب وأهملت دواوين الدولة [50] .

ومن ذلك الوقت بطلت الوزارة فلم يكن الوزير ينظر في شي من الأمور إنما كان ابن رائق وكاتبه ينظران في الأمور جميعها وكذلك كل من تولى إمرة الأمراء بعده وصارت الأموال تحمل إلى خزائنهم .

فيتصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة ما يريدون وبطلت بيوت الأموال ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم في جميعها لابن رائق وليس للخليفة حكم وفي سنة 326هـ دخل بجكم بغداد ولقي الراضي وقلده إمرة الأمراء[51].

2- بجكم 326-329 هـ

بجكم وهو من غلمان ابن علي العارض وكان وزيرا لما كان بن كالي الديلمي فطلبه منه ما كان فوهبه له ثم انه فارق ما كان مع من فارقه من أصحابه والتحق بمرداويج وبعد مقتل مرداويج سار إلى العراق واتصل بابن رائق وسيره إلى الأحواز والى واسط فلما استقر بواسط تعلقت همته بالاستيلاء على الخليفة وهو مع ذلك يظهر التبعية لابن رائق [52].

فلما وصلته كتب ابن مقلة يعرفه انه قد استقر مع الراضي أن يقلده إمرة الأمراء طمع في ذلك وسار من واسط إلى نحو بغداد واستعد ابن رائق له وسال الراضي أن يكتب إلى بجكم

يأمره بالعودة إلى واسط فكتب الراضي إليه وسير الكتاب فلما قراه ألقاه من يده ورمى له وسار حتى نزل شرقي نهر ديالى وكان أصحاب ابن رائق غرب النهر فألقى أصحاب بجكم نفسهم بالماء فانهزم أصحاب ابن رائق ودخل بجكم بغداد ولقي الراضي وعينه الخليفة في منصب أمير الأمراء في سنة 326 هـ وظل فيها إلى أن قتل سنة 329هـ(53).

3- كورتكين الدليمي 329-330 هـ

بعد مقتل بجكم سيطر البريدي على بغداد فطلب الأموال من الخليفة وثار عليه الديلم بقيادة كورتكين الدليمي والأتراك بقيادة تكينك التركي غلام بجكم فوقعت بينهم حرب فهرب البريدي وأخوه أبو القاسم لما هرب البريدي استولى كورتين على الأمور في بغداد (54) فقلده منصب إمرة الأمراء في سنة 329هـ(55). ثم ان كورتين قبض على تكينك وأغرقه وتفرد بأمره.

4- ناصر الدولة 330- 331 هـ

كان المتقي لله قد أنفذ إلى ناصر الدولة بن حمدان يستنجده على البريديين فأرسل أخاه سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان نجدة له في جيش كثيف فلقي المتقي وابن رائق بتكريت قد انهزما فسار معه إلى الموصل فحضر ناصر الدولة ونزل على دجلة بالجانب الشرقي فعبر إليه الأمير أبو منصور بن المتقي وابن رائق يسلمان عليه فنثر الدنانير والدراهم على ولد المتقي. فلما أرادوا الانصراف من عنده طلب من ابن رائق البقاء فرفض واعتذر فألح عليه ابن حمدان فاستراب به وجذب كمه من يده فقطعة فقتلوه والقوه في دجلة (56)حتى لا يقف في وجهه ولا يحول بينه وبين منصب إمرة الأمراء وسرعان ما دخل ابن حمدان بغداد ومعه الخليفة فتقلد أعباء هذه الوظيفة في مستهل شعبان سنة330 هـ على إن أيام الحمدانيين لم تطل في بغداد ولم تكن حال بغداد في عهدهم بأحسن منها في عهد من سبقهم من الأمراء فقد طردهم منها توزون التركي رئيس الشرطة فهرب ناصر الدولة من بغداد واقبل توزون فدخل بغداد وولي الأمر عوضا عن ناصر الدولة في سنة 331هـ(57).

4- تـوزون 331-334 هـ

سار توزون عن واسط إلى بغداد فلما سمع سيف الدولة باصعاده رحل من بغداد فلما فارقها دخل توزون وكان دخوله بغداد في الخامس والعشرين من رمضان فخلع عليه المتقي لله وجعله أمير الأمراء (58).

الى ان الصفاء لم يدم بين توزون والخليفة المتقي بسبب تامره على توزون وعمله على صرفه واستنجاد المتقي بعد ان اتضحت نوايا توزون السيئة إزاءه بالاخشيدي أقوى ولاته في ذلك الوقت فعرض الاخشيدي على الخليفة البقاء معه في الشام أو الذهاب إلى مصر فلم يقبل الخليفة ذلك العرض حتى لا يترك بغداد عاصمة ملكه ومقر أسرته .

رجع المتقي إلى بغداد بعد أن تعهد توزون بحمايته إذا ما عاد إليها إلا أن توزون لم يوف بعده فانه قبض على الخليفة في شهر صفر سنة 333 هـ و نهب أصحابه معسكره واخذ الخاتم من يده وسمل عينيه (59) واخذ منه البردة التي اعتاد الخلفاء لبسها في المواكب وهي بردة النبي (60) واخذ خاتمه وسلمهن إلى المستكفي بالله (333-334هـ)(61) وفي سنة 334هـ توفي توزون بالصرع فولي ابن شيرزاد في نفس السنة .

هو أبو جعفر شيرزاد آخر من تولى منصب أمير الأمراء تولى هذا المنصب بعد موت توزون ولم يكن اقل عنتا من سبقوه ولا غرور فقد أصبح أمير الأمراء،وقد حبس الخليفة وخلعه وقتله فكان هذا تعديا على سلطة الخليفة الدينية ومالها من حرمة النفوس، وفي عهده دخل البو يهيون واحتلوا مدينة بغداد في سنة 334 هـ (62)

الهوامش

1- الجاحظ /مناقب الترك في رسائل الجاحظ 602/1

2- البلاذري /فتوح البلدان ص 235

3- ابن طباطبا / الفخري في الآداب السلطانية 475/2

4- المسعودي/ مروج الذهب /118/7

5- مروج /الذهب 118/7- 120

6- انظر: ابن الأثير /الكامل 150/6

7- المسعودي /مروج الذهب 118/2؛المسعودي / التنبيه والإشراف ص363

8- الطبري/ تاريخ 10 /104 ؛ ابن الأثير/ الكامل 6 /161

9- الطبري /تاريخ 10 /343 -348

10- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص226

11- ابن الأثير /الكامل 179/6

12- ابن الأثير/ الكامل 179/6

13- تاريخ 79/11 ؛ ابن الأثير/ الكامل 38/7

14- المسعودي/ مروج الذهب 134/4

15- تاريخ 80/11

16- الطبري/ تاريخ 86/11

17 -الطبري /تاريخ 87/11

18- الطبري /تاريخ 87/11

19- المقريزي/الخطط 319/1

20- الطبري/ تاريخ 170/11

21- اليعقوبي/ تاريخ 2 /116

22- الطبري /تاريخ 160/11 فما بعد

23- المسعودي/ مروج الذهب 178/4

24- الطبري/ تاريخ 87/11 ؛ابن الأثير/ الكامل 79/7 -80

25- المسعودي/ مروج 190/4

26- الطبري/ تاريخ 194/11

27- ابن كثير/ البداية والنهاية 21/11

28- الطبري/ تاريخ 11 /194-195

29- الطبري /تاريخ 194/11 - 195

30- الدوري -عبد العزيز /دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص113

31- الطبري/ تاريخ 7 /285

32- الخطيب البغدادي/ تاريخ بغداد 127/2

33- الطبري/ تاريخ 275/3

34- تاريخ الخلفاء 246

35- الطبري/ تاريخ 3م278 ؛ابن الأثير /الكامل 169

36- ابن الجوزي /المنتظم 138؛ابن الأثير/ الكامل 1751/7- أبن الجوزي /المنتظم 139

37- أنظر: الصابي/ تاريخ الوزراء ص249

38- مسكويه/ تجارب الأمم 27/1-28

39- اليعقوبي/ تاريخ ص61

40- المسعودي/ مروج الذهب 332/4

41- التنبيه والإشراف ص377

42- مسكويه 234/1

43- حسن احمد محمود/العالم الإسلامي في العصر العباسي ص362

44- مسكويه/ تجارب 336/1

45- /دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص236

46- ألصولي /أخبار الراضي والمتقي ص184

47- ألصولي/ أخبار الراضي والمتقي ص185

48- ابن خلدون/ العبر 401/3

49- ابن الأثير/ الكامل 7 / 186

50-ابن الأثير/ الكامل 323/8

51- الذهبي/ دول الإسلام 200/2.

52- حسن إبراهيم حسن /ألتاريخ الإسلامي العام ص447.

53- ابن الأثير/ الكامل 384/8.

54- الذهبي /دول الإسلام ص202.

55- ابن الأثير/ الكامل 382/8.

56- الذهبي /دول الإسلام 207 .

57- ابن الأثير /الكامل 398/8-399.

58- الذهبي /دول الإسلام ص208.

59- الذهبي/دول الإسلام ص208.

60- الذهبي/دول الإسلام ص208.

61- ابن شيــرزاد 334 هـ.

62- الطبري/تاريخ ج9ص340.

2

الفصل الثاني

الخلافة العباسية في حقبة التسلط البويهي





أولا: أصل البويهيون

ينتسب البويهيون إلى أبي شجاع بويه بن فنا خسروا، الجد الأكبر والمؤسس الأول للأسرة البويهية، كان يعمل حمالا حسب ما أشارت بعض الروايات التاريخية وقد استغل بويه ضعف سيطرة الخلافة على الأقاليم البعيدة عن المركز ،فسيطر على جبل الديلم بمساعدة الفلاحين ثم وسع سلطانه حتى شمل الهضبة الإيرانية ،فبرز البويهيون كأسرة حاكمة لأول مرة على مسرح الاحداث في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي (1) .

نشأت هذه الأسرة في بلاد الديلم الجنوبية لبحر قزوين (2) والتي ضمت كل من جيلان والديلم وجرجان وأحيانا الري وطبرستان (3) وقد أشار بعض المؤرخين إلى ان نسب هذه الأسرة يرجع إلى أصول فارسية بل ونسبوها الى الملك سابور ذو الأكتاف (4) في حين نسبها البعض الآخر إلى يزدجر ملك الفرس (5)، كما نسبها البعض الى الملك الساساني بهرام جور ،فضلا عن إلحاق البعض بالآلهة كما هي العادة عند الرومان القدماء لتجنيد أبطالهم (6)، وأكد ابن طباطبا إن هذه الأسرة ذات أصول فارسية إلى انها استقرت في بلاد الديلم منذ زمن بعيد (7) .أما الديانة فإنهم لم يعتنقوا الديانة الزرادشتية أو أي ديانة معروفة (8) وعلى الرغم من ذلك خضعت هذه المنطقة للحكم الإسلامي منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان رض الله عنه ،إلا أن سكانها بقوا على ديانتهم واثروا دفع الجزية (9).

إن الأمجاد التي حققها بنو بويه والدولة التي أسسوها دفعت بعض المؤرخين إلى ان يصطنعوا لهم نسبا رفيعا يليق بمقامهم فنسبوهم تارة إلى الملوك الساسانيين والى وزرائهم تارة أخرى من اجل رفع مكانتهم وإعلاء شانهم، لاسيما بعد ان نجحوا في مد نفوذهم وفرض سيطرتهم على أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي آنذاك بل واستبدوا بالخلافة العباسية (10) كما تمادى البعض منهم في إرجاع نسبهم إلى قبيلة صنبة العربية ذات الأصل العدناني (11)، على الرغم من انهم لا يمتون بأي صلة للعرب لا من قريب ولا من بعيد .

ثانيا : قيام دولة بني بويه

بعد وفاة بويه خلفه في حكم البلاد التي استولى عليها أبنائه الثلاثة وهم علي والحسن، الذين خدموا في بادئ الأمر في صفوف جيش القائد الديلمي ماكان بن كالي(12) وقد كان

دور كبير في الارتقاء إلى مناصب هامة لمواهبهم ومقدرتهم العسكرية في إجادة شؤون الحرب فسرعان ما ارتقى علي بن بويه وأخوه الحسن إلى رتبة الأمراء [13] أثر تمرد في جيشه، وارتفعت مكانته بين صفوف جيش الأمير ماكان الأمير أسفار بن شيرويه الذي سطع نجمه فتحالف مع احد قادة الجيش الآخرين ويدعى مرداويج بن زيار فدخلوا في صراع مع الأمير ماكان، فمالت الكفة لصالحهم ونجحوا في تحقيق نصرا كبيرا على جيش الأمير ماكان[14].

استغل علي بن بويه وإخوته فرصة الضعف الذي أحاط بالأمير ماكان بعد الهزيمة التي لحقت بقواته وكانت سببا في تفرق جنده وتخلي الكثير منهم عنه،لعجزه عن دفع أرزاقهم [15] فانضموا إلى صفوف قوات الأمير مرداويج، لاسيما بعد أن أخذت كفته بالرجحان، فكان هذا من الأمور التي قوة جبهته فرحب بهم ،وولي علي بن بويه على بلاد الكرج [16] في سنة 320 هـ.ولكن سرعان ما بدا مرداويج يشك في نواياه، الذي اخذ بالسعي من اجل مد نفوذه نحو الجنوب ،فاصطدم بالوالي العباسي على بلاد فارس ،وحقق بعض المكاسب من خلال احتلاله بعض الأقاليم [17]

غادر علي بن بويه بلاد الكرج بعد ا ن جبى ضرائبها لمدة عام كامل، وسار نحو الجنوب فاستولى على اصبهان في سنة 321 هـ بعد ان حقق انتصارا على أبي الفتح ياقوت عامل العباسيين على المدينة [18]، ومن ثمة توجه علي بن بويه نحو اصطخر [19] لكي لايقع بين فكي كماشة ويكون فريسة بين قوات الأمير ياقوت ومرداويج ،لاسيما وانه علم بمراسلاتهم من اجل الاتفاق والتحالف ضده، إلا ان علي بن بويه اصطدم بجيوش الأمير ياقوت وهو في طريقه غالى اصطخر، فنجح من ألحاق الهزيمة بقوات الأمير ياقوت [20] وفي هذه المعركة برز احمد بن بويه على الرغم من صغر سنه الذي لم يتجاوز التاسعة عشر سنة، كما جني علي بن بويه غنائم كبيرة واسر عدد لا بأس من جنود الأمير ياقوت، فاظهر نوعا من الحنكة السياسية وحاول كسبهم إلى جانبه بعد ان خيرهم بين المقام عنده واللحاق بالأمير ياقوت و إلا أنهم فضلوا البقاء معه والقتال إلى جانبه [21] .

لم يستمر التنافس بين بني بويه ومرداويج طويلا، ولاسيما وان الأخير لقي مصرعه في سنة 323هـ على يد بعض جنده من الأتراك الذين دخلوا عليه الحمام واردوه قتيلا[22] بسبب المعاملة التي كانوا يلقونها من لدن مرداويج من ناحية وتفضيله العنصر الديلمي عليهما من ناحية أخرى .تمكن علي بن بويه من الاستيلاء على شيراز في السنة ذاتها بعد ان خاض معركة عنيفة[23].

وكما استولى الحسن بن بويه على الري وهمذان وبقية بلاد فارس ،وعلى جبهة أخرى استولى احمد بن بويه على كرمان وفي الوقت ذاته زحف علي نحو الاحواز فاستولى عليها ومن ثم توجهه نحو واسط التي دخلها في سنة 323هـ [24] امتد نفوذ بني بويه على مساحة واسعة من أملاك الخلافة العباسية ،فكتب علي بن بويه إلى الخليفة العباسي المستكفي بالله (333 –334هـ/945 –946م) يطلب منه الاعتراف به فاستجاب الخليفة وكتب له بذلك [25] وقد أشار ابن خلكان الى المكانة التي حظي بها علي بن بويه الذي لقبه الخليفة بعماد الدولة ((وكان عماد الدولة سبب سعادتهم صبيتهم ،واستولوا على البلاد وملكوا العراقين والأهواز وفارس وساسوا أمور الرعية أحسن السياسة)) [26] .

كتب سادة بغداد الى أحمد بن بويه ليدخل بغداد ويتولى السلطان بها، فاستجاب لطلبهم وقد رحب به الخليفة العباسي وعينه ((أمير للأمراء وخلع عليه ولقبه بمعز الدولة كما لقب أخاه عليا بعماد الدولة والحسن بركن الدولة ،وخضع خلفاء بني العباس حينا من الزمن لبني بويه وأصبح العالم الإسلامي مرتبطا بهؤلاء السلاطين الجدد[27] .

ثالثا: دخـول البويهيون بغـداد

كان معز الدولة علي بن بويه في الاحواز فلما علم بموت الأمير التركي توزون سار إلى بغداد [28] في سنة 334هـ علـى رأس عدد كبير من الجند [29] مما أدى إلى هلع الناس واضطرابهم [30] وعندما اقتربت جحافله من بغداد أرسل إليه الخليفة المستكفي الهدايا والانزالات وتكلم الرسول على لسان الخليفة قائلا((أني مسرور به واني إنما اختفيت من شر الأتراك الذين انصرفوا إلى الموصل [31])) دخل معز الدولة إلى بغداد في 12/جمادي الأولى /334 هـ[32] فسر الخليفة بقدومه إلى بغداد [33] ونزل بباب الشماسية ،ودخل في الصباح الباكر على الخليفة المستكفي وبايعه ،وحلف له المستكفي ،وخلع عليه الخلع والهدايا، ونزل معز الدولة بدار مؤنس وانزل أصحابه في دور الناس [34] مما أدى إلى تذمرهم لما أصابهم من ضرر، كما خصص الخليفة له مبلغا يوميا قدره خمسة آلاف درهم بسبب الحاجة لسد نفقاته[35] وبذلك كان احمد بن بويه أول من تسلطن من بني بويه في بغداد، وحرص على الاتصال الدائم بأخويه، وكان أول من عين السعاة في بغداد ليكونوا رسلا بينه وبين اخيه في الري [36] وبذلك أسس البويهيون إمارة وراثية في قلب الخلافة العباسية في بغداد وسندهم في ذلك جيش أجنبي معظمه من الترك والديلم. وبذلك أصبحت الخلافة العباسية مؤسسة تشكيلية من الناحية السياسية لم يبق عليها البويهيون إلا لاعتبارات معينة[37] .

رابعا : الخلافة العباسية في ظل التسلط البويهي :

تولى الخلافة في حقبة التسلط البويهي خمسة من الخلفاء العباسيين الواحد تلو الآخر وهم المستكفي بالله (334-363هـ/ 946 - 975 م) والمطيع لله (363-381هـ/975- 1022م) والطائع لله (381-422هـ 1022- 1110م) والقادر بالله (422هـ /1110م) والذي شهد عصره انتهاء التسلط البويهي وانتقال السلطنة إلى السلاجقة (38) .

خلع الخليفة المستكفي في 22 جمادي الاخرى من السنة ذاتها (39) أي بعد دخول معز الدولة إلى بغداد بأربعين يوما، حيث اتهمه الأخير بالتآمر عليه فصمم على خلعه (40) حضر الخليفة والناس وحضر رجلان من الديلم فتناولا يد المستكفي، فمدها يحسبهما يريدان تقبيلها فسحباه عن كرسي الخلافة فسقطت عمامته في حلقه، فنهض معز الدولة واضطربت الناس لما فعلاه، وعمت الفوضى لما جرى من أعمال سلب ونهب ،(41) ، وسيق المستكفي إلى دار معز الدولة ماشيا وسملت عيناه بعد أن حكم سنة وأربعة أشهر (42) .احضر معز الدولة أبا القاسم الفضل بن المقتدر وبايعه بالخلافة ولقبه بالمطيع (43) وفي سنة 334 هـ /946م،عاش المستكفي أربع سنوات بعد خلع وسمل عينيه حيث توفي في سنة 338هـ/ 950م عن عمر ناهز الست وأربعون سنة (44) .

إن عملية خلع الخليفة كانت حالة خطيرة أساءت إلى مكانة الخليفة والخلافة ونفوذهما حيث تعكس مد التسلط البويهي على مؤسسة الخلافة، لاسيما وان البويهيين أصبحوا أصحاب السلطة الفعلية في الدولة (45) الأمر الذي جعل من الخلفاء العباسيين أشبه برموز دينية فقط دون أي سلطان سياسي وان وجد فهو لايتعدى أن يكون اسميا فقط، وهذا ما يؤكد تسلط الأمراء البويهيين على الخلافة وسعيهم للاستبداد بالنفوذ في بغداد وعدم احترامهم لمقام الخلافة(46) .

تولي الخلافة بعد المستكفي المطيع لله وهو أبو القاسم الفضل بن جعفر بن المعتضد ابن عم المستكفي (334-463هـ /946 -974 م) ، إذ بويع بالخلافة من قبل المعز في 23شعبان (47) فضلا عن الأمراء والأعيان والعامة، وازدادت الأوضاع سوءا وضعف أمر الخلافة وأصابها الوهن، بحيث لم يبق للخليفة أمر ولا نهي ولا وزير أيضا، سوى كاتب على إقطاعه يدير شؤونه، في حين أصبحت الدولة وموارد الخلافة من خراج وجزية وضرائب بيد معز الدولة احمد بن بويه (48) . وصلت حالة الخلافة والخلفاء إلى درجة كبيرة من السوء والتسلط فأصبح الخليفة يتقاضى نفقة يومية خصصها له معز الدولة مقدارها مائة دينار فقط ،ومما زاد في سوء

الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بغداد وعموم مناطق نفوذ الخلافة موجة الغلاء التي عمتها في سنة 334هـ حتى اضطر الناس في بغداد إلى أكل الجيف وماتوا على الطرقات[49] فأكلت الكلاب جيفهم ،فوصلت الحال إلى اضطرار الناس إلى استبدال العقارات بعدد من رغفان الخبز ،وفرار عدد كبير إلى البصرة و واسط ،هربا من طغيان البويهيين واستبدادهم ،مما أدى إلى وفاة عدد كبير منهم في الطرقات[50] .وقد أكد الذهبي مدى ضخامة ألازمة التي مر بها سكان بغداد في هذه السنة من خلال إشارته إلى إن ابن الجوزي اشترى لمعز الدولة كر[51] الدقيق بعشرين ألف درهم[52] .

إن ما زاد في تردي أوضاع الخلافة الصراع الذي دار بين كل من معز الدولة البويهي وناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل في سنة 337هـ،ويرجع سبب ذلك الاختلاف سعي المعز إلى الاستيلاء على الموصل وضمها إلى مناطق نفوذه ،فتوجه إليها ومعه الخليفة المطيع لله كالأسير لا حول له ولاقوه إلا الموافقة على ما يقوم به[53] وعندما علم ناصر الدولة بذلك سار إلى نصيبين ،فنجح المعز من دخول الموصل ،إلا انه أساء إلى الأهالي وسلب أموالهم مما أدى إلى حنقهم عليه ،إلا ان معز الدولة اضطر إلى الرجوع نحو بغداد بعد ان عقد صلحا مع ناصر الدولة على ان يؤدي إليه الأخير مبلغا من المال مقداره (ثمانية آلاف ألف درهم سنويا)[54] ويخطب له في مناطق نفوذ الدولة الحمدانية.

لم يكن عهد معز الدولة احمد بن بويه عهد رخاء ولم يرجى منه أي خير، فقد عم التذمر بين صفوف العامة من الناس بسبب السياسة السيئة التي اتبعها، من جراء الاختلافات والحروب الداخلية والخراب الذي لحق بالبلاد نتيجة لضعف هيبة الخلافة، فلما أحس بقرب منيته أوصى ولده بختيار بطاعة عمه ركن الدولة والرجوع إليه في كل ما يفعل ويقرر، فضلا عن استشارة ابن عمه عضد الدولة، لكبر سنه ومعرفته بأمور الحكم والسياسة، فتولى عز الدولة بختيار بن المعز بعد وفاة والده في سنة 356 هـ / 967م.

لقد عاش الخليفة المطيع في ظل التسلط البويهي في حالة متردية ،لما كان يلقاه من الإساءة وعدم الاحترام الذي ساد دار الخلافة، فلم يكتف البويهيين بتلك الأعمال ،فسعوا إلى جمع الأموال والاستحواذ عليها، بل وصل الحال بهم إلى سلب أموال الخلفاء وخاصة في عهد عز الدولة بختيار ابن المعز الذي طلب من الخليفة المطيع في سنة 362 هـ أن يمنحه بعض الأموال[55] متذرعا بالإنفاق على تجهيز الجند للجهاد في سبيل الله، إلا ان الخليفة رفض طلبه واعتبر ذلك وقاحة من عز الدولة، فما كان من الأخير إلا ان غضب ،واجبر الخليفة على بيع

ملابسه وداره، فجمع من ذلك كله مبلغا قدر بأربعمائة ألف درهم، حمله إلى عز الدولة ،الذي استولى عليه بلا حق دون ان ينفق درهما واحد منه على الجهاد في سبيل الله فشاع في بغداد ان الخليفة المطيع صودرت أمواله (56) .

لقد قضي الخليفة المطيع مدة حكمه متعبا في حياته جراء التسلط البويهي والتعامل السيئ الذي اجبر على القبول به ،فلم يجد وسيلة اسلم من خلع نفسه من الخلافة للتخلص من هذا العبىء الثقيل الملقى على عاتقه ،وخلع نفسه في يوم الاربعاء12/ذي القعدة سنة 363 هـ/.وعهد بالخلافة لابنه الطائع لله (57) وكان الطائع الوحيد من الخلفاء العباسيين الذين تقلدوا الخلافة ووالده على قيد الحياة (58) .

تولى الخلافة أبو الفضل عبد الكريم ولقب بالطائع لله (363 –381 هـ/974 –991 م) ، ولم يكن أمر عز الدولة بختيار على ما يرام بسبب حدوث فتن واضطرابات بين صفوف قادته من الأتراك والديلم .ومناصرة عامة السنة للقائد التركي سبكتكين، لما كان عليه بني بويه من تشيع شديد سبب سفكا للدماء وإحراقا للدور ونهب للأموال (59) .

اوجد عضد الدولة البويهي الأسباب التي تذرع بها من اجل الاستيلاء على مناطق نفوذ ابن عمه عز الدولة بختيار فاستولى على كرمان في سنة 357 هـ وعلى عمان في السنة ذاتها وفي سنة 364 هـ توجهه عضد الدولة نحو العراق ونجح في إلحاق الهزيمة بجنود بختيار في واسط وتكريت وأسره، وأرسله إلى بغداد ،(60) كما قبض على أشقاء بختيار وجمع الناس وأعلمهم عن عزم عز الدولة بختيار على طلب الإعفاء عن الإمارة لعجزه عن تدبير شؤون الحكم وعدم القدرة على المواصلة وكان ذلك تحت ضغط عضد الدولة الذي وعد الخليفة والجنود والرعية بالعدل وحسن المعاملة، فسر الخليفة الطائع بذلك وخلع عليه لقب الإمارة. ومقابل ذلك اظهر عضد الدولة رسوم الخلافة وتعضيهما ما كان قد نسي وترك بفعل سياسة من سبقه ،كما أمر بعمارة دار الخلافة والإكثار من الآلات وعمارة ما يتعلق بالخليفة وحماية إقطاعه (61) .

لم يلبث عضد الدولة أن انقلب ضد الخليفة الطائع وذلك بضغط من أمراء بني يويه الآخرين الذين استاءوا من ذلك، فحاول إسقاط اسم الطائع من الخطبة على منابر الجوامع في بغداد وغيرها وبقي هذا الأمر خمسين يوما لم يخطب فيها لأحد من خلفاء بني العباس (62) .

عندما علم ركن الدين عم عز الدولة بختيار بذلك غضب غضبا شديدا لما كان يكنه من احترام ومحبة لشقيقه، فساند بذلك ولده عز الدولة ضد ابن عمه عضد الدولة الذي اضطر إلى

الهرب نحو شيراز فعاد عز الدولة إلى حكم بغداد(63) ، فخلع عليه الخليفة الطائع واستمر وضع الخلافة نحو الاسوء تحت وطأت واستبداد معز الدولة البويهي حتى تم القبض عليه من قبل بهاء الدولة بن عضد الدولة في سنة 386 هـ (64) ويعزو ابن خلدون أمر خلع الطائع إلى سبب اقتصادي فضلا عن الاستبداد فهو يشير إلى أن بهاء الدولة وقع في ضايقه مالية بعد أن قلت الأموال التي لديه، فلم يعد قادرا على تسديد نفقات الجند، فأشار عليه وزيره بالاستفادة من أموال الخليفة ومصادرتها وغرره بخلعه فأرسل بهاء الدولة إلى الطائع يطلب منه الحضور لتجديد البيعة فإذن له بذلك فدخل عليه وقبل الأرض من تحت قدميه كما جرت العادة .

وكان بمعيّة مجموعة من الجند الديلم، الذين تظاهروا بتقبيل يد الخليفة، فسحبوه من سريره وتم خلعه ونهبت دار الخلافة وصودرت أمواله الخاصة (65) .لم يكتف البويهيون بذلك بل تمادوا في إيذاء الخليفة ومثلوا به حيا فقطعوا إذنيه وكسروا انفه (66) وتم تولية الخليفة القادر بالله احمد بن اسحق بن المقتدر من قبل بهاء الدولة واعيان الناس الذين ساروا لاستقباله فدخل دار الخلافة وخطب له على المنابر (67) .

واستمر في الخلافة حتى وفاته سنة432هـ فتولى الخلافة بعده ولده جعفر الذي لقب بالقائم بأمر الله (68) ،فاستبد بأمر الخلافة الأمير البويهي جلال الدولة وتجاوز على الخليفة القائم في سنة 434هـ بان استولى على أموال الجزية التي كانت تجنى وتحمل إلى الخليفة (69) فكانت له مواقف مع الأمراء البويهيين فضلا عن سوء الأوضاع الداخلية التي كانت سببا في انتهاء عصر التسلط البويهي في عهده هذا ما سنذكره في ما بعد.

الخليفة القائم بأمر الله ونهاية الحكم البويهي

بويع الخليفة القائم بأمر الله (422-467 هـ/1031- 1075 م) في عهد أبيه القادر بالله الذي تنازل عن الخلافة له في ذي الحجة سنة 422 هـ/1031 م وخطب له على منابر المساجد في بغداد (70) ويعد هذا الحق الذي استخدمه القادر في حقوق الخلفاء السابقين، إلا ان خلفاء بني العباس حققوا في زمن التسلط البويهي، فاستقرت الأمور بعد مبايعة ودون أي معارضة من أي جهة أخرى (71) .

ومن أولى الأعمال التي قام بها الخليفة القائم إرسال قاضي القضاة أبي الحسن الماوردي إلى والي الأمير البويهي كاليجار على الاحواز ليأخذ البيعة منه ويخطب له في البلاد فأجاب

إلى ذلك وبايع وخطب للخليفة في بلاده فضلا عن إرسال الكثير من الهدايا والأموال إلى دار الخلافة (72) .

لقد كان لسيرة الخليفة القائم الحسنة واهتمامه بالأمور ألدينيه وأمور الرعية ،دورا كبيرا في جذب الناس إلى جانبه ومحبتهم له، ولاسيما الفقهاء والقضاة والمؤذنين الذين مثلوا الطبقة المثقفة آنذاك، فكان يستشيرهم ويعتمد عليهم، إذ عدهم سلاحا يستند عليه في مواجهة أعمال الحكام المتسلطين من البويهين والسلاجقة فيما بعد (73) والى جانب الفقهاء شجع الخليفة القائم بالله الشعراء والأدباء (74) وذلك لمحبته للشعر ونظمه وكثيرا ما نظم الشعر بنفسه (75).

ركز الخليفة القائم بدرجة كبيرة على استخدام السلطة الدينية التي حضي بها واستغلها أكثر من غيره من أسلافه في حقبة التسلط البويهي لأنها تمثل السلطة الروحية له، وهي من أقوى الأسلحة التي يمكنه من خلالها مواجهة تسلط الحكام البويهيين، وإصلاح الفساد الإداري الذي كانت تعيشه بغداد عاصمة الخلافة وبقية الأقاليم التابعة لها واستطاع بفضل هذه السلطة أن يخرج الخلافة من كبوتها بعد أن قاومت عوامل الضعف ودافعت عن كيانها، لاسيما وان هذا السلطان الروحي بقي مؤثرا في نفوس المسلمين رغم ان الخلافة كانت تمر بأدنى حالات الضعف التي عاشتها (76) .

لقد عاصر الخليفة القائم بأمر الله في خلافته الأمير البويهي جلال الدولة بن بهاء ألدوله البويهي الذي كان عهده بداية الاحتلال والضعف الذي عم دولة بني بويه (77)، فكان بداية النهاية لزوالها بشكل نهائي في سنة447هـ/1055 م على أيدي قوة خارجية أخرى احتلت البلاد ودخلت عاصمة الخلافة وهم الأتراك السلاجقة، لتدخل دولة بني العباس مرحلة جديدة من التسلط والاستبداد في مقدرات الخلافة .

أسباب انهيار دولة بني بويه

أولاً: الصراع الأسري الذي وقع بين أفراد البيت البويهي الذين اقتسموا وتنازعوا بعد عصر أمرائهم الأوائل الذين امتازوا بالقوة وعملوا على تدعيم مركزها وبذلوا كل ما لديهم من جهود للحفاظ على وحدتها.

بفضل المحبة والوئام الذي ساد بينهم فضلا عن الاحترام المتبادل (78)وبعد وفاتهم انقسمت البلاد بين أبنائهم الذين حكم كل منهم جهة معينة (79) فسعى كل طرف إلى ضم ممتلكات الطرف الآخر إلى مناطق نفوذه، فكان ذلك سببا رئيسيا من أسباب الهدم داخل الدولة البويهية فادى بالتالي إلى انهيارها.

ثانياً: كما كانت تشكيلة الجيش البويهي المتكون من عنصرين رئيسين (الديالمة والأتراك) عاملا رئيسيا من عوامل اعتلاء البويهيين إلى السلطة وقيام دولتهم التي استحوذت على العالم الإسلامي واستبدت بالخلافة ومقدراتها، فقد كان لهذا التنوع من الجيش دورا كبيرا في إخفاق دولتهم وزوالها (80).

ثالثاً: لقد كان للسياسة الطائفية التي اتبعها الأمراء البويهيين من اجل مصالحهم الشخصية سواء كانت سياسية أم اقتصادية دورا في إضعاف الدولة البويهيه وانتهاء حكمها لاسيما وانهم ساندوا طائفة ضد أخرى (81)، مما أدى إلى قيام الفتن والاضطرابات الداخلية بين العامة من جهة، وبين الجندي في الجيش البويهي من جهة أخرى فاتعب ذلك الخلافة والأمراء البويهيين معا، كما في النزاع الذي دب الجند الأتراك والديالمة في سنة 428 هـ/1036 م واستمر لستة أشهر، فضلا عن الفتن التي قامت بين الأهالي في السنوات 422 هـ/1030 م و441هـ/1049 م (82).

رابعاً: سوء الأوضاع الاقتصادية والمالية التي عمت الدولة العباسية، بسبب تدهور الحالة السياسية والإدارية التي كانت تعيشها الدولة العربية الإسلامية في ضل التسلط البويهي الذي استبد بمقدراتها واستنزف خيراتها، ولم يدر البلاد إدارة حكيمة لمصلحة العامة كما كانوا يدعون بل من اجل خدمة أغراضهم الشخصية (83). مما حدى بالسلطة المركزية في بغداد الى اتخاذ إجراءات لمعالجة الموقف وتمثلت تلك الإجراءات بسياسة المصادرات والتضمينات (84)، فكثيرا ما سعى الأمراء البويهيين الى مصادرة أموال الأمراء والوزراء بل وحتى الخلفاء من اجل الحصول على الأموال كما حدث في سنة 362 هـ عندما طلب الأمير عز الدولة البويهي من الخليفة المطيع لله الأموال تحت ذريعة الجهاد (85) وعندما رفض اجبره على بيع ملابسة وداره وسلب أمواله دون أن ينفق على الجهاد في سبيل الله درهما.

أما سياسة التضمين، فكان سببها عجز الخزينة عن دفع رواتب الجند والموظفين بالدرجة الأولى، فسعت السلطة البويهية إلى تضمين كبار القادة والأمراء العسكريين أقاليم ومدن بأكملها مقابل مبلغا من المال يدفع للخزينة المركزية (86).

خامساً: السياسة الإقليمية المتقوقعة التي انتهجها الأمراء البويهين والتي كانت سببا في عزل كيانهم السياسي عن بقية العالم الإسلامي بل وعن الخلافة العباسية، فبقيت دولة البويهيين إقليمية شملت الري والجبال وبلاد فارس والاحواز والعراق فقط، كما أنهم لم يهتموا بفكر الجهاد والتي كانت تشد المسلمين إلى السلطة (87).

سادسا : الأخطار الخارجية التي هددتهم، كقيام الأمارة الغزنوية التي تعد من أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة البويهيين، فقد أسست هذه الإمارة في مدينة غزنة سنة431- 543 هـ[88] حيث كان لها دور كبير في إضعاف الدولة البويهية من خلال الضغط المستمر على مناطق نفوذهم، فضلا عن الخطر البيزنطي على حدود الدولة العربية الإسلامية التي هددها أكثر من مرة، ورغم ذلك لم يحرك البويهيون أي ساكن، مما أدى إلى استياء الناس إليهم حيث اخذوا ينظرون إليهم نظرة المتخلي عن نصرة المسلمين والجهاد في سبيل الله، لاسيما وان السلطة الفعلية وإدارة الجيش كانت في أيديهم [89].

الهوامش

1- حسن إبراهيم حسن /تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي 43/3

2- الاسطخري /المسالك والممالك ص118

3- فوزي /دراسة في التاريخ السياسي للدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي/453/3

4- المعاضيدي /تاريخ الدويلات العربية الإسلامية في العصر العباسي ص/55

5- أبو الفدا /المختصر في أخبار البشر /394/1

6-حسن /تاريخ الإسلام 43/3

7-ابن طباطبا /الفخري في الآداب السلطانية ص502

8-فوزي /دراسة في التاريخ السياسي3 /455

9-البلاذري /فتوح البلدان ص33

10-فوزي /دراسة في التاريخ السياسي 3 /456

11-الخضري بك /الدولة العباسية ص347

12- مسكويه /تجارب الأمم 2 /277

13- المعاضيدي /تاريخ الدويلات العربية /ص55

14- مسكويه /تجارب الأمم 163/2

15- المعاضيدي /تاريخ الدويلات العربية /ص57

16- المعاضيدي /تاريخ الدويلات العربية /ص56

17- فوزي /دراسة في التاريخ السياسي 456/3

18- المعاضيدي /تاريخ الدويلات العربية /ص46

19- الخضري بك /تاريخ الأمم ص376

20- الخضري بك /تاريخ الأمم ص376

21- الخضري بك/تاريخ الأمم ص376

22- شلبي /موسوعة التاريخ الإسلامي 418/3

23- ابن الجوزي /المنتظم في تاريخ الملوك والأمم 171/6

24- ابن خلكان /وفيات الأعيان 364/1

25- شلبي موسوعة التاريخ الإسلامي 418/3

26- ابن خلكان /وفيات الأعيان 364/1

27- ابن الأثير / الكامل في التاريخ 418/8

28- أبو الفدا /المختصر 94/1

29- ابن كثير /البداية والنهاية 212/11

30- ابن الأثير /الكامل 449/8

31- ابن كثير / البداية والنهاية 213/11

32- أبو الفداء /المقتصر 94/1

33- الذهبي /تاريخ الإسلام ص252

34- ابن الأثير /الكامل 450/8 ؛أبو الفداء /المختصر 94/1

35- ابن الأثير /الكامل 450/8

36- ابن تغري بردي /النجوم الزاهرة 258/3

37-فوزي /دراسة في التاريخ السياسي 481/3

38- فوزي /دراسة في التاريخ السياسي 480/3

39- ابن الأثير/الكامل 8 /450

40- الخضري بيك/الدولة العباسية ص345

41- ابن كثير /البداية والنهاية 212/11

42- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص370 ؛الحنبلي /شذرات الذهب 335/1

43- ابن تغري بردي /النجوم الزاهرة 28/3

44- الذهبي /تاريخ الإسلام ص 27

45- الحمداني /العامة في بغداد ص33

46- ابن طباطبا /الفخري في الآداب السلطانية ص87

47- المسعودي /مروج الذهب 4 /372

48- ابن كثير /البداية والنهاية 212/11

49- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص371

50- ابن تغري بردي /النجوم الزاهرة 3/ص286

51- الكر :يساوي عشرة قنطار

52- الذهبي /تاريخ الإسلام ص28

53- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص371

54- الذهبي/تاريخ الإسلام ص28

55-الهمذاني /تكملة تاريخ الطبري 428/1 ؛الخضري بيك /الدولة العباسية ص360

56- الحمداني/ العامة في بغداد ص34

57- مسكويه /تجارب الأمم 328/2

58- الهمذاني /تكملة التاريخ الطبري 432/1

59- الخضري بيك/ الدولة العباسية ص367

60- مسكويه /تجارب الأمم 280/2-286

61- الخضري بيك /الدولة العباسية ص368

62- الذهبي /العبر 117/2

63- الخضري بيك /الدولة العباسية ص368

64- الذهبي /دول الإسلام ص217

65- ابن خلدون /العبر 436/3

66- الحمداني /العامة في بغداد ص35

67- السيوطي/ تاريخ الخلفاء 383

68- السيوطي /تاريخ الخلفاء 383

69- الحمداني /العامة في بغداد ص35

70- الخطيب البغدادي/تاريخ بغداد 9/ 399

71- ابن الأثير/ الكامل 9 /417

72- ابن الأثير /الكامل 418/9

73- الدوري/ مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص92

74- ابن الجوزي/ المنتظم 8 /59

75- الاربلي /خلاصة الذهب المشبوك ص266

76- القزاز /الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير ص97

77- الخضري بيك /الدولة العباسية ص382

78- المعاضيدي /تاريخ الدويلات العربية ص60
79- ابن الأثير /الكامل 9 /142 -143
80- فوزي /دراسات في التاريخ السياسي 3 /507
81- سلطان /التاريخ الإسلامي في العصر العباسي 89/2
82- ابن الأثير/ الكامل 428/9؛الذهبي /العبر 199/3
83- فوزي /دراسة في التاريخ السياسي 508/3
84- سلطان /التاريخ الإسلامي 89/2
85- الهمذاني /تكملة كتاب الطبري 428/1
86- الحمداني /العامة في بغداد ص35
87- فوزي /دراسة في التاريخ السياسي 501/3
88- ابن الأثير /الكامل 147/9
89- ابن كثير /البداية والنهاية 260/11-261

3

الفصل الثالث

دور الفقهاء والعلماء والعامة في مساندة الخلافة العباسية



دور الفقهاء

خضعت الخلافة العربية الإسلامية عام 334 هـ /945م للسيطرة الأجنبية المتمثلة بالبويهيين في جميع الاتجاهات السياسية والدينية المختلفة فحاولوا من خلال وجودهم في بغداد عاصمة الخلافة العباسية تحقيق أطماعهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية غير ان هذه القوى الأجنبية واجهت تحديات من مختلف فئات المجتمع كان من بينهم علماء الدين (الفقهاء) الذين تصدوا لهم بعلمهم ومكانتهم الدينية والاجتماعية الرفيعة، وعلى الرغم من فقدان هذه الشريحة لمقومات المواجهة المسلحة، إلا انها سخرت وجندت ثقافتها النابعة من دينها القويم ومكانتها في التصدي لهم فألف العلماء الكثير من الكتب للرد على تلك الفئات وفضح أباطيلها.

لقد كان الفقهاء يشاركون كبار الساسة في مراسيم تعيين الخليفة ويحضرون في النظر لمبايعته وتهنئته، وقيامهم بقراءة أمر المبايعة على مجموع المصلين أيام الجمع حيث المبايعة العامة، وينتمون إلى الوظيفة التنفيذية، فإنهم في حقيقة الأمر يتبعون ضابط التنفيذ الأول الذي هو الخليفة (1).

إن تهنئة المجالس الخاصة بكبار الفقهاء والقضاة والمتكلمين التي يحضرها الخلفاء كانت في اغلب الأحيان تهدف إلى مناقشة بعض الأمور الدينية ووضع المنهج السليم لمواجهة الدعوات المضادة للعروبة والإسلام، وتأكيد وقوف رجال الدين مع الخلافة في صراعها هذا(2)، وقد يستشيرهم الخليفة في بعض الأمور التي كانت غالبا ما تشار في بعض الجوامع لغرض إثارة القلاقل وتعرض الصحابة والخلفاء للسب، أو بسبب تعاطيهم أمور تتنافى مع شعائر الدين الإسلامي (3)، وقد يتخذ الخليفة قرارا بغلق تلك الجوامع، وإذا ما تأكد إن احد الفقهاء أو العلماء تجاوزه حدوده، أو كان مدفوعا من قبل قوى أجنبية كالبويهيين، أو يقوم بأمور منافية للدين أو للسلطة فان الخليفة كان لا يتوانى في إنزال اشد العقوبة بهذا الشخص (4) لشعوره بان مثل هذه الأمور الخطيرة تهدد امن وسلامة الدولة، كما كانت لها مضامين خطيرة تهدف إلى إشاعة الفتن بين الناس.

والمتبع لأثارهم يلاحظ انهم فعلا قاموا بإثارة مثل هذه الفتن والاضطرابات وفي مناسبات عديدة ومن الفقهاء الذين تصدوا للوجود البويهي أبو بكر الخوارزمي الذي قام بدور سياسي وديني لصالح الخلافة العباسية، حينما لاحظ ما يفعله البويهيين بكتابة شعارات معادية

للخلافة على أسوار المساجد وجدران البيوت، فكان يندد بهم ويهاجمهم سواء في خطبته أو من خلال حلقاته الدراسية في جامع المنصور(5).

وقد يكون لرجال الدين واجباً سياسياً، فالخليفة القادر بالله حينما عين محمد بن الحسن قاضيا على منطقة جيلان (6)وصاه بوصية مطولة لها أهمية سياسية بالغة، حيث لم يكتف برعيته في تطبيق الشريعة الإسلامية في تلك المنطقة بدقة بل طالبه أيضا أن يدعوا للخليفة العباسي ولطاعة الخليفة في جميع المناسبات والخطب (7) وإسكات الدعوات المضادة للعروبة وان يكون العين الساهرة على رعاية السكان وان يكتب إلى دار الخلافة بما يجده من أخبار وما يعرض من أحداث فكتب إليه قائلا) (من القادر بالله إلى محمد بن عبد الله بن الحسن حين تلا حقائق أخباره واستشعر مواقع آثاره وانتهى إلى أمير المؤمنين رسوخه في العلم وسمعته في الفهم، فاستخار الله عز وجل فيما يعتمد عليه وأساله الشديد، فيما يفوضه إليه فقلده الصلاة والخطابة على المنابر والقضاء والحكم ببلاد جيلان أسودها وأبيضها.... وأمره بالنداء على المنابر في سائر المحاضر والمعاقل بالشعار الأعلى ولغرض الأوفى من ذكر دولة أمير المؤمنين وحث الأمة على طاعتهم أجمعين)) ثم يوصيه بالخارج عن الشريعة فيقول ((فان وجد فيها نافرا فريضة الدعوة الشريفة اجتذبه إليها بالموعظة الحسنة والدلالة الصريحة فان أستبصر برشده وراجع المفروض بجهده فقد فاز وغنم، وان تشاوس وتحيد استنفر عليه الأمم وقمعه بما يوصيه الحكم (8) ولهذا لم يعد القاضي موظفا عاديا بل انه أصبح الممثل (السياسي) للخليفة في الإقليم الذي يتولى العمل فيه كقاضي.

أما المحاولات التي كان فيها البويهيون يتجاوزون على ما اختص به الخلفاء وحدهم دون غيرهم كتجاوزهم بإطلاق الألقاب الفخمة على التقسيم منهم بما لا يتناسب مع موقعهم السياسي كإطلاق الحاكم البويهي (9) أبو كاليجار على نفسه لقب ((السلطان المعظم مالك الأمم)) (10) فان الفقهاء لم يسكتوا لذلك بل عقدوا مجلسا خاصا بهم واستنكروا ذلك وهيأوا الناس للتظاهر ضد الحاكم البويهي دعما لموقف الخليفة العباسي. وبالفعل فقد أعطى هذا الموقف مردود ايجابيا، فقد اجبر الحاكم البويهي على إلغاء اللقب (11). وكان تبرير الفقهاء لذلك بان إطلاق هذا اللقب على حاكم أجنبي معناه التعدي على حرمة الألقاب الخاصة بالله.

وأمام الهجمات الخارجية وقف الفقهاء مدافعين عن السلطة العربية بكل ما يملكونه من تأثير معنوي على عموم الناس وحثهم على حمل السلاح ومواجهة الأخطار الخارجية، فأثناء الحصار الذي تعرضت له بغداد من قبل الحاكم البويهي عز الدولة وأخيه عضد الدولة

استجاب الفقهاء لدعوة الخليفة الطائع لله الذي اجتمع بهم وأمرهم بتهيئة الجبهة الداخلية وتقويتها والصمود أمام هذا الخطر (12)

وإذا ما حصل تجاوز على الخليفة نفسه أو العبث بممتلكاته أو السيطرة عليها فان الفقهاء أو أئمة المساجد كانوا على المنابر يندون بسلوكية المنحرفين، ومما يذكر في هذا المجال ان غلاما لجلال الدولة البويهي قام بنهب ممتلكات الخليفة القائم بأمر الله مع ثلة من جماعته (13) فاستاء الخليفة من هذا العمل وطلب من جلال الدولة تأديبه فلم يستجيب له مما كان من الفقهاء والقضاة إلا الامتناع عن الحكم استجابة لأمر الخليفة حيث تركوا الفتاوى وقد أيدهم بذلك خطباء المساجد وأمام هذا الدعم للخليفة أذعن جلال الدولة لمطالب الخليفة وترضيته وذلك بمعاقبة المسيئين (14)

وأثناء محاولة دخول السلطان محمود بغداد (15) وبدون إذن من الخليفة، استعد الخليفة وجمع علماء الدين أمام حشد من الناس ألقى خطبة حماسية في جمهور المصلين ثم صعد إلى المنبر بعده قاضي القضاة (16) فتكلم وأشاد بموقف الخليفة وضرورة مساندته والوقوف بوجه الخطر الذي يهدد بغداد، والعمل الجاد لطرد المعتدي منها، وكان علماء الدين أول من خرج مع الخليفة وقاتلوا دفاعا عن عروبة بغداد، وكان ذلك اليوم من الأيام الخالدة التي يمجدها التاريخ كما يذكر ابن الجوزي (17).

وهناك مواقف فردية جريئة وقفتها هذه الشريحة المثقفة ضد الحكم البويهي أمثال الفقيه محمد بن عبد الله بن إبراهيم (18) الذي تحدى البويهيين عندما منعوه من إلقاء خطبته في الجامع حيث دخل الجامع وزاول عمله وألقى الخطبة والتقى بتلاميذه وكان من أشهر العلماء الذين حاربوا البدع التي ظهرت أيام البويهيين، وإذا كان موقفه يتسم بالسلم فان آخرين خرجوا على رأس تظاهرة منددين بالوجود البويهي في البلاد ومستنكرين جرائمهم ومطالبين بخروجهم من بغداد (19) وترك المدينة لأهلها.

وفي عام 367 هـ/977 م وقف أبو الحسين الفقيه والمدرس في بغداد (20) ضد البويهيين حيث اخذ ومن على المنبر يفضح أعمالهم المناوئة للخلافة العباسية والتي تتنافى والأغراض العربية الإسلامية والدين الإسلامي (21) .

وحينما أحس البويهييون بخطورة موقفه عليهم أرسلوا إليه وتم جلبه إلى مقرهم، وجرى حديث طويل بينه وبينهم انتهى إلى مضايقته وتهديده، إلا ان ذلك لم يثنيه عن موقفه، وقال لهم

(وكذلك اخذ ربك القرى وهي ظالمة) (22) ثم ترك القصر وخرج، فأرسل الحاكم البويهي إليه مع احد أتباعه مبلغا من المال قدره ثلاثة آلاف درهم يعطيها له فان أخذها قطع رأسه وجيء به إليه، بعد اتهامه بالسرقة (23) ولكن ذلك لم يحصل حيث رد عليهم قائلا ((إن هذا المال حرام ولا يجوز أخذه، ثم بأي صورة أخذه ثم تركهم وانصرف)) (24).

وأمام الضغط الشديد الذي أعلنه الفقهاء الموالين للخلافة ضد أعدائهم تمكنوا في سنة 418 هـ/1027م من تنحيه والي البصرة الذي كان شديد التأييد للبويهيين بل ومن المغالين جدا (25).

ومن المعروف ان الخليفة القادر بالله كان يلتقي مرارا بكبار العلماء في قصره حيث كان يقرا عليهم رسائله التي كتبها في الرد على أصحاب الغلو (الشعوبيين) (26).

ولم يكن الدافع الوطني وحده الذي كافح من اجله الفقهاء إنما الشعور القومي تجاه الأخطار التي هددت امن وسلامة الدولة العربية الإسلامية، وخاصة حينما تعرضت تلك الحدود إلى اعتداءات خارجية (بيزنطية) ،وكان موقف البويهيين من هذه الاعتداءات موقف المتفرج، فخرجت جماعة من الفقهاء (27)، ومعهم جماعة من أعيان البلد وبعد أن عقدوا اجتماعا لهم توجهوا إلى مقر الحاكم البويهي وألزموه ضرورة تجنيد وتسليح الشعب، وخاصة من المتطوعين منهم للدفاع عن البلاد الإسلامية، وقد اجبر هذا الموقف السلطة الأجنبية (البويهية) على الرضوخ لأمرهم والاستجابة لمطالبهم وكذلك نرى ان ما تتعرض له البلاد من اضطراب في الحياة الاقتصادية وإنهاك الحرمات (الجانب الاجتماعي) نتيجة لكثرة الضرائب(28) ولعددهما والتي كانت تثقل كاهل العامة، فإنها كانت هي الأخرى تأخذ جانبا من اهتمام الفقهاء والعلماء، ويقول الإمام الغزالي بهذا الخصوص ((ان على الفقهاء والعلماء واجبات متعددة الجوانب، كالجانب الاجتماعي والجانب الاقتصادي وذلك لأنها قد تنعكس على الواقع السياسي)).

وكثيرا ما تعرض الفقهاء للاضطهاد أو القتل أو الحبس أو التعذيب اذا ما جابهوا السلطة الحاكمة الأجنبية، أو قاموا بأعمال ضدها أو امتنعوا من إقامة شعائرهم الدينية (29).

لم يقتصر العلماء على المواقف التي سبق ذكرها بل نحوا منحى آخر، تمثل في الدعم النظري من العلماء والفقهاء، من خلال تأليف الكتب وكتابة الأبحاث سواء الموجهة من قبل الخلفاء أنفسهم ام من قبل العلماء لوحدهم لمواجهة الغزو الثقافي والديني الشعوبي، فنجد ان الكثير من العلماء قاموا بتأليف الكتب وعلى مختلف الاتجاهات السياسية والدينية والعلمية(30).



تطرقت إلى إظهار مواقف هذه الفرق وخطورتها على المجتمع وضرورة التصدي لها، وخاصة ان معظم هذه الفرق قد تغطت بالإسلام وتهدف ضمنيا إلى طمس الشخصية القومية للسلطة العربية (31) وكان معظم هؤلاء الفقهاء اما مجندون من قبل الخلافة أو طابعهم القومي العربي كان يملي عليهم ضرورة الوقوف إلى جانب الخلافة في محنتها أمام الأخطار المحدقة بها، وتبعا لذلك نرى ان الخلافة غالبا ما تتخذ قرارات بحق تلك الفئات تصل الى حد استئصالهم وخاصة تلك التي وصفت (بالزندقة) والإلحاد (32).

وقد تميزت بغداد عن غيرها من مدن العالم الإسلامي بكثرة فقهائها ومحدثيها الذين كانت لهم في طريق الوعظ والتذكير مواقف خلدتها لهم كتب التاريخ حيث وهبوا أنفسهم للدفاع عن الخلافة العربية.

ويظهر لنا ابن الجوزي كأحد هؤلاء الشخصيات المهمة في التاريخ (33)، فلقد كانت له مواقف متميزة في صلته بعصره فلم يكن من السلاطين أو الأمراء أو من حاشية الملوك أو من القادة الذين يملئون حيزا فلا يتجاوزونه، بل كان هذا الرجل ذا شخصية فذة عرف مكانه في عصره وبيئته، فانطلق يجاهد بسلاحه الذي يملكه وهو المنطق والفكر (34) ويعد ابن الجوزي صاحب مدرسة من مدارس العلم يقصده الطلبة للعلم، و يجافى عن ظل السلطان ونجا من المداهنة في قوله وعمله او الرياء له بعلمه، واستطاع أن يستعل بكلمة الحق بما يملكه من القوة في الحجة والإقناع.

وتدعوا خطته في الإصلاح ونهجه في الثورة على المفاسد والانحرافات التي جاءت بها القوى الأجنبية كالبويهيين في كتابة (تلبيس إبليس) (35) الذي حدد فيه موقفه من الفكر وسلوك السائدين في عصره.

ويعطينا ابن جبير صورة حية لابن الجوزي الذي استمع لخطبته، فذكر لنا بأنها كانت بمثابة نار ملتهبة بين جماعات الناس التي حضرت في الجامع للصلاة.

وكان القاضي أبو يعلى 408 هـ/1017م من رجال المدرسة الحنبلية ببغداد وفي القرن الخامس الهجري، ويعتبر كتابة الأحكام السلطانية والذي يشبه إلى حد بعيد كتاب الماوردي والذي يحمل نفس الاسم، دفاعا عن الخلافة العباسية وأحقيتها في حكم العالم العربي والإسلامي (36).

كما ألف الباقلاني(37) كتابة الضخم كشف الأسرار في الرد على الباطنية وتعريتهم، نلاحظ كذلك في كتاب ابن منصور البغدادي9 42هـ/1039م الفرق بين الفرق (38) وأصول الدين

هجوما شديدا على الباطنية ومنهجهم الذي اتبعوه في مهاجمة السلطة العباسية والدين الإسلامي الحنيف.ولابن عربي(39) أيضا مواقف مشرفة في مساندة الخلافة العباسية وتعرضها لمواقف صعبة وبحث في رسائله تلك المجتمع والسلطة على ضرورة التنبه لتلك التيارات والفرق الدينية التي تغلغلت إلى صفوف المجتمع والحذر منها ان هذا الموقف العظيم الذي وقفه الفقهاء إلى جانب الخلافة العربية الشرعية في صراعها مع تلك القوى الأجنبية، وتأييدهم أهمية وجود الخليفة في السلطة لإجماع الأمة عليه، هذا الدعم الكبير اذهب كل المحاولات التي أرادت أن تفصل بين الخلافة العربية والجماهير في دولة بني العباس(40). وذلك لان سلطة الخليفة بقيت ذات اثر فعال في نفوسهم لا تدانيها أية منزلة أخرى حتى انهم لم يستطيعوا ان يحملوا آثارهم وهم في حالة ضعفهم، لذا فقد كان موقفهم ذا حدين الأول تمثل في حماية الخلافة العربية ودعم الخليفة في جهوده لمقاومة هؤلاء الأجانب، والثاني تمثل في كشف وتعرية تلك الحركات الموجه أصلا ضد الفكر العربي الإسلامي(41). وصدق الشاعر حين قال لا يصلح للناس فوضى لاسرآة لهم....ولا سرآة اذا جهالهم سادوا(42).

دور العامة من التصدي للتسلط البويهي:-

كان ولاء الشعب للخليفة العباسي كبيرا، وقد عبر عن ذلك حينما تحدى السلطة الأجنبية البويهية والسلجوقية فيما بعد والتي لم يكن يهمها سوى إحكام سيطرتها على مقدرات الخلافة، لذا فقد وقف العامة موقف المتحدي، وقد عبروا عن هذا التحدي بقيامهم بعدد من الانتفاضات وثورات محلية استطاعوا في نهاية الأمر في حسم الموقف لصالحهم والحصول على ثمرة جهودهم بطردهم البويهيين من البلاد وتحريرها.

إن شعور الفرد المسلم في العصر العباسي تجاه الخطر الذي أحاق ببلاده لم يكن وليد فترة التسلط البويهي أو السلجوقي وإنما يعود لحقبة سبقت ذلك، ولقد كانت الجريمة التي ارتكبت بحق الخليفة المتوكل سنة 247هـ/881 م بسبب وقفته الجريئة بوجه السلطة الأجنبية ومحاولته للحد من نفوذهم وتغلغلهم في السلطة(43)، أدت تلك الجريمة الى إثارة العامة التي اعتبرت هذا العمل يتنافى مع ابسط الأعراف والتقاليد التي يجب ان تراعي نجاة الخليفة.

ومما ألهب ذلك الشعور هو الموقف السلبي الذي وقفته تلك العناصر من التهديدات البيزنطية على حدود الدولة العربية الإسلامية وإخراج الخليفة المستعين وجعله في موقف صعب أمام أبناء شعبه من العامة وغيرهم (44) لذلك وقد ثارت جمهرة من العامة وهجمت على

السجون سنة 248هـ/982م وأطلقت من فيها .كما انهم لم يكتفوا بذلك بل جندوا مئات المقاتلين المتطوعين من اجل التوجه إلى منطقة الثغور وصد تلك الاعتداءات حيث غرسوا في نفوس هؤلاء المتطوعين أهميـة الشعـور الوطني والديني من اجل الدفـاع عن حـدود الدولة العـربيـة الإسلامية(45).

ومن مظاهر الحركة السلمية المساندة للخلافة العباسية قيام جماعة من الأهالي في بغداد بتوزيع منشورات دعما للخليفة العباسي المهتدي بالله 225هـ/897 م الذي رأى من واجبه تطبيق العدالة الاجتماعية فقال لجماعته ممن كانوا في قصره أريد أن أكون فيكم مثل عمر بن العزيز في بني أمية (46) إلا انه اصطدم بعنجهية تلك العناصر الأجنبية المسيطرة على البلاد وحاولت الاعتداء عليه ولكن ما ان علم الناس بما تبييته تلك العناصر من شر بحق الخليفة حتى قاموا بتوزيع المنشورات التي كانت تدعوا لتأييد الخليفة المهتدي بالله ونصرته على أعدائه وقد جاء في احد هذه المنشورات ما يلي ((بسم الله الرحمن يا معشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل والرضى المضاهي لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وان ينصره على عدوه ويكفيه مؤنة ظالمة، ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه، فان الموالي اخذوا بان يخلع نفسه....)) (47).

عندما سيطر البويهيين على العراق سنة 334هـ/945م وبدخولهم بدا عهد جديد من عهود السيطرة الأجنبية، وقد افتتحوا عهدهم بعمل شنيع عندما أهانوا الخليفة المستكفي بالله وخلعوه، وما صاحب ذلك من اضطراب الحياة السياسية والاقتصادية في البلاد (48) ونهب أموال الناس ببغداد حتى اشتد الغلاء وتفشت الأمراض بين الناس (49).

ونتيجة لتلك الأوضاع المتردية قام عدد من الأهالي في بغداد وممن كانت لهم زعامات فيها، بفرض سيطرتهم عليها وتقاسموا القيادة، وأعلنوا مقاومتهم للحكم البويهي، وكان من ابرز هؤلاء القادة ابن كربويه (50). وعندما أغار الروم البيزنطيين على منطقة الجزيرة وديار بكر مرة أخرى استنصر الخليفة العباسي المطيع بالله 334هـ/363 م بأهالي بغداد فما كان منهم إلا الاستجابة لنداء الخليفة فاعدوا أنفسهم وتوجهوا للدفاع عن مناطق الثغور (51).

وحيث قاتلوا الروم وابدوا شجاعة فائقة وقتلوا منهم أعدادا كبيرة، أرسلوا إلى الخليفة رسالة يبشرونه بالنصر وان الله قد نصرهم على عدوهم فسر الخليفة بذلك (52).

لقد كان لهذا أهمية كبيرة بالنسبة للخلافة العباسية وضربة قوية لأعداء السلطة العربية الإسلامية، إذا ما علمنا ان الحاكم البويهي سبق وان منع الناس من الجهاد في سبيل الله وفي

محاولة منه لإخراج الخليفة المطيع لله أمام الناس وطلب منه مبلغا من المال [53] ،إلا ان الموقف المشرف لسلمي بغداد في نصرتهم للخليفة قد عزز من موقع الخليفة العباسي وقوى موقفه إزاء البويهيين

كما تعد الحركة التي قام بها عمران بن شاهين رمزا أخر للمقاومة ضد السيطرة البويهية[54] ،حيث لاحظ هذا القائد ما يفعله البويهيين بالبلاد والعباد، وعدم مقدرة الخليفة على الحد من نفوذهم فأراد هذا القائد أن يضعف من قوتهم، فتحصن في منطقة البطيحة [55] ونجح في دحرهم في عدة هجمات قامت بشنها القوات البويهية من سنة 338 هـ/949م وحتى سنة 356هـ/967م، ونتيجة لتعاظم قوة ونفوذ عمران، وفشل الحملات العسكرية البويهية في القضاء عليه، اضطر الحاكم البويهي إلى مهادنته، والاعتراف به أميرا على هذه المنطقة بعد عشرين عاما استطاع خلالها إقلاق السلطة البويهية وهدد وجودها بعد الانتصار عليهم عدة مرات[56].

إن ما قامت به مدينة الكوفة [57] والبطيحة من مقاومة الجند البويهي كان نتيجة شعورهم الموحد تجاه عدوهم المشترك، فان العامة من أهالي مدينة واسط هي الأخرى كانوا يشعرون بالشعور نفسه فما وصلت إليها الأخبار عن انتفاضة عـامة في مناطق معينة من البلاد حتى تحينت الفرصة واشتبكت مع الديالمة البويهيين وأخرجتهم من المدينة [58].

وفي سنة 389هـ/100 م قام العامة بثورة ضد السلطة البويهية، بسبب ما فرضته من ضرائب على الأقمشة والثياب، فقصدوا المسجد ومنعوا الخطيب من إلقاء خطبته، ثم توجهوا إلى دار احد الحكام البويهيين واحرقوها [59].

كما قام العامة بقتل احد موظفي الدولة البويهية بسبب سوء تصرفه[60]، ونتيجة لسوء معاملة احد الحكام البويهيين المدعو (بهستون) لـ (بنوسيار) احد بنون بني شيبان حيث عاث جنده بالقبيلة فما كان منهم إلا قتال هؤلاء الغرباء المحتلين واستطاعوا قتل قائدهم بطعنة خنجر خر بعدها ميتا [61].

وفي أثناء مبايعة الخليفة القائم من قبل الناس تكلم احد الجنود البويهيين على الخليفة بما لا يصلح في مقامه كخليفة للمسلمين، فما كان من احد العرب الهاشميين الموجودين في قصر الخلافة، إلا أن ضرب عنق هذا الجندي المرتزق بسيفه فقتله في الحال [62] دفاعا عن مركز الخلافة وهيبتها.

كما ثارت العامة مستنكرة ما قامت به مجموعة من الحكام البويهيين عندما اقتحمت قصر الخلافة وانتهكت حرمته بسكرهم وعربدتهم داخل فناء القصر، ولم يمتنعوا بالرغم من نداءات

الخليفة المتكررة فتجمهرت الناس حول القصر من اجل قتل هؤلاء إن لم يخرجوا من القصر وعندما شعر الحكام بخطورة الموقف خرجوا مبدين أسفهم وندمهم على ما فعلوه تجاه حرمات الخلافة (63).

وقد وقف العيارون موقفا مشرفا من الخلافة العربية الإسلامية وساندها في أوقات كثيرة(64) غير مقتصرين في دعمهم هذا على فئة دون أخرى أو جماعة دون أخرى، بل نرى ان العامة وبفئاتها المختلفة أيدت شرعية الخلافة ودعمها ولاحق البويهيين وكانوا لا يدعون فرصه إلا ويعبرون فيها عن حبهم للخلافة العباسية وتأيدهم لها (65).

وعندما خطب لجلال الدولة بـ (شاهنشاه الأعظم ملك الملوك) (66)، استعظم ذلك على الناس وما ان سمعت باسمه يتردد على المنابر حتى ثارت ثائرتها وتجمهرت ثم قامت برمي الخطيب بالحجارة حتى أجبرت السلطة على ترك وإلغاء هذا اللقب، كما منع الخليفة القادر بالله ضرب الطبول على باب جلالة الدولة (67).

واستغل الخلفاء موقعهم الديني والتفاف الناس حولهم وحبهم للسلطة العربية المتمثلة بشخص الخليفة وهم أمام قوة غازية (بويهية) والتي لم يكن لديها باعث ديني يحثهم على الطاعة (68) لذلك رأى الخلفاء العباسيين ان الخوض في هذا الاتجاه هو اكبر عون لهم في صراعهم مع السلطة الأجنبية فغذوه وتمسكوا به ومع ان الخلفاء العباسيين ومنذ مجيئهم إلى السلطة وفي أول خطبة للخليفة العباسي أبي العباس السفاح أكدوا على الناحية الدينية للخلافة (69)، الا أن واقع الحال والظروف قد تغيرت جذريا ذلك لان خصمهم يمتلك القوة العسكرية والمالية، الا انه في الوقت ذاته كان يفتقد الولاء والطاعة للرعية، وفي هذا الحق ليس من السهولة ان تمنحه الرعية لأي كان، بل ان ولائها للخليفة فقط هو الذي يمثل السلطة القانونية العليا في البلاد (70) وهو خير من تمنحه وتناصره.

لقد كان الخليفة القادر بالله خير من أجاد هذا الدور الذي قال فيه الشاعر الشريف الرضي عند توليه الخلافة (71):

شرف الخلافة يا بني العباس — اليوم جدده أبو العباس

هو الذي رفعت يداه بناءها العالي — وذلك موطد الاساسي

هو ذا الطور يفناه الزمان ذخيرة — من ذلك الجبل الأشم الراسي

وقد أيقن هذا الخليفة ان فاتحة عهده يجب ان تكون البداية للمعارضة الرسمية للسلطة الأجنبية فالتزم بأهداب الدين.

وطبقا لذلك فقد رأى هذا الخليفة الذي كان كثير التهجد بالليل [72] ان يتسابر مع الزهاد ويتقرب إليهم [73] فلبس زيهم وقصد الأماكن المقدسة [74] واطعم المعتكفين بزوايا المساجد [75].

وقد أتخذ هذا السلوك لتحقيق أهدافه السياسية، كما اخذ يدعوا الناس لسماع أرائه في المعتقدات، وأمر ان تقرا وتبين للملأ في كل يوم جمعة في حلقات المساجد من قبل إحناق الحديث، وكانت العامة تزدحم في المساجد لسماع أراء خليفتهم في المعتقد والدين [76] والداعية إلى مسؤولية الخليفة الكبرى في النهوض بسياسة الأمة ولذلك فان الخليفة القادر بالله قد دفع الماوردي إلى تأليف كتابه ((الأحكام السلطانية)) [77] وذلك خدمة لأغراض الدولة السياسية في صراعها القائم مع السلطة الأجنبية أملا في استرداد سلطة الخليفة السياسية.

تجاوب الرأي العام مع سياسة الخليفة القادر بالله تحت تأثير ديني وسياسي فهو الرمز الوحيد الباقي لديهم، ويذكران القادر بالله جدد معاهدة الخلافة وأنار اعلامها وأصلح أحوالها [78]، فانتعشت ونما رونقها ثم بدأت تتقوى [79] ((فأغاث الإسلام والمسلمين واستأنق في سياسة الأمر طرائف قوية ومسالك مأمونة سليمة..... فطالت أيامه وطابت أخباره)) [80].

ومما ساعد على هذا الانتعاش الضعف الذي أصاب القوة البويهية من تحركات العامة المستمرة عليهم [81] والظروف السيئة التي جابهت السلطة البويهية والتي جعلت الخليفة في موقف قوي مكنته من إخضاع الديالمة ورفضه تعيين رجل منهم بمنصب قاضي القضاة [82].

ويلاحظ ذلك بان الظروف الخارجية كانت تسير باتجاه جديد مع الخلافة حيث نرى ان النزاعات العسكرية كانت قائمة بين الحكام البويهيين وان بعضا منهم أنكروا وجود سلطة بويهيه وقطعوا الخطبة للحاكم البويهي (جلال الدولة) [83]، مما اضعف مركزهم السياسي، وكذلك تمرد الجند عليهم وظهور قوة جديدة في المنطقة، وكان ذلك في أول عهد الخليفة القائم بأمر الله 422هـ/1020م.

موقف الإمارات العربية من التسلط البويهي

الإمارة الحمدانية في الموصل وحلب

ا-أصل بني حمدان

يرجع الحمدانيون إلى أصول عربية، إذ ينتسبون إلى قبيلة تغلب العربية وينحدرون من جدهم الأكبر حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن راشد بن المثنى بن رافع بن غطيف بن محربة بن حارثة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنيم بن تغلب [84] ،استمدت هذه

الأسرة تسميتها من جدها الأكبر حمدان بن حمدون، لم يكن لهذه الأسرة أي ذكر في الروايات التاريخية قبل ظهور حمدان، سوى بعض الأسماء وقصص الفخر والاعتزاز التي أشار إليها أبو فراس الحمداني في قصائده (85).

انجب حمدان ستة أبناء، إبراهيم والحسين ونصر وعبد الله وسعيد وداؤود (86) وبرز من بينهم الحسين وعبد الله الذين نالا على شهرة كبيرة، ومن عبد الله تفرع الأسرة الحمدانية، المتمثلة بولديه الحسن الذي لقب بناصر الدولة مؤسس الدولة الحمدانية في الموصل، أما ولده الثاني فلقب بسيف الدولة المؤسس الحقيقي للإمارة الحمدانية في حلب (87).

ظهور الإمارة الحمدانية على مسرح الأحداث

عد تحالف بني حمدان مع الخوارج في منطقة الجزيرة ألفراتية، الظهور الأول لبني حمدان على مسرح الأحداث، لاسيما بعد أن تحالفوا مع خوارج الموصل في سنة 254 هـ/868م إذا تمكن مساور بن عبد الحميد البجلي الموصلي الخارجي أن يفرض سيطرته على معظم أعمال الموصل، وتصدى له والي الموصل الحسن بن أيوب على رأس جيش كبير، كانت قيادة قسم منه تحت حمدون بن حمدان، الا ان قوات الحسن بن أيوب منيت بهزيمة على أيدي مساور بن عبد الحميد، وأسفرت هذه المعركة على استيلاء الأخير على الموصل وبعض أجزاء اربل (88).

ونتيجة لهذا الانتصار من ناحية والطموحات الشخصية للأمير حمدان من ناحية أخرى، من اجل تحقيق مكاسب سياسية، انحاز الأمير حمدان إلى جانب مساور في سنة 263هـ /876م، تاركا الخدمة في الجيش العباسي ليصبح في هذه المرة تحت زعامة هارون الشادي، زعيم الخوارج في منطقة الجزيرة الفراتية (89).

ازدادت العلاقة بين الأمير حمدان وهارون الشادي قوة متنافسة، إلى درجة انه استمر حتى سنة 272 /هـ885م، ومما يدلك على هذه العلاقة الحسنه دخولهما سوية إلى مدينة الموصل، كما قاتلا معا في الحرب مع بني شيبان الذين استقروا في المنطقة الواقعة بين ألزابين (90).

وعلى ما يبدو ان التحالف الذي نشأ بين حمدان والخوارج ضد الخلافة العباسية في منطقة الجزيرة قد وحد جهود الخوارج عربا وأكرادا بغض النظر عن القومية، فاستعدوا لمواجهة الخليفة المعتضد بالله، إلا انهم فشلوا في التصدي لهم، إذ تمكن من طردهم من مدينة الموصل، ثم سار بجيوشهم متبعا قواتهم حتى وصل إلى قلعة ماردين التي يحكمها الأمير حمدان بن حمدون، فاضطر الأخير إلى الهرب منها تاركا ولده الحسين بن عبد الله، ففرض

الخليفة المعتضد بالله الحصار على ماردين، مما اجبر الحسين بن حمدان على الاستسلام وتسليم المدينة لجيش الخلافة، فدخلها الخليفة المعتضد، الذي أمر بدك تحصيناتها وهدمها، وأرسل قوة عسكرية حمدان بن حمدون (91).

حاول الحسين بن حمدان استرضاء الخليفة المعتضد بالله، فأعلن الطاعة له، وتعهد بالعمل تحت راية الخلافة العباسية، واخذ يتحين الفرص الملائمة التي يمكنه من خلالها كسب ود الخلافة (92)، وأصبحت الفرصة مؤاتية له عندما توجه الخليفة المعتضد بالله إلى الموصل في سنة 283هـ/896م من اجل القضاء على تمرد هارون الشادي، الذي ظل وجوده يشكل هاجسا مقلقا للخلافة العباسية في بغداد ويهددها بنشر الفوضى والعصيان في منطقة الجزيرة الفراتية وبلاد الشام (93)، فأعرب الحسين بن حمدان عن استعداده التام للقبض هارون بن شادي، لاسيما وان هذا الأمر كان هدف الخليفة المعتضد الرئيس، طالبا من الخليفة في ذات الوقت العفو عن والده، فوافق الخليفة على ذلك فسار الحسين على راس ثلاثمائة مقاتل لمطاردة هارون ونجح فعلا في إلقاء القبض عليه وارسله إلى الخليفة المعتضد في بغداد (94).

سر الخليفة المعتضد بالله بما قام به الحسين بن حمدان من دور كبير في القضاء على تمرد الخوارج والقبض على زعيمهم فأثنى على الجهد الذي بذله الحسين بن حمدان وأكرمه وأصبح منذ ذلك الحين من المقربين بل انه أصبح ساعد الخليفة الأيمن في ضرب المخالفين له(95).

بعد أن وضع الحسين بن حمدان نفسه ورجاله في خدمة الخليفة المعتضد وتقرب منه، فأوكل إليه مهمة مطاردة القرامطة (96) والقضاء عليهم وذلك منذ سنة 290هـ/902م في عهد الخليفة المكتفي، الذي أوعز إلى الحسين بن حمدان بمطاردة زكروية بن مهرويه داعية القرامطة ورأسهم في بلاد الشام، وتمكن الحسين من إلحاق الهزيمة بالقرامطة ودحرهم في سنة 291هـ/903م، والقي القبض على زعيمهم وتم إرساله إلى بغداد وقتل فيها بأمر من الخليفة(97).

كما اشترك الحسين بن حمدان في القوات العباسية التي سارت إلى مصر لقتال الطولونيين(98) ،اثر توتر العلاقات بين الخليفة العباسي المكتفي وهارون بن خمارويه بن احمد بن طولون (99) في سنة 292هـ/904 م، واشترك إلى جانب الحسين ثلاثة من أمراء بني حمدان(100).وهذا ما يدلل على المكانة المهمة التي حضيت بها الأسرة الحمدانية عند الخلفاء

العباسيين انذاك،كما ان عرض الخليفة المكتفي علي الحسين بن حمدان إمارة مصر لدليل آخر على ذلك، إلا ان الحسين رفض تولي أمور الحكم في مصر، ويرجع سبب رفض الحسين إلى كثرة الفتن والاضطرابات في مصر، فضلا عن عدم رغبته في الابتعاد عن بلاد الجزيرة موطن ابائه وأجداده.

أولى الخليفة المكتفي اهتماما كبيرا بالحمدانيين ومنح الحسين بن حمدان ثقة عمياء، فضلا عن اعتماده الكلي عليه في المهام الخطيرة سواءا الداخلية منها أم الخارجية، كما ولي أخاه أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان على الموصل وأعمالها، فوصلها في شهر محرم 293هـ/905م، الا ان وفاة المكتفي في سنة 295هـ/908م وتولى المقتدر بالله للخلافة أدى تغيير جذري في موقف الحسين الذي اعترض منذ البداية على خلافة المقتدر، وانضم إلى الأطراف التي عارضت توليته، ولم يكتف بذلك بل اشترك في المؤامرة التي ترمي إلى خلع المقتدر وتنصيب عبد الله بن المعتز [101].

إن الفشل الذي منيت به مؤامرة خلع المقتدر جعلته في حالة صدام مباشر مع الخليفة الذي أعلن الحرب على الحسين بن حمدان، وأرسل قوة عسكرية لمطاردته وإلقاء القبض عليه، كما أمر أخاه ابو الهيجاء بإلقاء القبض على الحسين فاضطر الأخير إلى مراسلة الخليفة، معربا عن العودة إلى طاعة الخلافة اذا ما عفى عنه الخليفة المقتدر، فمنحه الخليفة أمانا دخل على اثره إلى بغداد، فولاه الخليفة المقتدر على بعض أعمال بلاد فارس وأمره بالسير إليها على الفور [102] وذلك من اجل إبعاد خطره، إذ كان ذلك بمثابة النفي له.

إن الأوضاع السياسية المتدهورة التي نجمت عن ضعف مؤسسة الخلافة، وفقدان نظام الحكم المركزي الذي قامت عليه منذ البدء، جعلت الفرصة متاحة لرؤساء العشائر القوية والولاة الطموحين من اجل اقامة نظم حكم مستقلة عن الخلافة ولا تخضع لها إلا بشكل رسمي، فاخذوا في ممارسة الأدوار السياسية التي رسموها لأنفسهم وكان بني حمدان احد هذه القبائل التي نجحت في إقامة كيان خاص بها في بلاد الجزيرة وشمل كل من الموصل وحلب وأعمالهما، لاسيما الموصل التي تمثل المعقل الرئيسي للحمدانيين وقبيلتهم من بني تغلب، فأصبحت هذه المدينة مركز نشاط الحمدانيين، وفي أثناء انشغال الحسين بن حمدان مقارعة القرامطة والطولونيين في مصر، كان أخيه أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان يؤسس لإقامة دولة مستقلة في بلاد الجزيرة، فنجح في إقناع الخليفة المكتفي بتوليته على الموصل في سنة 293هـ/905م، لذا فيمكن عد هذه ألسنه البداية ألفعليه لقيام الدولة الحمدانية في الموصل[103].

بعد ان ضعفت الخلافة العباسية وزال نفوذها السياسي ولم يبق لها سوى السلطة الروحية وكان ولاة الأقاليم والمدن هم من يقوم بجباية الضرائب والخراج وغيرها، ومن ثم يحملون المبالغ المقررة عليهم إلى بغداد مقر الخلافة، ويستطيع كل منهم الاحتفاظ بمناطق نفوذه طالما يستطيع جمع تلك الأموال وإرسالها إلى بغداد حيث بيت مال المسلمين (104).

بقي عبد الله بن حمدان واليا على الموصل من سنة 293هـ/905 م حتى مقتله في سنة 317هـ/929م اثر اشتراكه بالمؤامرة التي دبرت لخلع الخليفة المقتدر بالله(105) وخلال ولاية عبد الله على الموصل ضعفت الخلافة كثيرا وأخذت المحن تعصف بها بسبب تسلط العناصر الأجنبية فيها، مما اطمع الحمدانيين إلى استغلال هذا الوضع المتدهور فمدوا نفوذهم إلى مناطق أخرى من بلاد الجزيرة كما اخذوا بإنقاص المبالغ المفروضة عليهم، ومن ثم الامتناع عن دفعها بشكل نهائي (106).

بعد مقتل عبد الله بن حمدان في سنة 293 هـ/905م، بقي أبنائه يطمعون بالعودة إلى حكمها متبعين شتى الوسائل من اجل ذلك، وكان الحسن بن عبد الله بن حمدان من ابرز الشخصيات في الأسرة الحمدانية، ودخل في المؤامرات التي كانت تدور في قصر الخلافة، كما وجد في الصراع الدائر بين الخليفة المقتدر ومؤنس الخادم الرجل الأول بعد الخليفة العباسي في بغداد، فرصته التي قد يعود من خلالها إلى إمارة الموصل فانضم إلى جانب الخليفة المقتدر إلا انه هزم أمام مؤنس الخادم في سنة 320هـ/932م، فطلب العفو منه وترك جانب الخليفة وأصبح احد جنود مؤنس المناهض للخلافة (107) ،كما قام باغتيال عمه سعيد بن حمدان في سنة 323 هـ/943م بعد ان علم انه قد ضمن مدينة الموصل وأعمالها سرا من الخليفة الراضي(108).

أصبح الحسن بن عبد الله أمرا واقعا على الخلافة العباسية، فأضطر الخليفة الراضي إلى منحه مدينة الموصل وأعمالها مقابل ضمان سنوي يدفع للخلافة في بغداد ولم يلبث الحسن ان بدأ بمد نفوذه وتوسيع سلطته لتشمل منطقة واسعة تمتد من تكريت جنوبا وحتى مدينة أمد في إقليم الجبال شمالا بموجب سياسة التضمينات التي يؤديها للخلافة العباسية (109).

لم يكتف الحمدانيون بالموصل فقط بل أقاموا إمارة أخرى لهم في بلاد الشام ومركزها حلب ووسعوا مناطق نفوذها مع بداية عصر التسلط البويهي لتضم جميع بلاد الجزيرة بما فيها منطقة الثغور المحاذية لبلاد الروم (110) وبعد هذا النفوذ والمكانة التي حققها بنو حمدان تم منح الأمير ناصر الدولة الحمداني منصب إمرة الأمراء في بغداد سنة 330هـ/942م إلا ان

الإخفاق الكبير الذي أصاب سياستهم وأثر على مكانتهم في بغداد وعقب فشل أخيه سيف الدولة في الصمود أمام مؤامرات الأتراك في واسط أدى ذلك إلى فرار الأخوين من بغداد نحو الموصل (111) التي أصبحت ملجأهم الوحيد،وعين الأمير ناصر الدولة شقيقه الحسين سيف الدولة على مدينة نصيبين في بلاد الجزيرة ذات الخيرات الوفيرة (112).

ان مدينة نصيبين لم تكن بالمستوى الذي يلبي طموح الأمير سيف الدولة الحمداني فبدأ يتطلع نحو بلاد الشام، لاسيما وان النفوذ الاخشيدي فيها بدأ يضعف شيئا فشيئا (113) وكان ذلك بتشجيع أخاه ناصر الدولة (114) الذي أمده بألف رجل وخمسون ألف دينار (115) ليبدأ بتنفيذ مشروعه بالتوجه نحو مدينة حلب التي راسله بعض أمرائها من بني كلاب الذي أقصاهم احد أبناء عمومتهم واستأثر بالسلطة بعد أن عينه الاخشيدي نائبا فيها (116).

سار سيف الدولة من مقره في نصيبين متوجها إلى حلب ودخلها في سنة 333هـ/944م، ومما ساعده على تحقيق هدفه، عدم ملاقاته لأي مقاومة تذكر، بل ان الأمراء الذين راسلوه سابقا خرجوا لاستقباله، وبعد أن أدرك نائب المدينة أبو الفتح عثمان بن سعيد الكلابي ان استيلاء سيف الدولة على حلب أمرا لابد منه، خرج إليه بنفسه مستقبلا ومقدما كل فروض الطاعة والولاء التام له لتبدأ بذلك حقبة الحكم الحمداني في حلب (117).

لقد أفزعت أنباء استيلاء سيف الدولة على حلب، الأمير محمد بن طفج الاخشيد، مما دفع الأخير إلى السير بنفسه على رأس جيش كبير، لاسيما بعد ان بلغته أخبار تقدم سيف الدولة إلى حمص واستيلائه عليها ثم توجه منها إلى دمشق، وعندما علم سيف الدولة بخروج الاخشيد لحربه تراجع عن دمشق باتجاه مدينة قنسرين، ودارت المعركة التي انتصر فيها الاخشيد على الحمدانيين، بسبب الفارق العددي بين الطرفين، ودخل الاخشيد بجيوشه الى مدينة حلب بعد أن تركها سيف الدولة (118).

ودارت بعد ذلك عدة مناوشات بين الطرفين في سنة 332هـ /944م و333هـ/945م أدرك الاخشيد خلالها عدم قدرته على تحقيق نصر حاسم على سيف الدولة (119)، مما ألجأه إلى الحلول السلمية فأرسل إلى سيف الدولة من اجل الصلح وتم عقد اتفاق بين الطرفين في سنة 334هـ /946م، أصبحت بموجبه كل من حلب وحمص وحماة لسيف الدولة على ان لايتعرض لاي منطقة أخرى من مناطق بلاد الشام التابعة للاخشيد (120)، وبهذا الاتفاق وطد الحمدانيين حكمهم في بلاد الشام واستمروا في حكمها حتى سنة 414هـ/1023م.

موقف بني مزيد من التسلط البويهي:

يرجع نسب بني مزيد إلى بني أسد بن خزيمة من العرب العدنانية، وكانت أول علاقة لهم مع البويهيين، هي طلب وزير معز الدول أبي محمد ألمهلبي منهم حماية منطقة سورا وسوادها قبل سنة 352هـ /963 م ولا نعرف بالضبط حقيقة موقفهم من الغزو البويهي للعراق، فتارة كانوا مع البويهيين وتارة ضدهم، ويمكن ان يفسر هذا التذبذب بقوة أو ضعف البويهيين، بل استغلوا الخلافات البويهية لصالحهم، وأيدوا طرفا ضد آخر تحقيقا لرغباتهم، مثلما حصل أثناء الخلاف بين بهاء الدولة وصمصام الدولة، وقد أعلن بنو مزيد استقلالهم عن البويهيين وسيطروا على المناطق التابعة لمدينة واسط في سنة 387هـ / 997 م، فتوجهت إليهم قوة عسكرية بويهية استقرت في مدينة واسط، لتترقب الأوضاع وتطورها، لكي تحسم الأمور في المنطقة، أما بنو مزيد فقد تحصنوا في آجامهم، ثم جرى الصلح بين الطرفين، بعد ان تيقن البويهيين من صعوبة هذه المنطقة وصعوبة سير الجند البويهي فيها نظرا لوعورتها ، وانتشار الغابات والأدغال فيها ووجود الجداول والقنوات، وصعوبة إرسال المدد العسكرية والغذائية إلى الجيش فيها، وقد اقر بهاء الدولة الصلح الذي تم عقده بين الطرفين.

تعرض العقيليون في عام 387 هـ /997م إلى هجوم بويهي أزاحهم عن منطقة المدائن التي كانت خاضعة لهم، وقد أراد البويهيون أن لا يحدث أي تقارب بين بني مزيد وبين بني عقيل خوفا من توحد القوتين معا ضد الوجود البويهي في العراق، ولكن بني مزيد وقفوا إلى جانب العقيليين، على الرغم من وجود بغض الخلافات بينهما، ألا وهو التنافس على حكم بعض المناطق، إلا ان بني مزيد وحدوا قواتهم مع العقيليين وهاجموا القوات البويهية، وانزلوا بها خسائر فادحة وتم اسر عدد من الجند البويهي، إلا ان قائد الجيش البويهي أبا جعفر الحجاج تمكن من إعادة تنظيم قواته وهاجم القوات العربية المشتركة في نواحي الكوفة وانزل بها خسائر فادحة واستباح المناطق الخاضعة لبني مزيد **(121)**.

وفي سنة 393 هـ / 1002 م اقر البويهيون بسيادة بني مزيد على المناطق التي يسيطرون عليها، لقاء مبلغ سنوي يؤدى إلى البويهيون في بغداد ومقداره أربعين ألف دينار، وهذه محاولة من البويهيين لربط بني مزيد بهم خوفا من حدوث أي تقارب بينهم وبين أي قوة عربية في المستقبل، مثلما حدث مع بني عقيل، كما حاولت السلطة البويهية زرع الفتنة والشك بين بني مزيد وبين بني عقيل، لمنع أي تقارب مستقبلي بين الطرفين، إلا ان هذه الجهود ذهبت ادراج الرياح، ووقف بني مزيد مع القائد بدر بن حسنويه الكردي سنة 393 هـ /1002م،

وسارت قواتهما وضربت حصارا على بغداد استمر شهرا كاملا، في وقت كان الجيش البويهي مشغولا بقتال ابن واصل في منطقة البطيحة، وكاد الطرفان يحرران العراق من الوجود البويهي في منطقة البطائح، فآثر الانسحاب عن بغداد.

لم يصطدم البويهيون مباشرة مع بني مزيد بل سعوا إلى إقامة علاقات ودية ظاهرية معهم، وعملوا سرا في إضعافهم بطرق عديدة منها تعميق الصراع الأسري بين أفراد الأسرة وإثارة مشكلات لهم مع بني دبيس الذين كانوا في نواحي الاحواز، حيث وقعت معارك بين الطرفين سنة 401هـ/ 1010 م(122) و405هـ /1014 م (123). وفي سنة 408هـ /1017م توفي الأمير علي بن مزيد وتولى ابنه دبيس، وقد اقره الحكم البويهي في بغداد على حكم المناطق التابعة له ولم نعد نسمع بعد هذا التاريخ أي نشاط ملحوظ لبني مزيد بسبب الانشقاق الأسري، كما نجح البويهيون مرة أخرى في أحداث خلاف بين العقيليين وبين بني مزيد سنة411هـ/1020م وسنة 417هـ/ 1026م، كما ان الأمير المزيدي حاول أيضا تأجيج الصراع الأسري بين البويهيين مرة أخرى(124).

موقف بني عقيل من التسلط البويهي:

أدى ضعف الإمارة الحمدانية في الموصل إلى ظهور قوى جديدة في المنطقة كان من أبرزها قيام العقيليين بتأسيس دولة لهم في منطقة ولاية الموصل، وبخاصة بعد سنة 380هـ /990م، أسس هذه الإمارة محمد بن المسيب الملقب بأبي الذواد، وقد اعترف به الحاكم البويهي أميرا على الموصل، وأرسل نائبا عنه ليشرف على أوضاع الموصل، إلا أن أبا الذواد، أهمل هذا النائب ولم يقم له أي اعتبار. مما أثار حفيظة البويهيين، فأرسلوا جيشا استطاع ان يدخل الموصل بعد أن أنهزم أكثر من مرة على يد العقيليين الذين ابدوا من ضروب الشجاعة ما أذهل البويهيين.

وبعد وفاة أبي الذواد تولى أخوه المقلد بن المسيب الأمر من بعده واعد العدة لتحرير الموصل من يد البويهيين فدخلها سنة 386هـ /996م، ووسع نفوذ الإمارة العقيلية وأصبح له نائبا في بغداد (125)، وسيطر العقيليون على مناطق واسعة من العراق مثل المدائن وداقوق والكوفة وقصر شيرين، وقد تهيأ المقلد لطرد البويهيين من العراق، واعد العدة لذلك، لكنه اغتيل من قبل احد غلمانه من الأتراك سنة 391هـ / 1000م (126)، تولى أمر العقيليين بعد وفاته ابنه الأمير قرواش بن المقلد الذي حاول أن يوحد جهوده مع بني مزيد كما رأينا ذلك، لطرد البويهيين من العراق سنة 392هـ/ 1001 م، لكنه لم ينجح في هذه المهمة التي سبقه بها

أبوه. وتكررت هذه المحاولة أيضا سنة 432 هـ/1040 م، وجرت معارك بين الطرفين الأولى في الأنبار والثانية مع البساسيري، حيث استولى العقيليون على أموال تابعة للبويهيين (127).

المقاومة العربية في منطقة البطائح ضد التسلط البويهي في العراق

تعرف البطائح (جمع بطيحة) وهي الأرض الواقعة بين نهري دجلة والفرات.وهي ارض منخفضة تتجمع فيها وقد تكونت هذه المنطقة منذ زمن ليس ببعيد منذ وقت الدولة الساسانية عندما انشغل ملوكها بمشاكلهم السياسية والدينية فأهملت القنوات والسدود والجداول، وحينما شهدت هذه المنطقة فترة الفتوحات الإسلامية لم تكن الدولة متفرغة لاصلاح وإدامة هذه المناطق زراعيا، وفي العهد الأموي جرت محاولات بتجفيف هذه المستنقعات واستصلاح الأراضي الزراعية لكونها لم تكن بالمستوى المطلوب فازدادت المستنقعات بالمياه حتى استغلها الزنج أثناء قيام حركتهم ضد الدولة العباسية، مما أدى إلى توجيه أنظار القادة العسكرية الى صعوبة السيطرة على هذه المنطقة لوعورتها وكثرة الجداول والأنهار فضلا عن كثرة الأشجار والأدغال وانتشار القصب البردي، وتكون ملاذا كثيرا للصوص وقطاع الطرق.وكذلك مما يعيق حركة الجند النظامية في هذه المناطق وخاصة إذا ما حدث تمرد في هذه المنطقة ضد السلطة.

بعد الاحتلال البويهي للعراق كانت تسكن منطقة البطيحة قبائل سليم،وقد ظهر في هذه الفترة احد القادة العرب وهو عمران بن شاهين (128) ،الذي استطاع ان يوحد القبائل الموجودة مع قبيلة سليم وان يكون منها قوة عسكرية لا يستهان بها، ومستفيدا من جغرافية المنطقة المعقدة وتعيق تحرك الجيش الداخل إليها، وكان عليه أن يؤمن حدوده الجنوبية حيث يوجد البريديون، ففاوض أبو القاسم البريدي حاكم البصرة، فاعترف به البريدي حاكما مستقلا على الصليق والجامدة وبقية نواحي البطائح، ولما اطمئن عمران ابن شاهين على قوة موقفه قطع الخطبة عن البويهيي ومنع إرسال الأموال إليهم سنة 338هـ/949م، ولما علم معز الدولة البويهي بثورة عمران بني شاهين، جهز حملة عسكرية اسند قيادتها إلى وزيره أبي جعفر الصيمري (129) ودارت رحى الحرب بين الجانبين، وعلى الرغم من رجحان كفة الجيش البويهي، إلا إن عمران بن شاهين استمر في موقفه الصامد.وقد حدث ما يقوي موقف عمران وهو حدوث خلل في منطقة شيراز،فطلب معز الدولة البويهي من وزيره الصميري وقف الحرب والتوجه إلى شيراز لإصلاح الأوضاع فيها .وقد أفادت هذه المتغيرات عمران بن شاهين في تعزيز موقفه من جديد وإعادة تنظيم قواته العسكرية (130).

إن تكرر محاولات السيطرة البويهية على منطقة البطائح كلما سنحت لها الفرصة وخدمتها الظروف في السنوات 339هـ/950 و344هـ955م و345هـ/956م و355هـ/965م و355هـ/966م و360هـ970م[131] ، وقد وقد فشلت كل هذه الحملات، لا بل عززت كل حملة قوة عمران بن شاهين وإمارته ضد الوجود البويهي، حتى لقد اعترف به الحكام البويهيين حاكما مستقلا وطلبوا مصاهرته ابان الصراع الأسري البويهي لكنه رفض كل هذه العروض، وقد أثرت وفاة عمران بن شاهين على قوة الإمارة سنة 369هـ/978م[132] ،حيث أدت الصراعات الأسرية دورها في إضعاف إمارة البطائح، سنة 376هـ/986م وبعد وفاته تولى ابن أخته علي بن نصر أمر البطائح، فقام بالاعتراف بالبويهين وتلقب بمهذب الدولة[133].

لكن الأمور لم تستقر لمهذب الدولة إذ أعلن احد القادة الثورة عليه وهو أبو العباس ابن واصل، وربما أعلن هذا ثورته ضد سيده بسبب مهادنته للبويهيين، فسيطر على البطائح واخرج مهذب الدولة منها، ومما يؤكد ما ذهبنا إليه هو قيام بهاء الدولة البويهي بحملة عسكرية على البطائح لإعادة مهذب الدولة إلى حكم البطائح، لكن ابن واصل الحق هزيمة منكرة بهذا الجيش البويهي، ثم جهز البويهيون حملة عسكرية أخرى اشرف على تجهيزها وتدريبها عميد الجيوش البويهي، وقد أعادة هذه الحملة مهذب الدولة الى حكم البطائح مرة أخرى[134] بعد ان فشلت في الحملة العسكرية السابقة، وجرت معارك عديدة انتهت بمقتل ابن واصل سنة 397هـ /1006 م[135] وبعد وفاة مهذب الدولة سنة 408هـ / 1017 م، لم يستقر أمر البطائح وذلك للخلافات الأسرية التي لم تدع المنطقة تستقر[136] .

لكن أمر البطائح لم يستقر ففي سنة 418هـ /1027م، توجهت حملة عسكرية إلى البطائح بقيادة الوزير أبي محمد ابن نابهشاد، فسيطر على البطائح وابتز أموال الناس وظلمهم، وفرض الضرائب على الدور وألزمهم بأدائهافضجر الناس من سلوك البويهيين معهم فقسم قرر الهجرة وترك البطائح وقسم قرر المقاومة، وكان هناك قائد طموح يسمى بالشرابي، فحاول هذا خداع الوزير البويهي، وزين له إرسال الرجال والجيش الى مناطق مختلفة من البطائح لجمع الأموال، ثم انقض هو وسكان البطائح على الوزير البويهي وقتلوه، ثم كسروا السدود وقطعوا الطرق وظل الأمر هكذا إلى سنة 432هـ /1041 م إلى ان جاء ابن العبراني واحتل البطائح سنة 433هـ/ 1042 م فلجا ألشرابي إلى دبيس بن مزيد ألأسدي[137].

الهوامش

1- ابن الجوزي/المنتظم 58/8

2- ابن كثير /البداية والنهاية 312/11

3- ابن الجوزي /المنتظم 228/8-229؛ابن الأثير/ الكامل 243/10

4- سبط ابن الجوزي/مرآة الزمان 221/8

5- أمين /موقف الفقهاء من التسلط الأجنبي ص10

6- جيلان/منطقة تقع في شمال غرب إيران حاليا

7- رضوان السيد/قوانين الوزارة ص65-66

8-ابن الجوزي /المنتظم 209/8

9- ابن الجوزي/المنتظم 209/8

10- ابن الجوزي /المنتظم 210/8

11- ابن الجوزي /المنظم8 /66 حيث يشير ان الإمام رجم بالحجارة وسخطوا المصلون عليه لأنه ردد هذا اللقب من على المنبر على الحاكم البويهي

12-ابن الجوزي /المنتظم 70/8

13- ابن الأثير /الكامل 440/9

14- ابن الجوزي/ المنتظم 256/9

15- قاضي القضاة هو أبو القاسم الزيني انظر:ابن كثير /البداية والنهاية 1965/11-

16- ابن كثير /البداية والنهاية 290/11

17- للاطلاع على التفاصيل ينظر المنتظم :256/8-258؛ابن الاثير الكامل 10-636

18- ابن كثير /البداية والنهاية 290/11

19- ابن الأثير /الكامل 149/9

20- ابن كثير /البداية والنهاية 290/11

21- ابن كثير /البداية والنهاية 11 /291

22- سورة هود ايه 11

23- ابن الجوزي/ المنتظم 190/8

24- هنالك فقهاء تعرضوا للاهانة كسحب عمائمهم من قبل الجند أمثال أبو منصور بن يعقوب:انظر ابن الجوزي /المنتظم 189/8-190

25- الماوردي /قوانين ص 75

26- الماوردي /قوانين ص75-76

27- من هؤلاء الفقهاء أبو بكر الرازي للتفاصيل ينظر:ابن كثير /البداية والنهاية 11 /260

28- ابن الجوزي/ المنتظم 458/8

29- علوم أحياء الدين 12/3

30- ألقلانسي /ذيل تاريخ دمشق ص89

31- ابن تيمية /السياسة الشرعية ؛الغزالي /فضائح الباطنية

32- ابن الجوزي /المنتظم 42/8-43

33- ولد ابن الجوزي:عبد الرحمن ابن علي في بغداد عام 510 هجري من أسرة قرشية النسب كان على درجة كبيرة من الفقه والأصول.

34- ألف ابن الجوزي العديد من الكتب في مختلف المواضيع للتفاصيل ينظر.الحكيم /نوابع الفكر العربي ص110-111

35- ينظر ابن الجوزي /التبصرة حول ماكتبه المحقق لهذا الكتاب في صفحاته الأولى

36-انظر ابو يعلى /الأحكام السلطانية وفيه يحدد موقفه من الخلافة والسلطة الأجنبية

37- انظر:ما كتبه رضوان السيد عن الماوردي (قوانين) ص69

38- انظر:توفي سنة 429 هوكان عارفا بعلوم العدة للتفاصيل ينظر: ابن خليكان وفيات الأعيان 203/3

39- محي الدين /رسالة روح القدس في محاسبة النفس انظر:بلاثيوس /ابن عربي حياته ومذهبه

40- ابن الجوزي /المنتظم 10 /147-148

41-ابن طباطبا /الفخري ص141

42-البيت للشاعر الجاهلي الافوه الاودي وذكره الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية

43- الطبري /تاريخ 222/9:ابن خليكان /وفيات الأعيان 350/1-351

44- الطبري /تاريخ 7/121-131
45- ابن الأثير /الكامل 7/122
46- المسعودي /مروج الذهب 4/102- 103
47- ابن الأثير /الكامل 8/221:محمد عمارة /الغزو التحدي ص136
48- ابن الأثير /الكامل 8/451-456
49- ابن الأثير /الكامل 8 /465
50- جواد/الفتوة وأثرها في توحيد البلاد 5/56
51- ابن الجوزي /المنتظم 7/65
52-ابن الجوزي المنتظم 7/60: ابن الأثير /الكامل 8/618
53- ابن الأثير/الكامل8/620:ابن كثير /البداية والنهاية 11/272
54- أمين /العيارون والشطار ص10-15
55- مسكويه /تجارب الأمم 2/119-232
56- عمر/الخلافة العباسية 416
57- ابن الأثير/ الكامل 8/541
58- ابن الأثير /الكامل 9 /302
59- الروذراوي/ذيل تجارب الأمم ص335-336
60- الروذراوي/ذيل ص 402-403
61- الروذراوي /ذيل ص403
62- ابن الجوزي /المنتظم 8/59
63- ابن الجوزي /المنتظم 8/68
64- ابن الجوزي /المنتظم 8/78 فما بعدها
65- أمين /العيارون ص15
66- ابن الجوزي/المنتظم ص97
67- ابن الأثير /الكامل 8/97
68- ابن الأثير /الكامل 8/452
69- اليعقوبي /مشاكله الناس لزمانهم ص52
70- سانتيلانا/ تراث الإسلام ص421
71- الروذراوي/ذيل ص207
72- ابن الجوزي /المنتظم 8/161

73- ابن الأثير/ الكامل 416/9
74- ابن الجوزي /المنتظم 292/8
75- ابن [illegible] /الفخري ص300
76- للاطلاع ينظر ابن الأثير /الكامل 9/414- 415
77- جب /دراسات في حضارة الإسلام ص200
78- الرذراوي /ذيل ص206-207
79- ابن الأثير /الكامل 415/9
80- ابن الجوزي/المنتظم 163/8-174
81- ابن الأثير /الكامل 352/9
82- ابن الأثير الكامل 182/9
83- ابن الجوزي /المنتظم 8218
84- ابن خليكان /وفيات الأعيان 114/2
85- ابن حمدان /ديوان أبي فراس ص123
86- ابن خليكان /وفيات الأعيان 115/2
87- ابن حمدان /ديوان ص126
88- ابن الأثير /الكامل 188/7
89- ابن الأثير /الكامل 7/ص360
90- الطبري /تاريخ الرسل والملوك 9/10
91- المسعودي /مروج الذهب 246/4
92- السامر /الدولة الحمدانية في موصل وحلب 79/1-80
93- الطبري /تاريخ 10 /43-44
94- الطبري /تاريخ 44/10
95- المسعودي /مروج الذهب 660/4
96- هي حركة تدمج بين الأفكار الفلسفية والدين أسسها حمدان ابن قرمط انظر:ديموبين /النظم الإسلامية ص53
97- ديموبين /النظم الإسلامية ص53
98- ابن الأثير /الكامل 530/7-532
99- انظر:ابن خليكان /وفيات الأعيان 173/1
100-السامر /الدولة الحمدانية ص98

101- مسكويه /تجارب 13/1

102- القرطبي /سلطة التاريخ الطبري ص29

103- السامر /الدولة الحمدانية 203/1

104- السامر/الدولة الحمدانية 203/1

105- ابن تغري بردي /النجوم الزاهرة 223/3

106- ابن الأثير /الكامل 52/8

107- القرطبي /صلة ص119

108- مسكوية /تجارب الأمم 322/1

109- مسكوية /تجارب الأمم 329/1

110- السامر /الدولة الحمدانية 250/1

111- ألصولي /أخبار الراضي والمتقي ص58

112- ابن حوقل /صورة الأرض ص91

113- السامر /الدولة الحمدانية 30/2

114- ابن العديم /زبدة الحلب في تاريخ حلب ص111

115- الكبيسي /القائد سيف الدولة الحمداني ص43

116- ابن العديم /زبدة الحلب 111/1

117- ابن العديم /زبدة الحلب 112/1

118- ابن العديم /زبدة الحلب 114/1-115

119- السامر /الدولة الحمدانية 33/2

120- الأندلسي /المغرب في حلل المغرب ص42

121- السامرائي /تاريخ ص189-190

122- ابن الأثير /الكامل 223/9

123- ابن الأثير /الكامل 249/9-250

124- السامرائي /تاريخ ص 191-193

125- ابن الأثير /الكامل 133/9،125

126- ابن الأثير / الكامل 164/9-165

127- ابن الأثير /الكامل 197/9 حيث دخل العقيليون بحروب مع قبائل خفاجة أضعفت دورهم

128- استطاع هذا القائد من الاستفادة من طبيعة المنطقة في تكوين قوة مناهضة للدولة وخاصة ضد التسلط البويهي انظر:ابن الأثير /الكامل 8ص700

129- النجار /الشطار والعيارين في التراث العربي ص482

130- ابن الأثير /الكامل 483/8

131- ابن الأثير /الكامل 573/8

132- ابن الأثير /الكامل 701/8

133- ابن الأثير /الكامل 30/9-31

134- ابن الأثير /الكامل 9/ 50

135- ابن الأثير /الكامل /189-181

136- ابن الأثير /الكامل 302/9

137- السامرائي /تاريخ ص190

4

الفصل الرابع

الخلافة العباسية في حقبة التسلط السلجوقي



أولا :أصل السلاجقة

لا يزال الغموض يكتنف أصل السلاجقة التي تنحدر منها الأسرة السلجوقية، ويرجع السبب في ذلك إلى الكثير من الروايات التاريخية التي يغلب عليها طابع الخرافة والأسطورة (1) وربما أوردت هذه الروايات التي اتصفت بعدم الدقة بسبب عدم تدوين الأحداث التي تتعلق بتاريخهم المبكر ،إلا ان الأمر المؤكد عنهم ان جدهم هو سلجوق بن دقاق الذي استمدوا تسميتهم منه (2) كان احد أمراء الأتراك الغز، رزق بولد اسماه سلجوقا، وقبل أن يتولى سلجوق زعامتهم لم يكن هناك اسما خاصا يعرفون به (3) وأنجب سلجوق أربعة أبناء : ميكائيل وارسلان وموسى والرابع توفي وهو صغير السن ولا يعرف اسمه وأنجب ميكائيل ولدين هما طغرلبك محمد وجعفر بك داؤود (4).

ترجع الأسرة السلجوقية حسب ما أوردته المصادر التاريخية إلى عشيرة الغز التركية (5) التي كانت تعيش في أواسط آسيا قرب بحر قزوين (6) فأقامت في منطقة تركستان وبلاد ماوراء النهر (7)

لقد كان يقف وراء تلك الهجرة أسباب سياسية واقتصادية كضغط القبائل التركية الأخرى التي تمتاز بالقوة والغلبة عليهم فسيطرت على أراضي السلاجقة ومراعيهم ،أما الأسباب الاقتصادية فتمثلت بسوء الوضع الاقتصادي نتيجة لازدياد عدد التركمان الوافدين إلى بلادهم، فضلا عن حدوث موجات من القحط في بلادهم أدت إلى مجاعات، فأصبحت هذه البلاد غير صالح للحياة (8).

ولقد أوردت بعض المصادر والمراجع روايات يشك في صحتها (9) وعلى ما يبدوا ان هذه الروايات وضعت بعد قيام الدولة السلجوقية من اجل الرفع من شؤون الأسرة السلجوقية وأمرائها ،وإضفاء الشرعية على دولتهم، وإظهارهم بمظهر المدافعين عن الإسلام كما هو الحال في الروايات التي أوردتها المصادر عن أصل البويهيين من قبل ،وليتمكنوا من بسط نفوذهم على البلاد الإسلامية بشكل اكبر الاانهم في حقيقة الأمر كانوا على العكس من ذلك، فقد ارتكبوا الكثير من الجرائم بحق الرعية (10).

هاجر السلاجقة إلى المناطق الخاضعة للحكم الإسلامي في بلاد ماوراء النهر واستقروا في مدينة جند القريبة من نهر سيحون (11) وكان ذلك في حدود القرن الرابع الهجري، العاشر

للميلاد، فتأثروا تأثيرا كبيرا بمسلمي هذه المدينة، فدخلوا الإسلام على المذهب الحنفي، وأعلنوا عن طاعتهم وتأييدهم للخليفة العباسي في بغداد (12).

ثانيـــا : قيـــام الدولـة السلجوقية :

بدا سلجوق بعد دخوله الإسلام بغزو مناطق أواسط أسيا التي يقطنها أبناء قومه من اجل نشر الإسلام (13) كما دخل السلاجقة في الصراع الذي نشب بين الدولة الغزنوية (216-389 هـ/874 -999 م) وبين ملوك الترك الايلخانيين، فأرسل ولده ارسلان على رأس عدد كبير من المقاتلين السلاجقة للقتال إلى جانب السامانيين (14) وكان سلجوق يهدف من وراء هذا الموقف العمل على توسيع مناطق نفوذه في بلاد ماوراء النهر وعلى حساب السامانيين، وتم هذا بالفعل لسلجوق ، إذ سمح لهم السامانيين بالاستقرار في بلاد ما وراء النهر وأصبحت مدينة جند عاصمة لهم وقاعدة عسكرية للانطلاق منها إلى ضفاف نهر جيحون وبحيرة خوارزم ونجحوا في تحقيق حلمهم فيها حتى وفاة سلجوق الذي دفن بمدينة جند عن عمر ناهز (107) سنوات وترك خمسة أولاد : ارسلان وموسى ويونس ويوسف وميكائيل، فكان لهم جميعا دورا كبيرا في إقامة دولتهم وترسيخ حكمها وأصبح ارسلان الابن الأكبر لسلجوق حاكما على السلاجقة بعد أبيه، وهو جد سلاجقة الروم الذين انقسموا على السلاجقة فيما بعد (15).

أصبح السلاجقة أصحاب قوة كبيرة بفضل قيادة الأمير ارسلان، مما أثار مخاوف ملوك الترك، فاضطروا إلى مهادنة السلطان الغزنوي (381-421هـ/997- 1030م) ، وإقامة مصاهرة سياسية بينهم إذ تزوج السلطان محمود من ابنة ملك الترك ايلك خان ،مما ساعد على تحسين العلاقات فيما بينهم بشكل أكثر ،وبموجب هذه العلاقة الحسنة والمصالح المشتركة اقترح ايلك خان على السلطان الغزنوي ان يستفيد من السلاجقة في مقترحاته لبلاد الهند لإبعاد خطرهم كما حذره في ذلك الوقت من تعاظم قوتهم، لكي لا يشكلوا خطرا عليهم، وقد يؤدي ذلك إلى تأسيس دولة مستقلة خاصة بهم (16).

سعى السلطان محمود الغزنوي الى استمالة السلاجقة بعد تعاظم قوتهم، فأرسل إلى الأمير ارسلان مبعوثا يطلب منه الحضور إلى مقر السلطان محمود في غزنة للتداول في أمور الجهاد في الهند، كما وعده بالهدايا السلطانية ،فلبى ارسلان طلبه وسار إلى غزنة على رأس عشرة آلاف فارس سلجوقي ،وعندما علم السلطان محمود بذلك، أرسل إلية يخبره بعدم الحاجة إلى هذا العدد من الجند حاليا، وبناءا على النية الحسنة لدى الأمير ارسلان الذي لم

يشك بما يدبره السلطان محمود، فصرف المقاتلين وأبقى على ثلاثمائة من أعيان بلده ويضمنهم ولده قتلمش، وعندما وصلوا غزته تم إلقاء القبض عليهم من قبل جنود السلطان محمود، فلبث ارسلان وولده أسرى في سجن السلطان حتى توفي ارسلان في سنة 424هـ/1031 م[17].

انتقلت سيادة السلاجقة إلى الأمير ميكائيل شقيق ارسلان في سنة 415هـ/1024 م، وكان لولده طغرلبك المؤسس الحقيقي للدولة السلجوقية دورا كبيرا في قيادة السلاجقة ،وإقامة دولتهم ،فأرسل الأخير إلى السلطان محمود يلتمس منه السماح لهم بعبور نهر جيحون نحو خرسان متذرعا بضيق مراعيهم ،مقابل دفع مبالغ كبيرة من الأموال فضلا عن تقديم الهدايا الفخمة له ،فوافق السلطان الغزنوي على طلبه طمعا بالمال ،فعبروا إلى خرسان في سنة 416هـ/1025م فثبتوا حكمهم فيها [18].

مما أثار مخاوف السلطان الغزنوي فأرسل إلى واليه على خرسان يأمره بمحاربة السلاجقة وإخراجهم من خرسان ،لكنه تردد في بادئ الأمر ،الا ان إلحاح السلطان اضطره إلى الموافقة فسار إلى قتالهم ،إلا ان الحملة لم يكتب لها النجاح ،إذ تمكن السلاجقة من تحقيق نصرا مؤزرا على القوات الغزنوية في معركة دارت بالقرب من سرخس في سنة 429هـ/ 1038 م[19].

بعد هذه المعركة أعلن طغرلبك نفسه سلطانا وأمر بان يدعى له في الخطبة في جميع أنحاء خراسان [20]، ونظرا لما بلغه السلاجقة من قوة ،وما حققوه من انتصارات على الغزنويين ،سار السلطان مسعود الغزنوي للثأر منهم وطردهم من خراسان ،فالتقى معهم في عدة معارك ،كانت نهايتها معركة داندقان حي وقعت المعركة الفاصلة في سنة 431هـ /1040م والتي عدت من المعارك الفاصلة في التاريخ ،وبداية لقيام دولة السلاجقة في بلاد فارس[21] والتي فرضت سيطرتها على مناطق الري وأصفهان واذربيجان وارمينيا الكبرى[22] لتصبح بذلك من اكبر الدول الإسلامية في القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي ففرضت سيطرتها على مقدرات العالم الإسلامي والاستبداد بخلافته العربية بعد ان دخلت بغداد في سنة 447هـ/1055 م في عهد الخليفة القائم بأمر الله[23].

ثالثاً: دخول السلاجقة إلى بغداد 447هـ/1056

بعد أن وطد طغرلبك أركان دولته في بلاد فارس، اتخذ من مدينة الري عاصمة له [24] ثم بدا يفكر في توسيع رقعة دولته ومد نفوذه إلى مناطق أخرى من العالم الإسلامي ،ولاسيما العراق مقر الخلافة العباسية ،لإدراكه التام بان السيطرة على العراق تعني اعتراف العالم الإسلامي

من خلال الشرعية التي يضفيها الخليفة عليه ،فكان وضع العراق الأمني والإداري غير المستقر [25] بسبب تدهور الحكم البويهي وضعفه ،نتيجة للانشقاق الحاصل بين أفراد جيشه بعنصرية الديلمي والتركي من جهة والصراع بين الجند والأمراء الأتراك من جهة أخرى [26].

وفي الوقت ذاته كان الوضع محتدما بين الخليفة القائم بأمر الله والبساسيري [27] احد الأمراء الأتراك في بغداد ،الذي أصبح أكثر من ذي قبل عندما كتب ابن مسلمة وزير الملك الرحيم أخر الحكام البويهيين في العراق إلى الخليفة القائم يعلمه بعزم البساسيري على القضاء على الخلافة العباسية ،وضم العراق إلى الخلافة الفاطمية في مصر، بعد الاتفاق الذي جرى بينه وبين الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ،وعندما علم البساسيري بمعرفة الخليفة بالمؤامرة التي كان يدبرها له فر إلى الحلة خشية من القبض عليه وقتله [28].

كما كان لسوء العلاقة بين الخليفة العباسي والحكام البويهيين سبب تغطرسهم المستمر على الخلفاء والاستبداد بالحكم منذ قيام دولتهم في عهد الخليفة القائم ،الذي بدا يمارس صلاحياته أكثر من أسلافه ممن تولوا الخلافة في حقبة التسلط البويهي من ناحية أخرى ،حيث أصبح الخليفة العباسي في هذه الحقبة بمجرد رمز ديني ليس له من السلطة الفعلية إلا الاسم فقط ،إذ انفرد بها الحكام البويهيين [29].

إن الأوضاع السيئة التي تقدم الحديث عنها كانت جميعا من العوامل المساعدة للسلطان طغرلبك وزادت من إصراره على تنفيذ خطته التي رسمها لدخول العراق ،فسعى إلى كسب ود الخليفة القائم بأمر الله من اجل الحصول على منزلة مساوية للغزونيين ،من خلال اعتراف الخليفة بهم لاسيما وان اعتراف الخليفة يضفي على حكمهم صبغة شرعية لدعم مركزهم أثناء حكم العالم الإسلامي ،فكتب طغرلبك إلى الخليفة القائم رسالة يؤكد فيها على إخلاص السلاجقة له ودعمه في صراعه مع الغزنونيين والبويهيين وقد قبل الخليفة هذه الرسالة بكل رحابة صدر وسر بها [30] فأرسل السلطان طغرلبك إلى الخليفة كتابا يشكره فيه على ما منحه من ألقاب، وأرسل إلى الخليفة مبلغا من المال فضلا عن الجواهر والملابس النفيسة [31].

في سنة 447 هـ/1055م ذكر بأنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة، والمسير إلى بلاد الشام [32] والقضاء على نفوذ المستنصر وإخضاعها لحكم الخليفة العباسي [33] كما أمر جنوده بالاستعداد وتنفيذ هذه المهمة، ثم أرسل إلى الخليفة القائم يعلمه بأنه يدين له بالطاعة والولاء ويستأذنه في الدخول إلى بغداد وهو في طريقه إلى مكة، فأذن له الخليفة بدخولها كما أمر بإقامة الخطبة له على المنابر في مساجد بغداد فتم ذكر اسمه بعد الخليفة في أواخر سنة 447

هـ/1056 ،وبدخوله بغداد أنهى الحكم البويهي في عهد الملك الرحيم (34) فضلا عنة نقش اسمه على السكة كما منحه لقب السلطان ركن الدولة عين أمير المؤمنين (35) كما أضاف أليه لقب أخر فأطلق عليه ملك المشرق والمغرب،خلع عليه الخلع والهدايا كما قدم طغرلبك مجموعة الأموال والهدايا للخليفة القائم (36) كما حصل سلطان طغرلبك في سنة 455هـ/1064 م على شرف الزواج من ابنة الخليفة و هذا ما لم يحصل عليه أمير مسلم في العهود السابقة (37)، فضلا عن زواج الخليفة من خديجة ابنة داؤود شقيق طغرلبك (38).

هرب البساسيري من بغداد إلى الموصل بعد دخول السلطان طغرلبك، فأرسل الأخير قوة عسكرية سلجوقية لملاحقته والقضاء عليه يقودها ابن عمه الأمير قتلمس ،فردته القوات السلجوقية وكان بمعيته دبيس بن مزيد أمير الحلة ،إلا إنها فشلت في القضاء على البساسيري الذي الحق بها هزيمة ساحقة ،بعد ان تمكن من شق صفوف القوات السلجوقية من خلال كتيبة للأمير قريش بن بدران العُقيلي أمير الموصل الذي قدم مع قوات قتلمش.

سيطر البساسيري على الموصل بعد ان انظم إليه أميرها قريش العقيلي، أما قتلمش فقد هرب إلى حمدان، مستنجدا بالسلطان طغرلبك لإرسال العون والمدد للقضاء على البساسيري.

لم تثن الهزيمة التي منيت بها القوات السلجوقية من عزم السلطان طغرلبك في القضاء على البساسيري فأعاد الكرة ونجح في القضاء على قواته مما اضطره على الفرار إلى الموصل بعد تفرق البقية منهم وتخليهم عنه (39) وعلى الرغم من ذلك استمر البساسيري في نشاطه وإعداد العدة للعودة إلى بغداد ،منتظرا الفرصة الملائمة للهجوم وكان بمعيته الأمير دبيس بن مزيد وقريش بن بدران العقيلي (40).

أصبحت الفرصة مؤاتية للبساسيري عندما رفع إبراهيم أينال -اخو السلطان طغرلبك لامه -راية العصيان على أخيه، وقام بثورة في همذان، مما حدى بالسلطان طغرلبك إلى ترك بغداد والتوجه نحو همذان لإخماد هذه الثورة والقضاء على إبراهيم أينال ،فعاد البساسيري إلى الموصل بسرعة وسيطر عليها (41) وأعلن الخطبة فيها للخليفة الفاطمي المستنصر بالله ،كما أعلن ذلك في الشام ثم سار إلى بغداد بمعية قريش بن بدران في سنة 450 هـ/1058 م،فحاولت العامة في بغداد مقاومة قوات البساسيري فوقفوا إلى جانب الخليفة القائم بأمر الله، الذي خرج بملابسه العربية مع قلة من حرسه لمقاتلتهم وبنيت الأبراج على أسوار دار الخلافة ودار القتال بين الطرفين (42) واستمر القتال بينهما ستة أشهر متتالية (43) إلا إن العامة لم يوفقوا على الصمود أكثر من ذلك بسبب قلة عددهم وضعف تسليحهم مقارنة بكثرة قوات البساسيري، فقبض الأخير على الوزير ابن مسلمة وتم صلبه على نهر دجلة (44).

أما الخليفة القائم بأمر الله فقد تم القبض عليه ،إلا انه طلب الامان من قريش بن بدران الذي أمنه وسار به إلى حديثة على الرغم من اشتراط الخليفة الفاطمي عليهم أن يجلبوه إلى مصر، مقابل دعمه لهم ضد طغرلبك ،مما أغضبه ،فبرر له ذلك بالأمان الذي منحوه له (45).

بعد ان فرض البساسيري سيطرته على بغداد سار نحو واسط والبصرة وأخضعهما لسيطرته وأقام الخطبة فيهما للخليفة الفاطمي (46) واتخذ من واسط مقرا له(47).

بعد أن فرغ السلطان طغرلبك من القضاء على تمرد اخيه إبراهيم أينال وقتله، أرسل إلى البساسيري بشان عودة الخليفة القائم بأمر الله إلى بغداد ،فوافق البساسيري بشرط ان يكون هو الوزير الوحيد الذي يقوم بإدارة أمور الخلافة ويضم اليه كل من خورستان والبصرة (48).

لم يرض الخليفة القائم بأمر الله والسلطان طغرلبك بما طلبه البساسيري، فاستعد طغرلبك واعد العدة للهجوم على بغداد في سنة 415هـ/1059م ،فسار بجيشه إليها، ولما سمع البساسيري بذلك ترك واسط وفر إلى الحلة حيث مقر دبيس بن مزيد للحصول على دعمه ،فأرسل طغرلبك قوة عسكرية لملاحقته ومنعه من التوجه إلى بلاد الشام حيث الإسناد الفاطمي له، فهاجمته القوة السلجوقية وهو في الطريق إلى الموصل مابين الكوفة و واسط ففر دبيس من المعركة ،بينما بقي البساسيري محاصرا حتى تمكن جيش طغرلبك من القبض عليه وقتله وقطع رأسه وار سله إلى بغداد حيث علق على احد جوانب بغداد(49).

رابعاً: الخلافة العباسية في عصر السلاطين الثلاثة الأوائل.

إذا ما نظرنا إلى واقع الأحداث التي كانت تعيشها الخلافة العباسية قبل دخول السلاجقة إلى بغداد تبين لنا أن تلك الأحداث فرضت عليهم الاستعانة بالسلاجقة (50) لاسيما وان الخليفة العباسي القائم بأمر الله هو الذي طلب من طغرلبك التدخل من اجل إنقاذ الموقف لصالح الخلافة العباسية، كما إن السلاجقة وجدوا من الخليفة العباسي المرجع الروحي لهم ،فهم يستمدون منه أحقيتهم في السلطنة من هذا الموقف وغيره استجاب السلاجقة لدعوة الخليفة ورأوا إنها فرصتهم الثمينة من اجل السيطرة والتوسع.

وقد تواترت الروايات التاريخية حول دخول السلاجقة إلى بغداد ،فابن الجوزي في حوادث 435هـ/1043م يورد ان الخليفة القائم بأمر الله أرسل رسالة إلى طغرلبك الموجود في الري يطلب منه الإحسان إلى الرعية بعد وصول الأخبار إليه من سوء معاملة الجند التركي لسكان

مدينة الري ويخبره بأنه قد منحه لقب مولى أمير المؤمنين (51)، أما ابن الأثير(52) فيذكر ان الخليفة القائم بأمر الله أرسل إلى الماوردي من اجل التوسط بين الأمير البويهي جلال الدولة وطغرلبك ،ذلك لحل النزاع الحاصل بين البويهيين والسلاجقة حول منطقة الجبل وغيرها من بلاد خرسان (53) وقد أيد ابن كثير هذه الرواية (54).

ويبدو إن هذه الرواية هي الأقوى والأرجح بدليل ما ذكره ابن الأثير على لسان الخليفة(55).

عند دخول السلاجقة إلى بغداد سنة 447هـ/1056م ،بدا عهد جديد آخر من عهود التحكم والتسلط الأجنبي على البلاد ،وعلى الرغم من استدعاء الخليفة ،إلا انه أدرك بعد فوات الأوان عدم جدوى هذه المحاولة لأنه لم يغير شيئا بل استبدلها بقوة متسلطة مستبدة أكثر من سابقتها(56) لاسيما وان مواقف السلاطين الجدد لم تختلف، لذا فلم يرحب بهم لأهالي في بغداد لما لاقوه من قسوة على أيدي جنود طغرلبك ،الذين اضروا بهم ،إذ قام هؤلاء الجند في منازل السكان وشاركوهم في أرزاقهم مما أدى إلى ثورة الأهالي في وجوههم يدعمهم في ذلك الملك الرحيم البويهي وبعض أمرائه الذين قبض عليهم طغرلبك، واقتتل الطرفان (57) وفقد كل منهما الكثير من القتلى والجرحى فضلا عن نهب أسواق بغداد ،مما أثار استياء الخليفة القائم بأمر الله فهدد السلطان طغرلبك بترك بغداد أذا ما أصر على عدم إطلاق صراح من قبض عليهم ،وعد ذلك خرقا لحرمة العهود بينهما ،وقد عبر الخليفة عن ذلك بقوله ((إنهم إنما خرجوا إليك بأمري وأماني وان أطلقتهم وإلا فانا أفارق بغداد فاني إنما اخترتك واستدعيتك اعتقادا مني ان تعظيم الأوامر الشريفة تزداد ،وحرمة الحريم تعظم وارى الأمر بالضد)) (58).

سعى السلطان جاهدا من اجل تهدئة الوضع وإرضاء الخليفة العباسي، من خلال إطلاق سراح الأسرى إلا انه ابقي الملك الرحيم معتقلاً، واستولى على جميع أملاكه (59)، كما جدد طغرلبك يمين الولاء والطاعة للخليفة القائم ومؤكدا له عن حسن نيته وأعرب عن رغبته في مصاهرة الخليفة وتزويج ارسلان خاتون ابنه داؤود شقيقة للخليفة ،واصدر أمر يمنع فيه الجند من النزول في دور الأهالي ،ويظهر من خلال تعاقب الحوادث ان العلاقة لم تتحسن كثيرا بينهم على الرغم من المصاهرة بين الخليفة والسلطان فقد بقي طغرلبك أكثر من سنة دون أن يلقى الخليفة العباسي (60) رضي الخليفة القائم عن السلطان طغرلبك نوعا ما، وكان ذلك بحكم واقع الحال المفروض عليه ،فشكره على ما قام به من إجراءات وأوصاه باتقاء الله في الرعية والعمل على نشر العدل بينهم ودفع الظلم عنهم ولقبه (بملك المشرق والمغرب) كلقب إضافي للألقاب التي منحها له سابقا (61) وعندما خرج السلطان من مجلس الخليفة أرسل أليه

الهدايا والأموال التي بلغت قيمتها خمسين ألف درهم وخمسين مملوكا من الأتراك بسلاحهم وخيولهم ،فضلا عن الثياب الفاخرة (62). من خلال موقف الخليفة القائم تجاه السلطان طغرلبك نخلص إلى أنه سعى إلى الحفاظ على مصالح الرعية وعدم الإضرار بها ،لاسيما وانه علم حقيقة أمر السلاجقة وان الهم الوحيد لسلاطينهم وأمرائهم وولاتهم هو الحصول على اكبر قدر من الأموال دون مراعاة أي شيء.

يتضح ذلك جليا عندما أرسل السلطان طغرلبك وزيره إلى الخليفة القائم وهو في مجلس عزاء ولده مطالبا إياه بالمال ،مما أدى إلى استياء الخليفة والعامة من أهل بغداد إزاء هذا الموقف (63) كما اعتمد السلاجقة على سياسة التضمينات ،وأمروا بحمل الأموال إلى الري بدلا من بغداد (64)، إن السياسة التي اتبعها السلاطين أسهمت بشكل كبير في خلق حالة من عدم التوازن في إقامة علاقة غير مستقرة بينهم وبين الخلافة والرعية في ان واحد ،فبقيت العلاقات متوترة لاختلافهم في الموقف مابين مائل إلى الحرية والتخلص من الاستبداد ومابين ساع إلى الاستبداد واستراق الناس ونهب خيراتهم.

ومما زاد الطين بله ،طغيان طغرلبك وعدم احترامه لمكانة الخليفة القائم ،بان فكر في مصاهرة الخليفة فأرسل في سنة 453هـ أبا سعيد قاضي الري إلى بغداد ليطلب يد ابنته،فأثار غضب الخليفة القائم ،فأرسل إلى طغرلبك أبا محمد التميمي ليبلغه رفض الخليفة، وان أصر على طلبه، فما عليه إلا أن يرسل ثلاثمائة ألف دينار ،فضلا عن تسليم مدينة واسط وأعمالها إلى الخليفة ،ووصلت الأمور إلى مستوى كبير من التوتر بينهما اضطر الخليفة أثرها على الموافقة تحت تهديد طغرلبك بخلعه ومصادرة أمواله ،وتم عقد الزواج بينهما في شعبان سنة 450هـ بظاهر مدينة تبريز (65)، وبذلك قام السلطان طغرلبك برفع الحجز عن أملاك الخليفة، كما أرسل اليه أموالا وهدايا كثيرة وجميع ما كان لخاتون زوجة طغرلبك المتوفاة(66).

استمرت العلاقة على هذا المنوال حتى وفاة السلطان طغرلبك في سنة 455هـ (67) وعندما تولى الحكم في الري السلطان ألب أرسلان اثر النزاع الذي دار بينه وبين أخيه سليمان على السلطة (68) واستقر الأمر له في نهاية المطاف، فعمل جاهدا على تحسين علاقته بالخليفة القائم بأمر الله. وكان ألب أرسلان يدرك إن سبب غضب الخليفة على عمه هو زواجه من ابنة القائم من اجل توطيد العلاقة وكسب رضى الخليفة ووده ،قام بإعادة ابنته إلى بغداد في سنة 456هـ بعد أن منحها الهدايا فضلا عن خمسة الاف دينار لتصرفها في أثناء العودة إلى أبيها (69) وأرسل معها قاضي الري أبا عمر ومعه محمد بن عبد الرحمن وزودهم برسالة إلى الخليفة

يعرب فيها عن احترامه للخليفة وولائه وطاعته التامة ،فسر الخليفة بهذا الفعل كثيرا، ورحب برسل ألب أرسلان وبالغ في إكرامهم ،وأمر بالخطبة له على منابر بغداد ،ولقبه بالسلطان المعظم عضد الدولة وتاج الملة ألب أرسلان (70)، كما أرسل إليه الرسل من الديوان لأخذ البيعة منه ،فبايع ألب أرسلان الخليفة القائم (71) وأرسل إليه مبلغا من المال وبعض الهدايا كتقدير منه للخليفة الذي شرفه باللقب الأنف الذكر (72).

واستمرت العلاقات الحسنة بين الخليفة والسلطان ألب أرسلان وكانت تسير بصورة جيدة، ولم يكن هناك ما يكدر صفوة تلك العلاقة حتى وفاة الخليفة القائم بأمر الله سنة 467هـ/ 1074 م فتولى الخلافة محمد بن القائم الملقب بالمقتدي بأمر الله (467-487هـ/1074-1094م) وقد مرت العلاقات بين السلطنة والخلافة في هذا العهد بمرحلتين :

الأولى: طبيعية تميزت بتبادل الهدايا والرسل واستمرت حتى سنة 471هـ /1078م ،فعندما قتل السلطان ألب أرسلان في سنة 465هـ/1072 م تولى السلطنة ولده ملكشاه بن ألب أرسلان ،فأرسل إلى بغداد يعلن عن طاعته وولائه للخليفة ،ويطلب منه إقامة الخطبة له على منابر المساجد في بغداد، فأقامها الخليفة له في سنة 466هـ/1073 م(73)، ولقبه بملك الملوك عضد الدولة وتاج الملة يمين أمير المؤمنين (74).

أما **الثانية**: فقد تأزمت العلاقات فيها بين السلطان والخليفة ،وذلك بسبب تدخل السلطان ملكشاه في شؤون الخلافة كعزل وتعيين الولاة والوزراء، ففي سنة 471هـ/1078 م أرسل السلطان برسالة إلى الخليفة المقتدي بأمر الله يطلب فيها عزل الوزير فخر الدولة بن جهير عن الوزارة كما تضمنت عدم إرسال رسول من دار الخلافة إلى بغداد (75)، وعندما لم يستجيب الخليفة المقتدي إلى طلب السلطان أرسل الأخير سعد الدولة كوهرائين شحنة بغداد مع فريق من الجند وصلوا الى دار الخلافة وطلبوا عزل الوزير(76) وتم عزل عز الدولة من قبل الخليفة المقتدي تحت تهديد السلطان ملكشاه ،ولم يرتح الخليفة لما بدأه السلطان ملكشاه ووزيره من سوء معاملة وعدم الاحترام لمكانته ،وعد ان ما أمر به السلطان تدخلا سافرا في شؤون الخلافة ولم يوافق على طلب السلطان بل اقر عميد الدولة بعدم مبارحة داره عند وصوله إلى بغداد (77).

قدم السلطان ملكشاه إلى بغداد في سنة 479هـ حاملا الهدايا إلى الخليفة واسترضاه على ما فعله سابقا ،فرضي الخليفة وقبل الهدايا(78) وعلى الرغم من تحسن العلاقات بين الخليفة والسلطان ،على اثر إرسال الخليفة المقتدي بأمر الله وزيره فخر الدولة ليخطب له ابنه السلطان

ملكشاه في سنة 481 هـ، وقدم لها مهرا كبيرا وأرسل الخلع والهدايا إلى السلطان وزوجته وجميع الخواتين (79) ، إلا إن تلك العلاقات لم تلبث أن تغيرت بسبب سعي السلاجقة إضعاف الى سلطة الخليفة من اجل حصر الحكم بأيديهم بشكل كامل ،وذلك من خلال تشجيع النعرات والفتن الداخلية وإثارة القبائل العربية ضد الخليفة ،لقاء منح زعمائها الاقطاعات من اجل كسب تأييدهم (80).

أدرك الخليفة ما يهدفون إليه،فعمل إلى كسب الرعية إلى جانبه منطلقا من سلطته الروحية السياسية ،التي تحتم عليه الحفاظ على حقوق الرعية ومصالحهم ورفع أي ظلم يقع عليهم، من اجل خلق جبهة مناهضة للسلاجقة تهدف إلى التخلص من سيطرتهم.

ومن الإجراءات المهمة التي اتخذها الخليفة المقتدي في سنة 481هـ/1088 م،إصداره أمرا بإخراج الجنود السلاجقة من دار الخلافة، بسبب اعتداء احدهم على احد أفراد العامة من أهالي بغداد (81) ولم يصدر أي رد فعل من قبل السلطان ملكشاه على هذا الأمر، من اجل الحفاظ على حسن سير العلاقات بينهما ،وربما كان عدم اتخاذ السلطان لأي إجراء تجاه فعل الخليفة ،كان يقف وراءها أسباب يضمرها السلطان كالتهيئة لجعل حفيده جعفر بن المقتدي وليا للعهد بعد أبيه.

استمرت العلاقة الحسنة بين الخليفة والسلطان بحكم المصاهرة المعقودة بينهما حتى سنة 482 هـ حيث شابها التوتر بعد أن أرسل السلطان إلى الخليفة المقتدي طالبا إرسال ابنته إليه، لأنها شكت جفاء الخليفة وإعراضه عنها ،فأرسلها إليه واستقرت في أصبهان ،وتوفيت فيها في السنة ذاتها (82).

تدخل السلطان ملكشاه سنة 484هـ في عزل وزير الخليفة أبي شجاع وعين بدلا عنه عميد الدولة ابن جبير ،مما أدى إلى استياء الخليفة (83) الذي اتخذ إجراء مهما إزاء ما يفعله السلاجقة ،فقرر إخماد محاولات السلطان ملكشاه ووأدها في مهدها ،إذ هدفت هذه المحاولات إلى نقل الخلافة إلى حفيده بعد والده، فأدرك المقتدي بأمر الله ما يخطط له ملكشاه ،فعين ولده المستظهر وليا للعهد بدلا من ولده جعفر حفيد السلطان (84) وذلك من باب ألتحوط والحذر من طغيان نفوذ السلاجقة أكثر مما هو عليه، فغضب السلطان لهذا الإجراء ،فاخذ يفكر بالقضاء على الخلافة العباسية وجعل السلطة بيده، وسار إلى بغداد في سنة 485 هـ/1092 م،وعزم على خلع الخليفة المقتدي بأمر الله وتولية ولده جعفر بدلا منه، واصدر أمرا يقضي بنفي الخليفة، وأرسل إليه يقول له لابد أن تترك بغداد وتنصرف إلى أي البلاد التي تختارها انزعج الخليفة

من جراء ذلك انزعاجا شديدا(85) إلا ان ذلك الأمر لم يتم لوفاة السلطان ملكشاه في السنة ذاتها (86)، وأشار سبط ابن الجوزي ((ان محاولة جرت لتغيير الدولة العباسية ،ولكن الله لطف بالخليفة فمات السلطان بعد فترة من مقتل نظام الملك)) (87).

وعندما توفي السلطان ملكشاه كتمت زوجته الخبر وأرسلت إلى الأمراء واستحلفتهم على أن يكون الأمر لولدها محمود الذي لم يتجاوز الخامسة من العمر، وكتبت إلى الخليفة المقتدي بأمر الله تطلب السلطنة لولدها فوافق بشرط أن تكون الخطبة له ويكون أتابكة الأمير ووزيره تاج الملك فوافقت وخطب لولدها في بغداد (88) ولقب الخليفة بلقب ((ناصر الدنيا والدين))(89).

خامسا: الخلافة العباسية في عصر السلاطين المتأخرين

كانت بداية عصر السلاطين الضعفاء بعد وفاة ملكشاه في سنة 485 هـ/1092م ،وقد شهد هذا العصر تأرجح السلطنة بين هذا وذاك نتيجة الانقسامات التي دبت بينهما (90) ، فضلا عن تولي سلاطين صغار السن ،إذ ان السلاجقة لم يراعوا العمر في تولي السلطنة مما كان سببا في إضعاف دولتهم وتمزقها، كما حدث في تولية السلطان محمود بن ملكشاه دون سن الخامسة ،مما أثار ذلك غضب أخيه بركيارق (91) الذي خرج عليه في سنه 486هـ/1093م،وقد عاصر هذه الحوادث الخليفة المستظهر بالله الذي تولى الخلافة بعد وفاة أبيه 487هـ/1094م، فبايعه السلطان بركيارق في السنة ذاتها (92).

بعد ما عانته الخلافة العباسية من تسلط السلاطين السلاجقة ،وما مرت به البلاد من أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية بل وأثرت في الجانب الديني ،شعر الخلفاء العباسيين بضرورة التخلص من براثم التبعية والاستبداد ،وإعادة هيبة الخلافة إلى ما كانت عليه في عصر أسلافهم الأوائل ،من جعل العلاقات بين الخلفاء السلاطين علاقات غير مستقرة وغير ثابتة ،فبينما كان السلاجقة يريدون إحكام سيطرتهم على العراق، نرى ان الخلفاء يريدون إزاحة هذا التسلط ،فسعوا إلى استغلال ضعف الدولة السلجوقية ،من خلال تغذيتهم للانقسامات بين أبناء البيت السلجوقي لتقوية مركز الخلافة(93)، كما اتخذ الخليفة المستظهر إجراءات أخرى مهمة من اجل حماية بغداد من ناحية والحفاظ على الرعية ومصالحهم من أي معتد خارجي من ناحية أخرى ،فقرر الخليفة في سنة 488 هـ بناء سور ضخم يحيط ببغداد ،وعندما شعر السلاجقة بما يهدف أليه الخليفة ،وما يشكله هذا السور من خطر على حكمهم في بغداد ،فوقفوا حائلا أمام تنفيذ هذا المشروع ،ومنعوا استكمال عملية البناء ،ولم يكتفوا

بذلك بل هدموا ما تم بناؤه على يد الخليفة ورعيته الذين التفوا حوله (94) ولم يستطع الخليفة اتخاذ أي أجراء ،وربما يرجع ذلك إلى عدم امتلاكه قوة عسكرية كافية تمكنه من مقاومتهم واستمرت هذه الأوضاع التي عاشتها الخلافة طيلة عهد المستظهر حتى وفاته سنة 512هـ(95).

تولى الخلافة المسترشد بالله (512–529هـ/1118– 1134م) وفي هذه بدا الكفاح لاسترداد هيبة الخلافة إلى ما كانت عليه من قوة في العهود السابقة ،بعدما استغل المتسلطون ثروة البلاد الاقتصادية وخيراتها ،وأيقن بان التصدي والمواجهة العسكرية هي المسار السليم لتحرير الخلافة (96) وقد عبر الخليفة المسترشد بالله عن هذا بجرأة وشجاعة حينما وصف السلاجقة بأنهم قوم مارقون، فقال ((فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق فبغوا علينا فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقين)) (97).

وقد حاول هذا الخليفة استغلال المنازعات واخذ يتدخل في شؤون السلطنة ويثير بعضهم ضد البعض الآخر ويتحين الفرص للإيقاع بهم رغبة في الاستئثار بالسلطة، واستقلال العراق، وقد علم السلطان السلجوقي سنجر بما كان ينويه لهم الخليفة، فكتب إلى السلطان محمود يقول له ((والخليفة قد عزم على أن يمكر بي وبك ،فإذا اتفقا علي وفرغ مني عاد إليك..... يجب بعد هذا أن تمضي إلى بغداد ومعك العساكر فتقبض على وزير الخليفة ابن صدقة ،وتقتل الأكراد الذين قد دونهم وتأخذ النزل الذي قد عمله وجميع الة السفر وتقول أنا سيفك وخادمك وأنت تعود إلى دارك على ما جرت به عادة أبائك ،وأنا لا أحوجك إلى تعسف فان فعل وإلا أخذته بالشدة وإلا لم يبق لك ولي معه حكم)) (98).

نجح الخليفة المسترشد في كسب ود الأهالي،الذين آزروه من اجل استعادة هيبة الخلافة، فوقف بكل قوة في سنة 517هـ ضد أمير الحلة دبيس بن صدقة عندما هدده باقتحام بغداد فأمر الخليفة المسترشد بإعداد الجيش لمواجهته وألحق بقوته هزيمة منكرة وعندما عاد دبيس بن صدقة المحاولة بمعية السلطان السلجوقي من اجل الدخول إلى بغداد في سنة 519هـ، خرج الخليفة لمجابهته ومعه ثلاثون ألفا من المسلحين بمختلف الأسلحة (99) مما اضطر دبيس إلى طاعة الخليفة وإعلان ولائه له(100) وتكررت المحاولة مرة أخرى في سنة 520هـ من قبل السلطان محمود بن ملكشاه الذي قرر الدخول إلى بغداد على رأس جيشه فوقف الخليفة موقف الرافض لهذا الأمر وتصدى للسلطان على جيش عباسي صمد مدة من ،الزمن إلا انه اضطر إلى عقد الصلح بعد أن اعتذر السلطان عما جرى بينهما فجاءت موافقة الخليفة على عقد الصلح من اجل الحفاظ على حياة المسلمين وحقن دمائهم (101).

كما أمر برفع اسم السلطان السلجوقي من الخطبة في بغداد سنة 521هـ مستخدما مكانته الدينية وتأثيرها في نفوس المسلمين ،لعلمه بأنها سلاح لا يدانيه سلاح في مواجهة الظلم والطغيان ،فضلا عن سعيه إلى إضعاف السلاجقة وشق صفوفهم مستغلا وفاة السلطان محمد ،فشجع الأمراء المتنافسين على السلطة والأموال ،وإثارتهم ضد بعضهم البعض من اجل تقوية مركزه وتعزيز جبهته، مما يسهل مهمة القضاء عليهم واحد تلو الآخر(102) لاسيما إن وفاة السلطان محمد كانت الشرارة التي سببت إشعال نار الفتنة بين الأمراء والملوك السلاجقة(103).

كما اتخذ الخليفة المسترشد مجموعة من الإجراءات التي أدت دورا كبيرا في التفاف العامة حوله كالعمل على تأسيس جيش خاص بالخلافة يمكنه من خلاله التصدي للسلاجقة وإنهاء نفوذهم ،فضلا عن إلغاء الضرائب وإرجاع كل ما صودر من أموال وأراضي إلى أصحابها، وعمل على تقريب أمراء العرب في الحلة والموصل لكسبهم إلى جانبه في صراعه مع السلاجقة.

شعر السلطان مسعود بن محمد السلجوقي بخطورة موقفه إزاء ما كان يقوم به الخليفة المسترشد، فحاول ثنية، وما كانت النتيجة إلا ان ساءت العلاقات بينهما ،ومما زاد الوضع تعقيدا لجوء بعض الأمراء التابعيين للسلطان مسعود ،وانضمامهم إلى جانب الخليفة بعد أن منحهم ألامان خشية من انتقام السلطان منهم(104).

في الوقت الذي بدأت فيه الخلافة بالانتعاش كانت الدولة السلجوقية تعاني من الضعف وعدم القدرة على المواجهة الحقيقية مع الخليفة العباسي (الحاكم الشرعي للبلاد)، فالتف الأهالي حول الخلافة أكثر من ذي قبل ،إذ ارتفعت معنوياتهم ،وعلت هممهم ،فقرر المسترشد بالله التصدي للسلاجقة، إلا انه عمد هذه المرة نقل ساحة القتال خارج بغداد ،فاستعد لمواجهة السلطان الأعظم في عقر داره ومقر ملكه في الري ،فسار الخليفة على رأس جيش في سنة 529هـ ودارت معركة حامية الوطيس بين الطرفين كانت الغلبة فيها للسلطان مسعود السلجوقي، فوقع المسترشد في الأسر، وما أن علم الأهالي في بغداد بأسره ثاروا لذلك وأوقفوا الشعائر الدينية من اجل الضغط على السلاجقة لإطلاق سراحه ،إلا أنهم لم يفلحوا في ما هدفوا أليه إذ تم قتل المسترشد ،لإدراك السلاجقة ،بأنه يشكل خطرا عليهم ،لاسيما وان سمعته ومكانته أخذت بالتزايد في قلوب رعيته نتيجة للمواقف المشرفة التي وقفها(105).

بعد أن تولى الخلافة الراشد بن المسترشد بالله في سنة (529-531هـ/1134-1136م). حاول السلطان مسعود السلجوقي ان يستثمر الانتصار الذي حققه من اجل الحصول

على مبالغ كبيرة من المال تقدر بأربعمائة ألف دينار ،اذ طلب من الخليفة دفعها إليه ،إلا ان الراشد رفض طلبه وقرر مقاتله السلطان فتقدم على رأس جيش الخلافة الذي أعده ،ونجح في إلحاق الهزيمة به في سنة 530هـ/1135م فشعر الرعية بالفرح وقاموا بنهب دار السلطنة (106) لأنهم عدوها رمزا للظلم والاستبداد والتسلط الأجنبي.

حمل الخليفة الراشد العداء للسلاجقة لأنهم السبب في مقتل أبيه ولهذا نراه يتحالف مع الملك من اجل تكوين حلف قوي يواجه به السلطان مسعود، كما اتخذ إجراء أكثر حزما من اجل شق وحدة السلاجقة وأضعافهم بان قطع الخطبة في بغداد عن مسعود وجعل الخطبة لداوود(107).

كما أشار ابن النظام إلى أن الشعب كان ملتفا حول الراشد وخاصة حينما علموا بمصرع والده فجاءوا إليه مشرعين أسلحتهم وجاهزين للقتال ومطالبين بالثار للخليفة المقتول (108)، وهذه هي إحدى النتائج الايجابية التي حصلت عليها الخلافة العربية معربين عن عمق التلاحم بين القيادة والشعب مظهرين رغبتهم في التخلص من العدو الأجنبي.

وكرد فعل على إجراءات الخليفة الراشد قرر السلطان مسعود في سنة 530هـ/1135م السير إلى بغداد على رأس جيشه، وحاصرها طويلا، مما اضطر الخليفة إلى تركها متوجها إلى الموصل ومنها إلى أصفهان، فخلع بعد احد عشر شهرا من توليه وبويع ولده المقتفي لأمر الله بن المستظهر 531هـ بعد خلع ابن أخيه الراشد الذي قتل على يد الباطنية في أصفهان في ألسنه ذاتها (109).

وعندما تولى المقتفي زمام الأمور، يبدو انه قد استفاد من الذين سبقوه، فبالرغم من ان السلاجقة هم الذين اختاروه لهذا المنصب بعد خلعهم للراشد، إلا أنهم لم يخطر ببالهم بان نهايتهم سوف تكون على يديه، فقد كان أذكى منهم بكثير، ولهذا فانه حينما جاء إلى الحكم ورأى ان الموقف لغير صالحه تحاشى التصادم معهم أول الأمر، علما انه لم ينسى ما فعلوه بالخلفاء السابقين وهم من جرده من كل ما يملك كي يكون أسيرا عندهم وتحت رحمتهم (110) ولكنه بالرغم من ذلك فقد اتخذ موقفا قويا أمام السلطان مسعود حينما طلب ان يمده بمائة ألف دينار، فكان جواب الخليفة شديدا عليه (111)، مما أدى إلى صدام بين السلاجقة وأهالي بغداد، ذهب ضحيتها أعداد كبيرة من السكان مابين قتيل وجريح، فأدرك المقتفي خطورة الموقف وضرورة الحفاظ على دماء الأبرياء وأموالهم ومن أعمال السلب والنهب التي يقوم بها السلاجقة، فأرسل إلى أمرائهم ،ونجح في إقناعهم بالانسحاب عن بغداد (112) فكان هذا الموقف

الذي اتخذه أهالي بغداد احد الأسباب المهمة التي جعلت الخليفة المقتفي يفكر بجد ويخطط للتخلص من التسلط السلجوقي.

وإذا ما أردنا التعرف على الإجراءات التي كانت السلطة قد اتخذتها لمواجهة السلاجقة، فابن الجوزي [113] يطلعنا على الاستعدادات التي كانت تجري ،وكان الخليفة يستعد ويعمل من اجل تقوية مركز الخلافة ومن تلك الإجراءات :

1-تقوية الجيش ،حيث اشرف الخليفة على إعداده وتدريبه شخصيا.

2-حفر الخليفة للخنادق في بغداد كإجراء دفاعي أولي.

3-أمر الخليفة العامة بحمل السلاح وان يستعدوا للطوارئ والدفاع عن أنفسهم وأموالهم.

كما أمر الخليفة كإجراء دفاعي لا غير أن يصلح السور [114].

والملاحظ على هذه الحقبة انه في الوقت الذي أنهك السلطان مسعود وقواته بكثرة الحروب والمنازعات بين السلاجقة أنفسهم ،نرى إن الجانب الآخر المتمثل بالخلافة أصبح من القوة ما يمكنه رد العدو[115] وعلى ما يبدو ان الخليفة المقتفي لأمر الله كان من المشجعين والمشتركين في عملية النزاع بين السلاطين من اجل إضعافهم [116]، وقد أتت ثمار هذه العملية حين استعاد الخليفة من امتيازاته المسلوبة والتي حرم منها الخلفاء السابقون [117] وعند وفاة السلطان مسعود سنة 547 هـ/1152 م قال الخليفة كلمته المشهورة (لا صبر على الضيم بعد اليوم ولا هوان مع هؤلاء القوم) [118] وقد أيده في موقفة وزيره المخلص عون الدين بن هبيرة[119] حتى استطاعت الخلافة السياسية من السيطرة على الاقطاعات التابعة للأمراء السلاجقة ،واستطاع الخليفة بسط سيطرته على العراق من أقصى الكوفة إلى حلوان ،ومن تكريت إلى عبادان ،حتى انه أعطى لوزيره ابن هبيرة ما كان لوزير السلطان ،واقطع كذلك واسط وأعمالها والبصرة والحلة والكوفة وطريق خرسان إلى حلوان [120].

إن التطورات التي حصلت للخلافة العباسية تفسر لنا جملة أمور:

أولا: إن الخليفة المقتفي لأمر الله هو أول خليفة باشر سلطته على البلاد بنفسه دون أي تداخلات وضغوطات خارجية ،كما تحكم بالأمور المالية والعسكرية [121].

ثانيا: سيطرته على الاقطاعات التي اشرنا إليها سابقا ،والتي كانت أصلا من ممتلكات العباسيين وسيطر عليها السلاجقة [122].

ثالثا :استطاع الخليفة بسط سيطرته على المدرسة النظامية وأصبح من حقه الشرعي تعيين مدرس لها ،وحتى ان الفقهاء امتنعوا عن التدريس ما لم يكن هناك تصريح من الخليفة(123).

رابعا :كذلك نرى إن من الحقوق الأدبية التي استعادتها الخلافة هي عدم ذكر اسم للسلطان مع اسم الخليفة العباسي في خطبة يوم الجمعة (124).

خامساً: كما أعلن الخليفة في هذه الحقبة عن الجهاد في سبيل الله ،وكان الغرض من استماله أهالي بغداد الذين لبوا النداء وحملوا السلاح على اختلاف طبقاتهم بعد أن أقدم السلطان على محاصرة بغداد (125).

أمر الخليفة المقتفي ومن موقع القوة التي حضي بها بقطع الخطبة للسلطان محمد شاه في سنة 551هـ واخذ يعد العدة لمواجهة السلطان السلجوقي الذي يقيم في الري ،وعندما شعر السلاجقة بذلك ساروا إلى بغداد ،وفرض عليها حصارا من اجل الدخول إليها ودار القتال بين الطرفين من خلف الأسوار ،وفتح أهالي بغداد الأبواب متحدين السلاجقة بالدخول ،إلا إن الجيش السلجوقي اضطر إلى الانسحاب عنها ،بسبب مقاومه الأهالي أولا ،وحدوث بعض المشاكل التي نجمت في بلاد فارس ثانيا (126).

سادساً: انتعاش الخلافة العباسية وبداية نهاية الدولة السلجوقية (555-575هـ/1160-1179م) توفي الخليفة العباسي المقتفي بالله سنة 555هـ/1160م وبويع ولده المستنجد بالله الذي حكم احد عشر سنة وكانت بداية انتعاش الخلافة العباسية وانهيار دولة السلاجقة ،فعم الأمن والاستقرار في البلاد، في حين كان السلاجقة يمرون بأضعف فترات حكمهم بسبب الانقسامات بين أبناء البيت السلجوقي ،وتولي سلاطين ضعاف بسبب صغر سنهم وظهور ما يعرف بنظام الاتابكيات (127) مربوا أولاد السلاطين الذين تحكموا بأمور السلطنة لاسيما بعد ان اتفقوا على تعيين الأمراء الضعفاء عليهم من اجل الاستئثار بالحكم، وكان موقف الخليفة المستنجد بالله إزاء الأمراء وسلاطينهم موقفا حازما، ورد الكثير من رسلهم الوافدين إلى بغداد مهانين إلى أمرائهم (128)كما انه أعدة العدة من اجل القضاء على كل من تآمر مع السلاجقة ضد الخلافة العباسية ،وفعلا نجح المستنجد في إعادة سيطرته على مدينة الحلة وقضى على الأسرة الحاكمة فيها وبدا يوجه جل اهتمامه من اجل إعادة جميع أراضي الخلافة العباسية التي انتزعت منها ،وقسمها بين الزنكيين وعندما حاول السلاجقة (استمالته وطلبوا منه إقامة الخطبة

لارسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه كما كانت الحال سابقا، رفض ذلك وأعاد رسلهم مهانين إلى ديارهم (129).

إن الموت المفاجئ للخليفة المستنجد في سنة 566هـ/1170م بسبب تآمر البعض عليه حسب ما أوردته بعض الروايات التاريخية حال دون تحقيق حلمه (130) بويع ولده المستضئ بأمر الله بالخلافة (566-575 هـ1170-1179م) ونتيجة للقوة التي تمتعت فيها الخلافة في عهده لم يحاول السلاجقة قط التعرض لمناطق نفوذهما لاسيما بعد أن نجح الناصر صلاح الدين الأيوبي بإنهاء الخلافة الفاطمية في مصر سنة 567 هـ/1171م.

وإعادتها إلى نفوذ العباسيين، حيث خطب فيها للخليفة المستضيء بأمر الله وضرب السكة باسمه ،وشهد عصره أحداثا مهمة ،فاصطدم ببعض الأمراء الذين حاولوا السيطرة على الأمور بعد وفاة المستنجد (131) فوقف العامة من أهالي بغداد في هذا الصراع بجانبه وساعدوه في التخلص منهم(132). أما على صعيد جبهة السلاجقة فقد استبد بهم الاتابكة ولم يبق لسلاطينهم أي دور يذكر طيلة عهد المستضيء بأمر الله الذي توفي سنه 575هـ/ 1179م (133) وبويع ولده الناصر لدين الله (575هـ-622هـ/1179- 1225 م) الذي تميز عهده بجوانب مهمة كثيرة أبرزها التخلص من الحكم السلجوقي بشكل نهائي وهدم دار السلطنة في بغداد والتي عدها رمزا من رموز التسلط الأجنبي والاستبداد.

الناصر لدين الله ونهاية الحكم السلجوقي

أكدت جميع الروايات التاريخية على ان الخليفة الناصر لدين الله هو صاحب الدور الأكبر في إحياء هيبة الخلافة العباسية التي فقدتها في عهد من سبقه من الخلفاء الذين عاصروا حقبة التسلط الأجنبي ابتداء من عصر المتوكل وحتى نهاية التسلط السلجوقي في سنة 590 هـ/1193 م (134)، كما تمكن من تقوية مركزها وعزز نفوذها وحقق خلال عهده الذي دام ست وأربعون سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرون يوما(135)، وقد أشار السيوطي إلى انها كانت سبعة وأربعون سنة (136) وعلى الرغم من اختلاف الروايتين في الفترة الزمنية فهي لا تؤثر إذ ان الفارق بين الروايتين شهرين فقط من ناحية فضلا عن أهمية فترة حكمه لأنها تعد أطول فترة حكم بين فترات حكم خلفاء بين العباس.حقق خلالها الكثير من الانجازات التي جعلته محطة أنظار وإعجاب المؤرخين ممن عاصره وجاء بعده.

وصلت مناطق نفوذ الخلافة العباسية في عهد الناصر لدين الله إلى مناطق واسعة ،فخطب له في الأندلس غربا والصين شرقا (137) كما سارع منذ اعتلائه عرش الخلافة إلى احكام

قبضته على الأمور الداخلية سواء الإدارية منها ام الاقتصادية ،وأول عمل قام به ،مبادرته في ضرب المتنفذين ممن اعتادوا على التسلط الحقبة السلجوقية (138) وأول من ابتدأ به أستاذ دار الخلافة ببغداد وهو مجد الدين ابو الفضل بن الصاحب ابداه من تحكم في أمور الدولة، لاسيما وان وظيفة القيام البيعة للخليفة ،فتبين للخليفة الناصر لدين الله كثرة أمواله التي أمر بمصادرتها ،ومما زاد من غضب الخليفة عليه وحدى به إلى قتله في سنة 583 هـ/1187م، تجراه على ذكر اسمه أكثر من مرة في خطبة الجمعة بعد اسم الخليفة مباشرة (139).

كما اتخذ الناصر لدين الله إجراءات أخرى تجاه أبناء البيت العباسي في بغداد فمنعهم من الخروج إلى العامة ،وألزمهم بالبقاء في دور الخلافة لأنه أدرك تماما ان الساعين إلى السيطرة على زمام الأمور وسلب إرادة الخلافة ،إنما يسعون إلى استغلال من يتعاطف معهم من الأمراء العباسيين ،ويتفقون معه على حياكة المؤامرة (140).

بعد أن انتهى الخليفة الناصر من احكام سيطرته على الأوضاع الداخلية ، قوى جبهته ،بدا يخطط من اجل إنهاء السيطرة السلجوقية على الخلافة ،وضربهم في عقر دارهم ببلاد فارس ،ووضع حدا لمطامعهم وطلباتهم المستمرة بإعادة الخطبة لسلاطينهم في بغداد ،فما ان وصل إلى الخليفة الناصر طلب السلطان السلجوقي طغرل الثالث بان يذكر اسمه في الخطبة على المنابر في مساجد بغداد في سنة 583هـ/1187م،حتى غضب الخليفة ورد طلبه بالرفض بل رد عليه بهدم دار السلطنة ببغداد وسواها بالأرض ولم يبق لها اثر (141) ويعد هذا الإجراء من الإجراءات المهمة التي اتخذها الخليفة الناصر لأنها كانت تمثل رمزا من رموز التسلط والاستبداد الذي يتألم بوجود الأهالي والخلافة.

استغل الخليفة الناصر فرصة النزاعات الداخلية بين أبناء البيت السلجوقي بعد وفاة الاتابك المتحكم بالأمور والحاكم الفعلي باسم السلطان السلجوقي طغرل الثالث ،فعمد الخليفة الناصر إلى إعداد جيشه ،عندما وصلت إليه رسل قزل ارسلان بن ايلدكز ملك آران واذربيجان وهمذان واصفهان والري في سنة 583هـ/1187م، ليحذره من نوايا السلطان طغرل الثالث، ويطلب منه النجدة لقتاله، فأكرم الخليفة رسله ووعدهم بتقديم النجدة (142) أرسل الخليفة الناصر الجيش الذي أعده لمساعدة قزل ارسلان الى همذان في سنة 584 هـ/1188م، وجعل قيادة الجيش لوزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس، وعندما وصل جيش الخليفة الى همذان حيث موعد الاجتماع بقوات قزل ارسلان الذي ،لم يصل إليها ،وما هي إلا ساعات حتى وصلت قوات السلطان طغرل الثالث ،فاشتبكت مع جيش الخلافة في موضع يعرف بـ(ري مرج)

بالقرب من همذان ،ودار القتال بينهما فكانت الغلبة لجيش السلطان طغرل الثالث ،مما أدى إلى تفرق القوات العباسية بعد اسر الوزير جلال الدين ،وغنمت القوات السلجوقية ما في معسكر الخلافة من أموال وسلاح ودواب ،وعاد من تبقى من جيش الخلافة إلى بغداد (143).

ونظرا لرغبة الخليفة الناصر الشديدة في القضاء على السلطان طغرل فقد جهز جيشا ثالثا، وأرسله إلى همذان في سنة 584هـ/1188م واحكم سيطرته عليها، بعد ان رجحت الكفة لصالح جيش الخلافة ،مما اضطر السلطان طغرل إلى الفرار فاسند الخليفة الناصر حكمها لقزل ارسلان الذي قاد تلك الجيوش بالنيابة عن الخليفة ،فلجا السلطان طغرل الى اذربيجان، الا انه لم يعتبر لما حل به في معركة همذان ،فاخذ يجمع قواته للانتقام من الخليفة والقضاء على قواته، فاتفق مع احد الأمراء في اذربيجان ،واخذ يشن الغارات على القرى والمدن القريبة من همذان، واعمل فيها السيف وأعمال السلب والنهب ،فأمر الخليفة جيوشه بملاحقة السلطان وقتله، فاشتبكت معه في عدة معارك ،كبدت فيها قوات السلطان طغرل خسائر مادية وبشرية فادحة ،ووقع السلطان في الاسر واعتقل في قلعة قريبة من مدينة تبريز ،ومنح الناصر لدين الله حكم البلاد التي كانت تحت سيطرة السلطان طغرل الثالث لقزل ارسلان ،لمكافئته له على ما قام به من خدمة للخلافة ،لادارتها بالنيابة عن الخليفة ،الا ان مقتل قزل ارسلان في سنة 587 هـ/1190 م ،شجع السلطان السلجوقي طغرل الثالث على الفرارمن سجنه والتوجه الى همذان بعد ان جمع قواته وتحالف مع بعض الأمراء وإعادة سيطرته عليها في سنة 588هـ/1191م (144).

ان عودة السيطرة السلجوقية على همذان أقلقت الخليفة الناصر لدين الله وزادت من مخاوفه ،فبدا بالبحث على حليف قوي يمكنه من خلاله إعادة الكرة للقضاء على السلاجقة وانهاء دولتهم،فوجد من الخوارزميين ضالته المنشودة ،لاسيما وان قوتهم بدأت بالازدياد، وبسطوا نفوذهم على معظم بلاد ماوراء النهر مما أدى إلى اصطدامهم عدة مرات مع السلاجقة مما خلق حالة من العداء والتنافر بينهما، فوضع الخليفة الناصر جل امله في حكام هذه الدولة وعدهم السبيل الوحيد الذي يمكنه من القضاء على السلاجقة (145).

فاخذ الخليفة الناصر لدين الله يخطط للتحالف مع علاء الدين تكش خوارزمشاه ،فأرسل الخليفة إليه في سنة 590هـ/1130م الرسل ليوضحوا له موقف الخليفة الناصر من السلاجقة ومدى استيائه منهم ،ونقلو اليه تذمر الخليفة وشكواه على السلاجقة وسعيه الحثيث للتخلص منهم ويطلب منه مهاجمة بلادهم ،كما أرسل إليه كتابا يمنحه فيه حكم البلاد التي يستردها من سيطرتهم (146).

توجه علاء الدين تكش الخوارزمي من همذان في سنة 590هـ/1130م ،وبمعيته جيشا أرسله الخليفة الناصر لدين الله بعدده وعدته ليكون تحت إمرة علاء الدين تكش ،وإثناء تقدم القوات الخوارزمية –العباسية من نيسابور إلى الري ،وقعت المعركة الحاسمة التي اشتد فيها القتال ،فتقدم السلطان طغرل حتى أصبح في وسط الجيش الخوارزمي ،فأحاط به الجنود وأوقعوه عن فرسه وتم قتله وحمل رأسه إلى خوارزمشاه ،الذي أرسله بدوره إلى الخليفة الناصر ببغداد (147).

مما افرح الخليفة فأرسل وزيره مؤيد الدين بن القصاب حاملا الهدايا والخلع السلطانية لعلاء الدين تكش ،فنزل على بعد فرسخ عن همذان فأرسل إليه خوارز مشاه ،فقال مؤيد الدين ((ينبغي أن تحضر أنت وتلبس الخلعة من خيمتي ،وترددت الرسل بينهما)) (148) فقيل لخوارزمشاه إنها مكيدة يدبرها لكي يحضر عنده فيتم القبض عليك ،فسار إليه خوارزمشاه لأخذه،فلجا الوزير إلى بعض الجبال امتنع بها فرجع خوارزمشاة إلى همذان ،وعاد الوزير إلى بغداد (149).

كما أرسل الخليفة الناصر كتابا يحكم البلاد التي كانت تحت سيطرة السلاجقة ،وبذلك انتهت دولة السلاجقة بشكل كامل بعد حكم دام مائة وستون سنة (150) ،ولم يحاول السلاجقة بعدها طلب السلطنة فانتهت بذلك حقبة من حقبة التسلط والاستبداد الأجنبي عاشتها الخلافة العباسية.

أسباب انهيار دولة السلاجقة

إن انهيار دولة السلاجقة وزوال سلطانها لم يكن وليدة اللحظة والساعة وإنما كانت نتيجة لأسباب وعوامل متراكمة كانت تنخر في جسمها منذ تأسيسها وعبر مسيرة استمرت قرابة القرن والنصف حكمت خلالها مساحات واسعة من العالم الإسلامي، وبعد دراسة تاريخ هذه الدولة وعلاقتها بالخلافة العباسية يمكننا أن نقسم هذه الأسباب إلى أسباب داخلية وأخرى خارجية وتمثلت الأسباب الداخلية بـ:ـ

1–ضعف السلاطين السلاجقة الذين تولوا الحكم بعد وفاة السلطان ملك شاه بن الب ارسلان في سنة 485هـ/1092 م ،لاسيما وان هؤلاء السلاطين لم يتمتعوا بالقوة والحنكة السياسية التي يتميز بها أسلافهم الأوائل كطغرلبك والب ارسلان وملكشاه، مما أدى بالتالي إلى انقسام دولتهم واضعافها فأخذت بالانحدار نحو الهاوية شيئا فشيئا (151).

2- كثرة الصراعات على الحكم بين أبناء الأسرة السلجوقية الحاكمة، وكانت بدايتها اثر وفاة السلطان ملكشاه الذي ترك أبناء ثلاثة، اخذ كل منهم يسعى من اجل الوصول إلى الحكم وتحقيق مصالحه الشخصية بشتى الطرق والوسائل، فوصل الحد بهم إلى التآمر مع الأمراء الآخرين فضلا عن القوى الخارجية كالبيزنطيين [152]. فعمت الحروب الداخلية فيما بينهم ،إذ تمرد الابن على أبيه والأخ على أخيه، فأسهمت هذه الحروب بشكل كبير في تفكك دولتهم الذي بذل السلاطين الأوائل جهدا كبيرا في قيامها وتثبيت أركانها ،واستمرت هذه النزاعات بل واستفحل أمرها في عهد السلاطين المتأخرين ،مما أحال الدولة السلجوقية إلى أجزاء متنافرة فيما بينها كانت محصلتها النهائية انهيار دولتهم [153].

3- سوء الأوضاع الاقتصادية التي أنهكت دولة السلاجقة بسبب صراعاتها الداخلية، ونفقاتها على الحروب الخارجية لاسيما بعد ان فقدت الكثير من مناطق نفوذها أمام الدول التي عاصرتها كالدولة الخوارزمية والإمبراطورية البيزنطية فضلا عن الهجمات الصليبية.

4- ومن أهم الأسباب الداخلية ضعف دولة السلاجقة وانهيارها، ظهور نظام الاتابكيات الذي أوجده السلاجقة، إذ ظهر هذا النظام في حقبة الانقسام والضعف الذي عم دولتهم ولاسيما بعد تولي سلاطين صغار السن اشرف على تربيتهم هؤلاء الاتابكة، الذين كانوا من أصول تركية وكردية كالزنكيين والاراتقة والايوبيين،وغيرهم إذا استكثر السلاجقة منهم في جيوشهم ،واستمروا في خدمتهم، حتى أسندت إليهم الوظائف والمناصب الإدارية والعسكرية الرفيعة، وليس ذلك فحسب بل أصبح قسما منهم ولاة على بعض المدن التابعة للسلاجقة ،ومعنى لقب الاتابك مستمد من أصل تركي (الأمير الوالد) أو مربي الأمير[154] وكانوا يشرفون على تربية الأمراء الصغار من أبناء السلاطين وتنشئتهم تنشئة عسكرية، فضلا عن إعدادهم لأمور الحكم، فإذا ما عين السلطان احد أبنائه لإدارة مدنية أو إقليم، أرسل معه اتابكا ليساعده في اداراة شؤونها، ويقدم له المشورة والنصائح ،ثم توسع مدلول هذا المنصب ليشمل قادة الجيش وكبار رجال الدولة [155]، وعندما بدأ الضعف يدب في دولة السلاجقة اخذ كل من هؤلاء الاتابكة يعمل من اجل الاستقلال وتوسيع دائرة نفوذه ويتخذ لنفسه ما يراه مناسبا من الألقاب [156].

5-تولي سلاطين صغار لا يتجاوز بعضهم العشرة من العمر، مما أدى إلى انفراد كبار رجال الدولة واستئثارهم بالحكم لنفسهم فضلا عن تدخل النساء في أمور الحكم، كما فعلت والدة السلطان محمود عندما توفي زوجها ملكشاه [157].

6- انتعاش الخلافة العباسية في الوقت الذي كان الضعف واضحا على الدولة السلجوقية، فقد تولى الحكم خلفاء أقوياء سعوا إلى إنهاء التسلط السلجوقي كالخليفة المسترشد والراشد والمقتفي واخرهم الناصر لدين الله الذي أنهى في عهده التسلط السلجوقي(158).

أما الأسباب الخارجية فقد تمثلت ب:-

1- قيام الدولة الخوارزمية التي قويت شوكتها،وتوسعت على حساب مناطق نفوذ السلاجقة، فدخلت معهم في حروب أدت إلى إضعاف السلاجقة اقتصاديا وعسكريا وهذا ما تم التطرق اليه انفا.

2- ظهور الإسماعيلية *وازدياد نفوذهم وسيطرتهم على مناطق واسعة في مناطق نفوذ الدولة السلجوقية في إيران وبلاد الشام،لاسيما بعد وفاة ملكشاه بن الب ارسلان، إذ سيطروا على القلاع الحصينة كقلعة الموت التي بناها السلطان الب ارسلان، فكانوا سببا في إضعاف المسلمين بشكل عام من خلال شن الغارات عليهم وبث الرعب في قلوبهم من خلال أعمال القتل والسلب والنهب (159). والسلاجقة بشكل خاص،إذ دخلوا كأطراف في الصراع الداخلي كتآمر بعضهم ضد البعض الآخر أو ضد الخلفاء العباسيين، ممن حاولوا القضاء على السلاجقة، فقتلوا الخليفة المسترشد ومن ثم ولده الراشد (160).

3- الخطرالصليبي الذي داهم المنطقة الإسلامية في المشرق، اثر الحملات التي انطلقت في القرن الخامس الهجري مستهدفة الدولة العربية الإسلامية والسيطرة على بيت المقدس في بلاد الشام ،فحاول السلاجقة التصدي لتلك الهجمات مما استنزف قدرات الدولة السلجوقية وأدى إلى اختزال أجزاء من مناطق نفوذها وإخضاعها للعالم الصليبي ،من خلال إنشاء إماراتهم في بلاد الشام ومناطق الساحل حيث لم يبق للسلاجقة سوى حلب ودمشق (161).

ونتيجة لهذه الأسباب المجتمعة كانت نهاية الدولة السلجوقية في سنة 590هـ في عهد الخليفة الناصر لدين الله.

الخليفة الناصر لدين الله والخطر الخوارزمي.

بعد القضاء على دولة السلاجقة وتسلطها أصبحت الخلافة العباسية في المواجهة مع خطر جديد يهددها بالعودة إلى ما كانت عليه أيام البويهيين والسلاجقة من ضعف بسبب ما عانته من تسلط واستبداد لاسيما وان قوة الدولة الخوارزمية أخذت بالتنامي،اثر التطورات

الأخيرة التي عاشتها الخلافة، فأدرك الخليفة الناصر لدين الله خطورة هذا الموقف لاسيما بعد ان بدا علاء الدين خوارزمشاه بتوسيع حظيرة دولته على نطاق واسع فسعى الخليفة إلى الحد من هذه القوة وإعادة ما سيطرة عليه من بلاد إلى سلطة الخلافة ،فأرسل الناصر لدين الله وزيره مؤيد الدين بن القصاب في سنة 591هـ/1131م إلى خوزستان، وأقام فيها الخطبة للخليفة الناصر وسلمها إليه قتلغ بن البهلوان بسبب خلافه مع خوارزمشاه، ودعمه الخليفة بالسلاح والمال والرجال ،فدخل في مواجهات مع الخوارزميين، الا انه اضطر إلى اللجوء إلى القوات العباسية التي سارت إلى همذان والري ودخلتها، كما نجحت القوات العباسية في إخضاع كل من دامغان وبسطام وجرجان، ومن ثمة عادت إلى الري وبعد أن قويت شوكة قتلغ سعى إلى الانقلاب على جيش الخليفة بعد ان تخلص من خطر الخوارزميين، الا انه فشل بسبب عزم القوات العباسية على قتله فهرب من الري مع من تآمر معه من الأمراء الآخرين متوجها إلى همذان،واستمرت القوات العباسية في ملاحقته، وعندما وردت الأخبار إلى الوزير مؤيد الدين تؤكد عزم قتلغ على مهاجمة مدينة كرج سار إليه ودارت بينهما معركة كانت نتيجتها انتصار القوات العباسية ،وفرار قتلغ فعاد الوزير مؤيد الدين بقواته إلى همذان.(162)

وبعد ثلاثة أشهر من إقامته فيها ،وصله رسول علاء الدين تكش إلى الوزير في همذان منكرا قيام القوات العباسية بالاستيلاء على البلاد التي كانت تحت سيطرته ،ويطلب منه إعادتها بموجب صلح يعقد بين الطرفين،إلا أن الوزير لم يجبه إلى ما طلب.

سار علاء الدين تكش خوارزمشاه إلى همذان في سنة 592 هـ بعد أن علم بوفاة وزير الخليفة، وعندما وصل إليها دخل في معركة مع الجيش العباسي كبد فيها الطرفان بخسائر فادحة ،أسفرت عن انتصار علاء الدين تكش،الذي استولى على همذان ،إلا انه انسحب عنها وعاد إلى خرسان بسبب حدوث بعض الاضطرابات فيها (163).

وفي السنة ذاتها جهز الخليفة الناصر جيشا سيره الى اصفهان الخاضعة للخوارزميين الذين انسحبوا منها بمجرد معرفتهم بذلك ،فدخلتها قوات الخلافة وأعادتها إلى سلطة الخليفة الناصر لدين الله (164).

أخذت العلاقة بين الخلافة والخوارزميين تأخذ منحى آخر ،نتيجة لتأزمها بين الناصر لدين الله وعلاء الدين محمد خوارزمشاه الذي تولى الحكم بعد وفاة والده علاء الدين تكش في سنة 592 هـ،فاخذ الأخير بالسعي الى إقناع الخليفة الناصر بإقامة الخطبة له في بغداد ،لتكون له المنزلة الأولى فيها بعد الخليفة(165) كما طلب من الخليفة الناصر إعادة بناء دولة السلطة في بغداد وإعادتها إلى ما كانت عليه في العصر البويهي والسلجوقي (166).

رفض الخليفة الناصر تنفيذ مطالب علاء الدين محمد خوارزمشاه ،وأصر على عدم اتخاذ مثل هذا الإجراء الذي قد يودي بالخلافة نحو الهاوية من جديد ،ولما عجز علاء الدين من تحقيق هدفه بالطرق السلمية لجا إلى استعمال القوة ،فما كان منه إلا ان أمر بقطع الخطبة للخليفة الناصر في بلاده ،ولم يتوقف عند هذا الإجراء بل اخذ يعد العدة لغزو بغداد ،يدفعه في ذلك جملة أمور أولها وأهمها رغبته الشديدة في ان يأتمر الخليفة بأمره ،وان يذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة ،كما انه شعر بان الخليفة يحتقره ويعامله معاملة سيئة ،فضلا عن ان خوارزمشاه عندما استولى على غزنة عاصمة الغوريين في سنة 611هـ/ 1214م (167) ،واستولى على خزائن شهاب الدين الغوري عثر على رسائل رسمية من الخليفة الناصر لدين الله يحث فيها على مهاجمة خوارزمشاه والقضاء عليه (168)، فأدرك علاء الدين خوارز مشاه ان الخليفة جاد في سعيه للتخلص منه من خلال تحريك الممالك والإمارات الإسلامية المجاورة ضده وعقد الاتفاقات مع أمراء تلك الممالك ،وكان القره خطائين إحدى تلك الممالك التي أبدى الخليفة استعداده للتحالف معها ،من خلال تاكيده على الاعتراف بهم فضلا عن منحهم حكم المناطق التي يستولون عليها ،كما أثار عليه كل من اتابكة بلاد فارس واذربجان ،وشجعهم بمد نفوذهم إلى بلاد فارس وانتزاعها من الخوارزميين (169).

بعد كل هذه الأحداث بدا جليا لعلاء الدين خوارزمشاه ان الخليفة الناصر لدين الله لايزال يشكل خطرا عليه ويهدد بإنهاء دولته ،بسبب الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها فوجد ان السبيل الوحيد للتخلص من هذا المأزق هو إزاحة الخليفة الناصر لدين الله عن طريقه ،من اجل الاستيلاء على العراق وخوزستان (170)، و شرع في اتخاذ الرسائل التي يراها كفيلة في تحقيق أهدافه ،فأشاع ان الخليفة الناصر حرض الغورين في غزنة على مهاجمته ،واستطاع ان يحصل على فتوى من الأئمة بان هذه التصرفات من لدن الخليفة لا تليق بمقام إمام المسلمين ،فاتخذ علاء الدين من ذلك ذريعة لخلع الخليفة (171) ، كما اعتنق في الوقت ذاته مبادئ الشيعة ،وصرح علنا بان الهدف الذي يقف وراء انهاء الخلافة العباسية هو إقامة خلافة علوية(172).

لقد هدف علاء الدين خوارزمشاه من وراء هذا الإجراء استمالة سكان تلك البلاد ،لاسيما وان اغلبهم على المذهب الشيعي ،مما سيكون له الأثر الأكبر في انضمامهم إلى جانبه في حربه مع الخليفة العباسي الناصر لدين الله ،ومن اجل الحصول على تأييد شرعي لعمله هذا أسرع بجمع الفقهاء والأئمة في بلاده ،فحصل منهم على فتوى صريحة تؤكد على ان العلويين هم

أصحاب الحق الشرعي في الخلافة ،وما العباسيين الا مغتصبين لذلك الحق ،لذا فينبغي تولية من يمثل العلويين من نسل الحسين بن علي بن ابي طالب (173).

بعد أن حصل علاء الدين خوارزمشاه على الفتوى التي تخدم أغراضه الشخصية ،اصدر أمرا يقضي بعزل الخليفة العباسي الناصر لدين الله وقطع اسمه من الخطبة في بلاده ،كما رفع اسمه من السكة ،واقام بدلا عنه في منصب الخلافة رجل علوي من مدينة ترمذ يدعى علاء الملك (174) فنادى به خليفة للمسلمين وخطب له في المساجد ،وكتب اسمه على السكة، (175) وعلى الرغم من ورود هذه الرواية في بعض المصادر المتأخرة ،إلا ان المصادر المعاصرة كالنسوي وابن الأثير لم يوردوا أي ذكر للإجراءات التي اتخذها علاء الدين محمد ازاء الخلافة العباسية وقد يكون لتلاشيها السريع، وامتعاض المسلمين من جرائها دورا في عدم الإشارة إليها، فضلا عن مساسها بشخص الخليفة الذي ازدادت قوته وعلا شانه كثيرا في تلك الحقبة (176).

بعد الذي اتخذه خوارزمشاه سار على رأس جيشه قاصدا بغداد عاصمة الخلافة العباسية للاستيلاء عليها وإنهاء الخلافة العباسية وخلع خليفتها الناصر(177) ،إلا ان خططه باءت بالفشل إذ اضطر إلى الانسحاب والعودة إلى بلاده بسبب سوء الأحوال الجوية أولا حيث هبت عاصفة ثلجية قضت على معظم قواته (178) ،حيث استمر عشرين يوما وكان ذلك بالقرب من همذان التي عسكر فيها جنود ملكشاه (179) وقضي على من تبقى منهم على أيدي الأتراك والأكراد ولم يرجع منهم إلا عدد قليل (180) فضلا عن تقدم المغول إلى بلاد خوارزمشاه ثانيا(181).

ضعفت هيبة علاء الدين خوارز مشاه اثر ما حل بقواته على أيدي المغول ،لاسيما وان الناس بدءوا بتأويل هذه الأحداث وما حل بالسلطان إلا عقابا سماويا لجرأته على معادات بيت الخلافة ،وقد أكد ذلك ابن الأثير من خلال قوله : ((بان من سعادة هذا البيت الشريف العباسي، انه لم يقصد الخلافة احد بأذى إلا لقيته فعله وخبث نيته)) (182).

سلمت الخلافة من خطر هذا الملك الذي ابتلاه الله بقوم اظلم منه غزو بلاده واستولوا عليها وعاثوا بها سلبا ونهبا وقضوا عليه وعلى دولته 'وهم المغول الذين بدأت قواتهم بغزو الأراضي الإسلامية الواحدة تلو الأخرى وهذا ما سنفصل الحديث عنه في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

الهوامش

in،The Political History of the I ranian World ،B OSworth ،E ،C /VOl.5: (Cambridge History of Iran (Cambridge :1966 1 –the 20 –PP

2- ابن الأثير /الكامل 9 /473

3- حسنين /سلاجقة العراق وإيران ص17

4-ابن العبري /تاريخ الزمان ص87

5- زكار/مدخل في تاريخ الحروب الصليبية ص34 ؛ثاليورايس/السلاجقة ص10

6- حسنين /سلاجقة إيران ص16-17

7- ابن الأثير /الكامل 473 ؛عبد الرؤوف /بلاد الجزيرة ص71

8- حسنين /سلاجقة إيران ص16

9- انظرالراوندي /راحة الصدور ص145

10- ابن الجوزي المنتظم 8 /107 ؛ابن الأثير /الكامل 327/9

11- الحموي /معجم البلدان 178/2

12- ابن الأثير /الكامل 192/8؛رايس /السلاجقة ص23

13- ابن الأثير /الكامل 129/8

14- كاهن /تاريخ العرب والشعوب الإسلامية 346/1

15- الراوندي /راحة الصدور ص146

16- الراوندي/راحة الصدور ص147؛الحسيني /العراضة في الحكاية السلجوقية ص22

17- البيهقي /تاريخ البيهقي ص152-153

18- البيهقي /تاريخ البيهقي ص153

19- البيهقي /تاريخ ص592 ؛ابن الأثير الكامل 457/9

20- ابن الأثير /الكامل 483/9

21- البيهقي /التاريخ ص683؛بارتولد /تركستان ص448

22- ابن الأثير /الكامل 9 /239

23- ابن الجوزي/المنتظم 181/8-

24- الازرقي /تاريخ ص93-94

25- الراوندي /راحة الصدور 166-167؛ ولديوانت/قصة الحضارة 102/13

26- سرور/ سياسة الفاطمية الخارجية ص172

27- ينظر:ابن خلكان /وفيات الأعيان 191/1-192

29- ابن الأثير /الكامل 9/ 254

29- مسكويه /تجارب الأمم 366/1؛ابن الجوزي المنتظم 288/6

30- الحسيني /العراضة ص 37-38

31- حسن /تاريخ الإسلام 16/1

32- ابن الأثير /الكامل 9 /254

33- ابن الأثير /الكامل 254/9؛سرور/ النفوذ الفاطمي ص106

34- أبو الفداء/المختصر 77/4؛الذهبي /العبر 212/3.

35- زكار/تاريخ العرب والإسلام ص330-336

36- ابن الجوزي المنتظم 8 /181-182؛الاصفهاني /تاريخ دولة ال سلجوق ص43

37- الاصفهاني/تاريخ ص44

38- ابن طباطبا /الفخري ص293

39- ابن الأثير /الكامل 631/9

40- المقريزي /اتعاظ الحنفا 2/233

41- ابن الأثير/ الكامل 636/9

42- ابن الأثير /الكامل 642/9

43- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص 418

44- ابن الأثير /الكامل 9 /642

45- ابن تغري بردي /النجوم الزاهرة 5 /7

46- المقريزي /اتعاظ الحنفا256/2

47- القزاز/الخليفة العباسي القائم بأمر الله ص203

48- ابن الأثير /الكامل 648/9 :ابن كثير /البداية والنهاية 83/12

49- ابن الجوزي المنتظم 25/8
50- بلادمير /إيران المعارضة ص376
51- المنتظم 8 /116
52- الكامل 522/9
53- ينظر:ابن الجوزي /المنتظم 114/8-116؛ابن الأثير /الكامل 542/9
54- البداية والنهاية 12 /522
55- الكامل 613/9؛الاصفهاني /تاريخ ص10
56- هاشم /علاقة الخلافة العباسية بدويلات المشرق الإسلامي ص32
57- حسن /تاريخ الإسلام 17/4
58- ابن الأثير /الكامل 161/8
59- ابن خلدون /العبر 459/3-460
60- ابن الأثير /الكامل 172/8
61- ابن كثير /البداية والنهاية 524/12
62- ابن الأثير /الكامل 178/8
63- ابن الجوزي /المنتظم 165/8
64- سلطان /التاريخ الإسلامي 130/2
65- الاصفهاني /تاريخ ص46-48؛ابن الأثير/ الكامل 205/8
66- ابن الجوزي /المنتظم 223/8
67- ابن الأثير /الكامل 194/8
68- الاصفهاني /تاريخ ص51-52؛ابن العبري /تاريخ ص106
69- ابن الجوزي /المنتظم 234/8
70- ابن الجوزي /المنتظم 235/8
71- ابن الأثير /الكامل 216/8؛أبو الفداء /المختصر 185/2
72- الأصفهاني /تاريخ ص43
73- ابن الأثير /الكامل 249/8
74- ابن الجوزي /المنتظم 317/8؛ابن العمراني /الأنباء ص201
75- ابن الجوزي /المنتظم 318/8:ابن الأثير /الكامل 276/8
76- ابن الجوزي/المنتظم 317/8

77- ابن الأثير /الكامل 313/8

78- ابن الأثير /الكامل 313/8

79- ابن الأثير /الكامل 318/8

80- ابن الجوزي /المنتظم 183/8

81- ابن الأثير /الكامل 321/8

82- ابن الأثير /الكامل 327/8

83- ابو الفداء /المختصر200/2 ؛ابن الوردي /تتمة المختصر 5/2

84- ابن خلكان /وفيات الأعيان 229/5

85- ابن الجوزي /المنتظم 62/9

86- ابن الجوزي /المنتظم 62/9

87- سبط ابن الجوزي /مرآة الزمان ص242

88- ابن الأثير/ الكامل 355/8

89- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص416

90- ابن الأثير /الكامل 355/8 ؛ابن كثير /البداية والنهاية 12 /ص621

91- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص416

92- ابن الأثير /الكامل 8 /367؛ابن خلدون /العبر 19/5

93- للمزيد من التفاصيل ينظر:ابن الأثير /الكامل 367/8-463

94- ابن العمراني /الأنباء ص213

95- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص421

96- الدوري وأخرون /العراق في التاريخ ص447

97- سمرقندي جهار/ مقالة ص31

98- ابن الجوزي /المنتظم 9 /454-255

99- ابن الجوزي /المنتظم 9/ 235-237

100- ابن الأثير /الكامل 8/ص645؛الذهبي العبر 4/ص44

101- ابن الأثير /الكامل 652/8-655

102- ابن الأثير /الكامل 355/8

103- أمين /تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص101-102

104- يحيى /نظام السلطنة في العصر العباسي ص75

105- ابن الأثير /الكامل 3/713-718؛ابن ألطقطقا/الفخري ص303

106- ابن الأثير /الكامل 8/721؛الذهبي /العبر 4/79

107- ابن الجوزي /المنتظم 10م55؛المقريزي /السلوك ح1 ق1 ص36

108- الحسيني /العراضة ص119

109- ابن الأثير /الكامل 8/726؛الذهبي /العبر 4/80-81

110- ابن الجوزي /المنتظم 10/66

111- للاطلاع على جواب الخليفة ينظر :ابن الجوزي /المنتظم 10/66-67

112- ابن الأثير /الكامل 9/50-51؛ابن خلدون /العبر 3/515

113- المنتظم 10 /ص123

114- ابن الجوزي /المنتظم 10/133

115- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص38

116- استطاع الخليفة أن يوقع بين ملكشاه وحلفائه وبين السلطان محمود لصالح الخلافة

117- لمعرفة تلك الامتيازات وغيرها انظر:ابن الجوزي /المنتظم 10/142

118- الأصفهاني /تاريخ ص216

119- المقريزي /السلوك ج1 ق1 ص21

120- الأصفهاني /تاريخ ص217

121- يذكر ابن الأثير ان الخليفة كان يبذل الأموال الكثيرة في الحصول على الأخبار.الكامل 9/71

122- الأصفهاني /تاريخ ص216-217

123- ابن الجوزي /المنتظم 10/142

124- كورك /بغداد مدينة السلام 1/164

125- ابن الجوزي /المنتظم 11/170-173

126- ابن كثير /البداية والنهاية 12/745-746؛ابن خلدون /العبر 4/87

127- إمارات ظهرت بعد انهيار دولة السلاجقة وفي الأصل كانوا هؤلاء مربوا أولاد السلاطين ثم منحوا ولايات لمكافئتهم

128- ابن الجوزي /المنتظم 10/156-157

129- ابن الجوزي /المنتظم 10/157

130- ابن الجوزي /المنتظم 157/10؛كوك /بغداد 171/1
131- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص435
132- ابن الأثير /الكامل 243/9-246
133- ابن الأثير /الكامل 322/9؛ابن كثير /البداية والنهاية 831/12
134- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص439
135- ابن الأثير /الكامل 742/9
136- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص438
137- السيوطي /تاريخ ص440
138-السيوطي /تاريخ ص 438
139- ابن الأثير /الكامل 407/9
140- الدوري /العراق في التاريخ ص30
141- ابن الأثير /الكامل 406/9
142- ابن الأثير /الكامل 406/9
143- ابن الأثير /الكامل 423/9
144- ابن الأثير /الكامل 483/9
145- الصياد/المغول في التاريخ ص69
146- ابن الأثير /الكامل 484/9؛أبو الفداء /المختصر 89/3
147- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص443
148- ابن الأثير /الكامل 484/9
149- ابن الوردي /تتمة المختصر 107/2؛النويري /نهاية الارب 63/27
150- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص443
151- ابن الأثير /الباهر في تاريخ الدولة الاتابكة ص12
152- هسي/العالم البيزنطي ص174-
153- ابن العبري /تاريخ ص514
154- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص279
155- ابن العبري /تاريخ ص343
156- ألقلانسي /ذيل تاريخ دمشق ص140
157- ابن الأثير /الكامل 400/9

158- ابن الأثير /الكامل 406/9

159- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص439

160- ابن الأثير /الباهر ص98

161- ألصولي /تاريخ الحروب الصليبية ص 170-174

162- ابن الأثير /الكامل 488/9

163- سبط ابن الجوزي /مرآة الزمان 2 /445

164- النويري /نهاية الارب 314/23

165- الصياد /المغول في التاريخ 69/1

166- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص423

167- ألعريني /المغول ص110

168- الصياد /المغول 69/1

169- الصياد /المغول 70/1

170- الصياد /المغول 70/1

171- ألعريني /المغول ص111

172- عمران /المغول وأوربا ص17

173- الصياد /المغول 71/1

174- ألعريني مغول ص111

175- الصياد /المغول 71/1

176- القزاز /الحياة السياسية في العصر العباسي الاخير ص227

177- حمدي/ الدولة الخوارزمية ص95

178- الصياد /المغول 73/1

179- ابن الأثير /الكامل 312/9-313

180- النسوي /سيرة السلطان جلال الدين ص64؛ابو الفداء /المختصر 124/3

181- الصياد /المغول 73/1؛ حسن /تاريخ الإسلام 129/4

182- الكامل 313/9.

5

الفصل الخامس

الخلافة العباسية والغزو المغولي.

تعرضت الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي الثاني وتحديدا في القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي لأخطر هجمة هددت كيانها متمثلة بالغزو المغولي، الذي تزامن مع الظروف السياسية السيئة التي عاشتها البلاد العربية والإسلامية سواءا الداخلية منها أم الخارجية مما اطمع القوى المناهضة التي سعت جاهدة لإضعافها أكثر مما هي عليه، لتتمكن من السيطرة عليها واستنزاف خيراتها، فوجدت في ضرب الخلافة العباسية في بغداد وإنهاء وجودها انهاءا للعالم الإسلامي لاسيما وان الخلافة العباسية كانت تمثل القوة الروحية للمسلمين في مختلف بلدان العالم، وبالتالي يتسنى لها فرض السيطرة التامة عليها دون أي عائق.

أولا : أصل المغـــول

من الصعب جدا تحديد أصل المغول بدقة لعدم وجود روايات دقيقة ومتفقة بهذا الشأن، فقد ذهبت الكثير من المصادر والمراجع العربية الإسلامية إلى إنهم يرجعون إلى أصول تركية (1) وينتمون بلهجاتهم إلى الأسرة اللغوية التائية(أي التركية المغولية) (2).ويتكون المغول من قبائل متعددة أطلق على البعض منها تسمية التتار، في حين أطلق على البعض الأخر منها تسمية الأتراك فضلا عن قبائل أخرى كثيرة الا ان تسمية المغول أطلقت على جميع هذه القبائل لتصبح اسما شاملا عاما لها ولم يكن هناك نظام حكم محدد وموحد ينظم حياتهم السياسية، وعرفت حياتهم بالفوضى السياسية في بادئ الأمر إذا سادتها الصراعات المستمرة(3).

عرف المغول بأسماء متعددة ومختلفة منها المغل والتتر والتتار وعلى الرغم من تعدد هذه المسميات الا انها تعني الشعب المغولي الذي يتكون من قبائل رعوية متعددة ترجع في أصولها الى العنصر التركي (4) ولكن الأمر الذي يمكن ملاحظته ان اسم التتر هو الذي شاع وانتشر وغلب على جميع هذه الأسماء، فأصبحت هذه الأقوام تعرف به في العالم الخارجي، فضلا عن أسمائهم الخاصة، وطغى ذلك الاسم منذ النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي /السابع الهجري، واستخدم في جميع المصادر المعاصرة العربية الإسلامية منها ام غير العربية (5) وتعد لفظة التتار لفظة شاملة لجميع القبائل المغولية والتركية(6).وعلى الرغم من ان الأتراك والمغول من أصول مشتركة ويحملون الاسم ذاته، الا ان هناك تفاوت واختلاف شاسع بينهم من حيث العادات والأعراف وطرق المعيشة، ويرجع ذلك إلى التنقل من مكان إلى آخر (7) فالمغول يتكونون من قبائل كثيرة العدد يصعب التميز بينها لكثرة بطونها وعشائرها واتساع رقعة

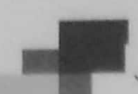
الأرض التي يعيشون فيها فمنطقة استقرارهم مفتوحة، ومن هذه العشائر التتار والكريت وقيات وغيرها [8]، وقد استوطنت تلك القبائل في بلاد عـرفت عند القـدماء باسـم التبت ثم أطلق عليها أهل الصين اسـم بـــلاد التتار [9].

ثانيا :موطن المغول

استوطن المغول ونشأوا في هضبة منغوليا [10] شمال صحراء جوبي [11] وتمتد هضبة منغولية في أواسط آسيا وتحديد جنوبي سيبيريا وشمال التبت وغربي منشوريا وشرقي التركستان في المنطقة الواقعة بين جبال التاي وجبال خنجان شرقا [12]، والمغول في أصولهم قبائل رعوية في ترحال دائم بحثا عن الكلأ والماء لهم ولمواشيهم وموطنهم مغولستان وتركستان [13] وكانت تقيم حول بحيرة (بيقال اوبيكال) في جنوب سيبريا [14].

تعد هضبة منغوليا بقسميها الجبلي والصحراوي الموطن الرئيسي للقبائل المغولية التي كانت تستقر في سهولها ومناطقها الدافئة شتاءا وفي المرتفعات وأعالي الجبال صيفا، أما مناخ هذه الهضبة فهو قاري، مما يؤدي إلى تجمد أنهارها وبحيراتها لفترات طويلة خلال السنة، فضلا عن الرياح الشديدة التي تهب من المنطقة الجليدية في سيبريا الواقعة الى الشمال منها حيث ترتفع درجات الحرارة وتهب إليها الأعاصير المحملة بالرمال [15] كما ان فصل الصيف فيها لا يكاد يبدأ حتى ينتهي، وتبلغ درجة الحرارة في فصل الشتاء في بعض جهاتها 58 درجة تحت الصفر، أما في فصل الصيف القصير فتبلغ درجات الحرارة أحيانا إلى 60 درجة مئوية.

وفي مثل هذه البيئة القاسية من حيث التضاريس والمناخ، كانت القبائل المغولية تتنقل بحثا عن المياه القليلة في الصحراء التي يعني اسمـــها الجدب والفقر، فلا عجــب ان تنعكس هذه الظروف على سلوكها سواء في معاملة أفرادها مع بعضـــهم البعض ام في علاقتهم مع الآخرين [16] إذ تميز الفرد المغولي بالقساوة والصلابة جعلت نمط الحياة وطبيعة العيش بالنسبة للقبائل المغولية تعاني من ضرورة الحياة المتنقلة من مكان إلى آخر سعيا وراء الرزق وسبل العيش المتمثلة بالبحث عن الماء والكلأ [17]، فكانت هذه الظروف احد العوامل المهمة والأسباب الرئيسية التي دفعت بهم لغزو العالم من اجل توسيع رقعة دولتهم لتشمل مناطق خصبة ذات خيرات يمكنهم استغلالها والاستفادة منها في حياتهم.



ثالثاً :قيام دولة المغول وتوسعها في آسيا

ان التاريخ الحقيقي لقيام دولة المغول يرجع إلى عهد جنكيز خان (18)، حيث بدا التوسع المغولي بعد ان نجح في جمع شمل القبائل المغولية وتوحيد قواها، وقضى على الأمراء المنافسين له، كما تمكن من التغلب على جميع المشاكل التي واجهته أثناء عملية ضم القبائل المغولية تحت قيادته، فأصبح الزعيم الأوحد للمغول في سنة 584هـ/1188م (19).

لم تقتصر طموحات جنكيز خان في حكم المغول فقط بل، سعى جاهدا من اجل توسيع ممتلكاته والسيطرة على جميع المناطق المجاورة، لاسيما بعد ان قبض بيد من حديد على زمام السلطة في منغوليا وما جاورها، ومن اجل تحقيق هذا الهدف توجهة جنوبا من اجل التوسع على حساب الأراضي الصينية وإخضاعها لسلطته، ونجح في مسعاه، إذ تمكن من بسط سيطرته عليها، ومن ثمة سير قواته إلى جهة الغرب للقضاء على بعض الأمراء المناوئين له الذين فروا خشية من انتقامه منهم، لاسيما القبائل القرة خطائية (20).

لم تنته سنة 603 هـ/1206 م الا وقد نجح جنكيز خان في فرض سيطرته على جميع الأقاليم المجاورة لمنغوليا (21) فعقد بعد هذه الانتصارات مجلس (القورلتاي) (22) وأعلن نفسه خانا أعظم للمغول،وارتدى جنكيز خان بعد الاجتماع رداء السلطنة، ورفع في المعسكر لواء يتدلى منه أذيال تسع أفراس بيضاء وردع على هذا اللواء القمر المحاق(23)، كما سعى إلى تنظيم الجيش وتقويته من حيث العدد والعدة والأسلحة المستخدمة، واهتم بالوحدات العسكرية، من خلال إصدار قوانين وتشريعات لدولته عرفت قوانين جنكيز خان او الياسا (24) كما حدد بموجب الياسا القانون الذي يجب ان يلتزم به الفرد المغولي في تعامله مع المغول او الأعداء وبعد ان تمكن جنكيز خان من تثبيت أركان إمبراطورية، ووضع الأسس الإدارية، بدء يعد العدة للتوجه نحو الجنوب لفرض سيطرته عليها، ففي سنة 602 هـ/1205 م توجه جنكيز خان على رأس حملة عسكرية كبيرة لمهاجمة هسيا الواقعة غرب النهر الأصفر (25) ثم توجه شمالا ونجح في فرض سيطرته على كل ما يقع أمامه من مدن وقرى وصولا إلى شمال السور العظيم (26) وقد مكنته الظروف التي كانت تعيشها الصين من تحقيق هذه الانتصارات، اذ كانت منقسمة إلى قسمين هما الصين الجنوبية التي تحكمها أسرة سنوج، اما الصين الشمالية، وعاصمتها (بنكن) القريبة من بكين وتحكمها أسرة كين التي تمتد سيطرتها على بلاد التتار واستطاع جنكيز خان ان يلحق بهذه الأسرة هزيمة كبيرة، ويسحق جيوشها، وبهذا فقد خضعت له جميع الأراضي الواقعة جنوب السور العظيم أيضا في سنة 608 هـ/1211م (27).

استغل جنكيز خان فرصة الانقسامات التي حدثت في صفوف الجيش الصيني التابع لأسرة كين، فجهز جيشا لغزو بلادهم وانزل بهم هزيمة ساحقة (28)، واستولى جنكيز خان على كل ما في خزائن العاصمة من أموال وذهب وحرير وسقطت بكين بيد القوات المغولية في سنة612هـ/1215م (29) وقد اتخذ المغول من هذه المدينة مركزا للمستعمرة المغولية الجديدة أكثر من نصف قرن (30)، وقد حقق المغول فوائد عظيمة اذ سيطروا على جميع مصادر البارود وتمكنوا من التعرف على كيفية استخدامه في الحروب، وكان لاحتلال مدينة بكين اثر كبير في نفوس المسلمين، لما تشكله إمبراطورية الصين من مكانة وأهمية، مما زاد من مخاوف المسلمين من المناطق المجاورة للصين، وفي التركستان تحديدا(31).

ان الانتصارات التي حققها جنكيز خان في بلاد الصين، كانت نقطة الانطلاق الأولى لانتصارات متتالية حققها المغول في جهات مختلفة فبعد سنتين من انتهاء الحملة الصينية جعل جنكيز خان جل اهتمامه بالغرب، حيث مناطق نفوذ الدولة الخوارزمية المسلمة، التي يحكمها علاء الدين محمد الذي وصل إلى قمة مجده في تلك الحقبة.

رابعا: الغزو المغولي للعالم الإسلامي

لقد كانت البداية الأولى لغزو العالم الإسلامي في سنة 616هـ/1219م عندما اصطدموا بالدولة الخوارزمية التي وصلت مناطق نفوذها إلى مناطق شاسعة لتضم جميع بلاد ماوراء النهر وأفغانستان وبلاد فارس(32) ولم تتوقف المخططات المغولية على الاستيلاء والسيطرة على بلاد ماوراء النهر او خرسان بل استمرت من اجل تحقيق أهدافها في تدمير العالم الإسلامي ونهب خيراته، والقضاء على العراق وحاضرة الخلافة العباسية بغداد (33)، لذلك يمكن عد سنة 616 هـ/1219م سنة دمار،(34)، لما ارتكبته هذه الأقوام الهمجية من فضائع وأعمال وحشية تخريبية من قتل وإحراق وسلب ونهب وتدمير لكل مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية للعلم آنذاك.

هاجم المغول الدولة الخوارزمية التي تنتسب الى منطقة خوارزم (35) في سنة616هـ/1219م، اثر قيام علاء الدين خوارزمشاه بالقضاء على الدولة القرة خطائية وإزالتها من الوجود في سنة 616هـ/1206م (36)، التي كانت تمثل حاجزا منيعا يفصل بين المغول والخوارزميين، فأصبح الوضع على الرغم من القوة التي تمتع بها علاء الدين محمد خوارزمشاه، فقد عمل في بداية الأمر على التخلص من الخطر المغولي من خلال الطرق الدبلوماسية وتبادل الرسل والسفارات بين الطرفين (37) ودعم السلام بينهما، إلا ان ذلك السلام لم يدم طويلا إذ سرعان ما تعكر

صفو العلاقات بينهما، بعد ان أرسل جنكيز خان رسالة ذم لعلاء الدين خوارزمشاه، الذي عدها نوع من السخرية والاستصغار، وموجهة إلى أقوى ملك من ملوك المسلمين في تلك البلاد آنذاك (38).

لقد شكلت الدولة الخوارزمية عائقا أمام طموحات ورغبات جنكيز خان في التوسع، فوجد من الضروري إزالتها لكي يتحرك بكل حرية، فاوجد الذريعة الملائمة لذلك، اذ اتخذ من حادثة قتل التجار المغول في اترار بأمر من علاء الدين خوارزمشاه سببا في مهاجمة الدولة الخوارزمية، التي عدتهم جواسيسا لجنكيز خان وليسوا تجارا كما ادعوا، لذا لايمكن معاملتهم وفق المعاهدة المعقودة مسبقا بين الطرفين المغولي والخوارزمي(39).

لقد كان هؤلاء الأشخاص الذين أرسلهم جنكيز خان الى اترار جواسيس فعلا وليسو تجارا كما ادعى جنكيز خان، الذي أوكل إليهم مهمة التجسس ومعرفة الإمكانيات العسكرية للخوارزميين، فضلا عن نقل صورة كاملة له عن الشخصيات في تلك الدولة المترامية الأطراف(40).

أرسل جنكيز خان الكتب والرسائل الى علاء الدين خوارزمشاه يهدده فيها ويأمره بتسلم اينال خان (41) إليه لمعاقبته على فعلته هذه، كما كتب إليه خوارزمشاه بالعدول عن هذا الأمر الا انه أصر على طلبه(42)، وعلى ما يبدو ان جنكيز خان أدرك بشكل تام عدم قيام خوارزمشاه بتسليم اينال بحكم صلة القربى التي تربطه به، وهذا ما يخدم أغراضه في غزو الدولة الخوارزمية لذا فقد أصر على تنفيذ طلبه وتسليم اينال إليه لينال عقابه الذي يستحقه.

وبعد هذه المراسلات أصبح الغزو المغولي لأراضي الدولة الخوارزمية أمر واقع لا محال منه (43) فأصبحت مذبحة التجار الشرارة التي أشعلت نار الحرب والفتيل الذي فجر ما في داخل جنكيز خان من طموحات توسعية فأسرع في إعداد العدة اللازمة وتجهيز جيوشه للقيام بمهاجمة الخوارزميين وتدمير بلادهم وإراقة دماء المسلمين فيها، فزحفت قواته التي يقودها بنفسه وبمعيته أولاده الأربعة، فضلا عن زعماء القبائل وبعض الحلفاء التابعين لحكمه آنذاك، وكان موقف الطرفين مختلف الى حد كبير بين الطرفين، ففي الوقت الذي كان فيه جنكيز خان مستعدا متلهفا لمهاجمة الدولة الخوارزمية كان علاء الدين خوارزمشاه مترددا حائرا في الإجراءات التي عليه القيام بها إزاء هذا الخطر المحدق ببلاده (44)، فندم كثيرا على ما قام به إزاء التجار، وبدا يفكر في كيفية التخلص من خطر المغول، فأستدعى فقهاء بلاده وعلى رأسهم الشهاب الحيوفي لاستشارته بالأمر، وكيفية دفع الخطر الذي يهددهم فأشار عليه بخطة بينما

أشار عليه الأمراء بخطة أخرى، وبينما هو على هذه الحال، وصل إليه رسول جنكيز خان يحمل إليه رسالة في طياتها عبارات التهديد والوعيد، فأجابه علاء الدين خوارزمشاه بأنه مستعد للقاء جنكيز خان وحربه (45).

لقد أدت هذه الظروف وتهديدات جنكيز خان إلى إرباك الدولة الخوارزمية وحاكمها، مما افقده القدرة على وضع الخطط العسكرية لدفع الخطر عن بلاده، واكسب العدو الظروف المناسبة لتحقيق النصر ونتيجة الى عدم جرأته على التصدي للمغول والدخول معهم في معركة واحدة حاسمة، إثر علاء الدين خوارزمشاه الاعتماد على خطة زادت من ضعفه ومكنت المغول منه إذ قسم قواته إلى عدة أقسام وجعل كل منها في إحدى المدن للدفاع عنها وانسحب الى داخل البلاد هربا مذعورا،متوعدا المغول بجمع جيوشه والعودة لإلحاق الهزيمة بهم، واستمرت حملة جنكيز خان لاحتلال الدولة الخوارزمية خمس سنوات (616-621هـ/1219-1225م) (46) اجتاحت القوات المغولية خلالها جميع المدن الخوارزمية (47).

استمرت القوات المغولية في مطاردة علاء الدين خوارزمشاه الذي لجأ في نهاية المطاف الى احد الجزر الصغيرة في بحر قزوين طالبا الأمان، ولما أحس علاء الدين خوارزمشاه بدنو اجله بعد المرض الذي الم به، وعلم بأسر والدته تركان خاتون بأيدي المغول جمع أبنائه وسلم أمور الحكم لولده جلال الدين بعد ان أعلن هو الوحيد الذي يستطيع حماية الدولة الخوارزمية، وتوفي علاء الدين في جزيرة ابسكون ودفن فيها في سنة 617هـ/1221م(48).

بعد أن أصبح الحكم في الدولة الخوارزمية لجلال الدين لم يتغير الحال عما كان عليه أيام أبيه بالرغم من الشجاعة والمقدرة العسكرية التي تمتع بها في بداية حكمه، إذ تمكن من تحقيق بعض الانتصارات على الجيوش المغولية الا ان الانقسامات التي دبت بين صفوف جيشه، وزحف جنكيز خان بنفسه على رأس قواته للانتقام من القوات الخوارزمية، كان سببا في عجزه عن مواصلة المسيرة التي بدأها في مقارعة المغول، فعبر نهر السند الذي غرقت فيه معظم قواته اثر المعركة التي اشتبك فيها مع المغول (49)، وهرب إلى الهند.

انسحب جنكيز خان إلى بلاده بعد الانتصارات التي حققها على الخوارزميين، لاسيما وانه اطمأن إلى عدم وجود من ينهض بتلك البلاد مرة أخرى بعد أعمال القتل والسلب والنهب والتدمير التي قام بها، إلا ان الظرف التي مرت بها إمبراطورية المغول بعد وفاة جنكيز خان وانشغالهم بتولية من يخلفه في الحكم، كانت من الأسباب المشجعة لجلال الدين خوارزمشاه على العودة إلى بلاده لمواصلة القتال والثار من المغول الذين دمروا بلاده واستولوا على عرشه

وخزائنه، فعمل جاهدا على نشر سيطرته على البلاد وتنظيم أمورها الداخلية، الا انه لم يستثمر تلك الظروف بالشكل الأمثل، فلم يلجأ إلى التعاون مع الخلافة العباسية، وجمع كلمة المسلمين، في الوقت الذي فقد فيه المغول روح الحماس التي كانوا يتمتعون بها أيام جنكيز خان، فضلا عن انقسامهم الذي اضعف عزيمتهم على القتال، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك مما جعله فريسة سهلة للمغول مما اضطره على الهرب أمام القوات المغولية مرة أخرى (50) إلا انه لم يسلم في هذه المرة، اذ لقي حتفه على أيدي احد الأكراد في سنة 628 هـ/1231م مدعيا ان الخوارزميين قتلوا أخاه، فقتل جلال الدين ثأر له لكونه ابرز الشخصيات في الدولة وملكها (51)، وبمقتل خوارزمشاه أزيل ذلك السد المنيع والحاجز الذي كان يفصل بين المغول والخلافة العباسية اللذين أصبحا وجها لوجه، فأصبحت مهمة المغول أكثر سهولة لاسيما وان الطريق إلى بغداد بات مفتوحا (52).

خامسا :الغزو المغولي للعراق وموقف الخلافة العباسية.

1. الحملات المغولية الأولى لاحتلال العراق (618-643هـ)

بعد أن حقق المغول هدفهم ونجحوا في إنهاء الدولة الخوارزمية التي قتل ملكها جلال الدين، بدأت القوات المغولية بالزحف من اجل السيطرة على المدن القريبة من العراق، إلا انها لم تتسرع في الدخول إلى الأراضي العراقية التابعة للخلافة العباسية تجنبا لأي طارئ قد تكون فيه مجازفة وخطورة على قواتها كما تجنبت أي تصادم مباشر مع القوات العباسية فكتفت بالسيطرة على المناطق المجاورة للعراق من جهته الشمالية والشمالية الشرقية (53).

كما التقت القوات المغولية ببعض الاشتباكات من المعارك الصغيرة،والتي هدفت من ورائها الاستطلاع والتعرف عن كثب على مدى قوة الجيش العباسي وإمكانية صموده الفعلي من ناحية، وتعرفهم على المنطقة وطرقاتها من ناحية أخرى لكي يسهل عليهم استخدامها ومعرفة نقاط الضعف والقوة فيها (54).

كانت البداية الحقيقية للغزو المغولي في سنه 618هـ/1221م بعد الانتصار الذي حققوه على الدولة الخوارزمية في سنة 616هـ/1219م الا ان الانسحاب المفاجئ إلى بلادهم أخر إتمام مشروع احتلال بغداد (55)، وقد عاصر الخليفة الناصر هذه الأزمة التي عاشتها الأمة آنذاك، واتخذ مجموعة من الإجراءات التي أشارت لها المصادر التاريخية، بينما ألقت بعض الروايات الأخرى باللوم والمسؤولية عليه في التهاون أمام الغزو المغولي، وهذا ما سنفصل الحديث عنه في بحث مستقل بعد عرض الإجراءات التي قام بها أمر الخليفة الناصر لدين الله باتخاذ

التدابير اللازمة لتحصين بغداد فضلا عن مراسلاته مع الأمراء المسلمين في المدن العراقية، فعندما وصلت جحافل المغول أطراف مدينة أربيل أرسل صاحبها مظفر الدين كوكبري إلى الخليفة الناصر لدين الله يستنجده، فكتب الخليفة الى أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ والى الأمير مظفر الدين كوكبري والأمراء الايوبيين في بلاد الشام والجزيرة يأمره بالاجتماع مع جيش الخلافة للتصدي للقوات المغولية، فلما اجتمعت الأطراف في مدينة دقوقا أرسل اليهم الخليفة الناصر قوة عسكرية مكونة من ثمانية مائة مقاتل وعلى رأسهم مملوكه قشتمر اكبر أمراء الخلافة العباسية آنذاك، الا ان هؤلاء الأمراء لم يتحركوا للقاء المغول لإدراكهم التام بعدم كفاية قواتهم للقيام بمثل هذه المهمة (56) وقد يكون دخولهم في معركة غير متكافئة سببا في خسارة كبيرة تضعف من معنويات المسلمين، وتقتل في داخلهم أي حافز يشجعهم على الوقوف بوجهة هذه الهجمة الشرسة مستقبلا.

تولى الخليفة الظاهر بأمر الله بعد وفاة الخليفة الناصر لدين الله ولم يستمر بالخلافة لفترة طويلة ودب خلالها الضعف والانحلال في الجانب الإداري للخلافة، بسبب وفاته بعد بضعة أشهر، دون ان يتخذ أي إجراءات مهمة من اجل التصدي للغزو المغولي (57) وعلى ما يبدو ان قصر عهده حال دون اتخاذ أي إجراءات فضلا عن عدم فعالية أي إجراء يتخذه في مثل هذه الفترة القصيرة، وإذا ما اتخذ أي منها فان نتائجه لا تظهر بشكل مباشر.

أعقب الخليفة الظاهر بأمر الله في تولي أمر المسلمين ولده المستنصر بالله (623-640 هـ/1226- 1242م) وشهدت الخلافة في عهده نوعا من الانتعاش فنجح في إعادة السلطان جلال الدين خوارز مشاه الى حظيرة الخلافة العباسية وعلى الرغم من ذلك لم يتمكن في توحيد قوة

الأمراء المسلمين وتوحيد جبهتهم بحكم مركزه الديني كخليفة من اجل التصدي للمغول، وإعادة كل ما تم لهم الاستيلاء عليه، فبقيت جبهتهم مفككة يسود بينهم الصراع من اجل التوسع كل على حساب الآخر، مما شجع المغول واوجد لهم الظروف المناسبة لمهاجمة الخلافة العباسية مرة أخرى (58) بعد قضائهم على جلال الدين خوارزمشاه في سنة 628هـ/1230م فأزالوا بذلك العائق الذي يقف أمام تقدمهم، وفي الوقت الذي كان بقية الأمراء يدركون أهمية بقاء الدولة الخوارزمية، لم يقدر الخليفة العباسي أهميتها الكبيرة ودورها في دعم موقفه أمام الزحف المغولي، فقد عدها بعض الأمراء بمثابة السد المنيع الذي يفصل بينهم وبين المغول، وان زوالها سوف يكون سببا في دخول المغول إلى العراق (59) وهذا ما حدث فعلا في سنة

632هـ/1234م اذ هاجمت بعض السرايا منطقة شهر زور وأربل وداقوقا، في حين لم تتخذ الدولة العباسية أي إجراء لتعهم من عملهم هذا، وعادت تلك القوات إلى مقرها في همذان بعد ان حققت ما جاءت من اجله دون أي مقاومة تذكر، كما أعادوا الكرة في السنة التالية فتعرضوا للمنطقة ذاتها [60].

كما هاجمت القوات المغولية أراضي الخلافة فوصلت إلى سامراء، فتصرف الخليفة في هذه المرة بشكل حازم على مهاجمتهم، الا ان موقفه جاء متأخرا اذ وجد في الجهاد سبيله الوحيد للخروج من هذا المأزق، لاسيما بعد ان أفتى الفقهاء بالجهاد في سبيل الله ومدافعة المغول، خير من الحج إلى بيت الله [61] كما بدا بإعلان النفير العام وأرسل إلى عرب البوادي، وكتب إلى امراء المسلمين من ايوبيين وسلاجقة الروم ودعاهم إلى الجهاد في سبيل الله، وخصص الأموال للإنفاق على القوات التي يعدها، وجمع عدد كبير من المقاتلين بمبلغ مقداره مائة ألف مقاتل [62].

تمكن الخليفة المستنصر بما تجمع لديه من مقاتلين ان يلحق الهزيمة بالقوات المغولية بالتوجه إلى سامراء في سنة 634هـ/1236 م،بعد معركة دارت بينهما بالقرب من تكريت [63] وجدد المغول محاولتهم في سنة 635هـ/1237م بالهجوم على سامراء، ونجحوا في إلحاق الهزيمة بالقوات العباسية، بعد ان كبدت بخسائر مادية وبشرية كبيرة، واضطرت البقية المتبقية منها بالعودة إلى بغداد كما انسحب المغول إلى معسكرهم إلى همذان محملين بما غنموا في هذه المعركة من أموال وسلاح ودواب [64]، توفي الخليفة المستنصر بالله في سنة 640هـ/1242م وخلفه ولده المستعصم بالله (640-656هـ/1242 -1258م).

تولى الخليفة المستعصم بالله الخلافة في دولة تحيط بها الأخطار من كل جانب [65]، وتعاني من ظروف داخلية سيئة لم تمر بها من قبل، وعلى مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فضلا الانقسام الطائفي والمذهبي بدأ في التفشي بين أبناء الشعب الواحد ومما زاد الأوضاع سوءا وأبقاها على ما هي عليه، عدم وجود رجل المرحلة، الذي لم تتوفر صفاته في شخص الخليفة المستعصم بالله، في وقت كانت الخلافة العباسية فيه تلتقط انفاسها الأخيرة [66]، فكان لين العريكة مستضعف الرأي وضعيف التدبير غير مهيب في النفوس

ففي عهده ضعف الجيش وتمزق الجند لعدم وجود النفقات الكافية لهم، فلم يعد بإمكان الخليفة المستعصم بالله دفع رواتبهم مما اضطرهم إلى ترك العراق متوجهين مصر وبلاد

الشام طلبا للعيش (67)، وعلى الرغم من تحذيرات الأمراء المتجاورين المتكررة للخليفة المستعصم بالله فانه كان يرد عليهم ((ان بغداد تكفيني ولا يستكثرونها علي إذ نزلت لهم على باقي البلاد)).(68)

لقد سلبت أراضي الخليفة جميعها من قبل المغول ولم يبق له سوى بغداد والمناطق القريبة منها لاسيما بعد ان احتلوا شمال العراق وشهرزور ودخولهم الموصل ودخول أمراء الشام في طاعتهم، ولم يقف المغول عند هذا الحد بل قرروا الاستيلاء على بغداد ذاتها فهاجموا ما بقي للخليفة من أراضي في سنة 643هـ/1245م وكرروا هجماتهم في سنة 647هـ/1249م، فوصلوا إلى أطراف بغداد ووصل مقاتليهم الى سوق الخيول في ظاهر المدينة (69).

2- الأوضاع الداخلية في بغداد قبيل الغزو المغولي (640هـ-656/1242-1258م).

كانت الأوضاع الداخلية السائدة في بغداد قبيل الغزو المغولي مضطربة إلى درجة كبيرة ويسودها الضعف والانحلال في مختلف جوانب الحياة سواء السياسية أم الاقتصادية أم الاجتماعية، مما اثر عليها وجعلها غير قادرة على التصدي للغزو المغولي الوحشي، ففي الجانب السياسي كان الخليفة المستعصم ضعيفا ولا يمتلك المؤهلات الكافية لقيادة الدولة في ظل الظروف الصعبة التي كانت تعيشها آنذاك (70).

كما انه لم يسع إلى توحيد الجبهة الإسلامية وجمع كلمة الأمراء المسلمين في المناطق المجاورة، من خلال مكانته الدينية ذات الأثر الكبير في نفوس المسلمين، مما جعل ألامة سهلة المنال أمام الغزو المغولي الذي ازداد خطره في عهده (71) والأمور التي اتصف بها العجز وضعف العزيمة ولين العريكة(72)ومما يدلك على ذلك انه لم يتخذ الاستعدادات اللازمة لمواجهة المغول على الرغم من وصول الأخبار إليه بشكل متواصل ودون انقطاع، كما انه لم يهادنهم او يصانعهم على اقل تقدير كما فعل أمراء المدن الذين شعروا بخطر المغول الذي قد يؤدي بمدنهم وحياتهم وحياة المسلمين.

كما وصفه بعض المؤرخين بعدم التدبير والتيقظ وقلة الهمة، محبا للمال ومتكل على الغير في إدارة الكثير من الأمور لذا فهو على عكس والده وجده الناصر لدين الله (73).

أما على الجانب الإداري والسياسة الداخلية فقد عجز عن اتخاذ أي إجراءات جدية لحل مشاكل البلاد وإصلاح أوضاعها المتردية، بل تزايدت المشاكل وتفاقمت بسبب سوء الحاشية ومحاباتها لفئة أو طائفة على حساب فئات أخرى من المجتمع (74).

ومما أدى إلى انتشار الفوضى بسبب التناصر والصراع بين أبناء الشعب الواحد، فكثر الفساد وازداد عدد اللصوص والسراق (75)، وتفكك المجتمع البغدادي في الوقت الذي كانت فيه القوات المغولية تتقدم لاحتلال مدينتهم، مما زاد من ضعف الخلافة أكثر مما هي عليه من ضعف سابق، وجعلها

توجه جل اهتمامها بالأوضاع الداخلية، ويقابله إهمال تام وعدم اتخاذ أي إجراء للخطر الذي بات وشيكا على أبواب بغداد (76).

ان سوء الأوضاع الداخلية يرجع الى سوء القيادة وعدم الإحساس بالمسؤولية، مما ولد انقساما دب بين قادة الجيش وكبار الإداريين من الأمراء والوزراء، إذ انقسموا إلى فريقين يسعى كل منهما إلى الإيقاع بالآخر من اجل تحقيق مصالحه الشخصية حتى وان كان ذلك على حساب الشعب والخلافة، ومثل الفريق الأول ابن الخليفة احمد والدويدار الكبير قائد الجيش العباسي، الذين تجاهلوا مسؤولياتهم تجاه الخلافة والشعب ودخلوا الصراعات الداخلية واخذوا بتغذيتها، مما اضعف الجيش وفرق الجبهة الداخلية، أما الفريق الآخر فقد مثله ابن العلقمي وزير الخليفة (77)، الذي لعب دور المخلص وكان يخفي وراء الكواليس جذور الحقد والخيانة من خلال اتفاقاته مع المغول التي كشف من خلالها لهم نقاط ضعف وقوة الخلافة وكان في مراسلاته تشجيع مستمر للمغول لاحتلال بغداد والقضاء على الخلافة العباسية (78).

لقد اخذ كل من الفريقين بتدبير المؤامرات للطرف الآخر وينم عليه عند الخليفة، الذي لم يكن قادرا على القضاء على تلك الانقسامات، مما أدى إلى اتساع الهوة بينهم وتأزم الخلافات والمشاكل التي لهل اثرها على الخلافة (79) التي لم تعد قادرة على الذب عن نفسها ومما يدلك على ذلك عدم اتخاذ الخليفة المستعصم لأي إجراء، إزاء المتآمرين على خلعه وتنصيب اكبر أبناءه أبو بكر احمد، بل استمر في عدم المبالاة، ومنح العفو للمتآمرين وأمر بذكر اسم ولده في الخطبة (80). ونتيجة لتلك الظروف والأوضاع السيئة أصبحت الخلافة في وضع لا تحسد عليه أبدا وهي تواجه أشرس هجمة، فالجيش العباسي لم يكن يحضى بالدعم المادي والمعنوي، فقد انعدم الإنفاق عليه من قبل الخليفة المستعصم، كما اتبع سياسة الخلفاء الذين سبقوه، من خلال اعتماده على النفير العام، وفتح باب التطوع لأبناء القبائل العربية، والاستعانة بالأمراء المسلمين في الأقاليم المجاورة في أوقات الضرورة وتعرض الخلافة للأخطار الخارجية فقط، أما في أوقات السلم وعدم وجود أي تهديد، فكان الخليفة يسرحهم إلى بلادهم وأهليهم (81). كما أكدت جميع المصادر التاريخية إلى الدور الخياني الذي قام به الوزير مؤيد الدين بن العلقمي،

الذي اضعف جيش الخلافة من خلال تسريحه لأعداد كبيرة من الجند العباسين، مدعيا أمام الخليفة انه يدافع عن الخلافة بالأموال بدلا من إنفاقها على الجيش، فعانى المقاتلين كثيرا مما اضطرهم إلى ترك صفوف الجيش للعمل في مهن أخرى من اجل كسب لقمة العيش. كما التحق آخرون بجيش هولاكو (82).

كما كان للأوضاع الاقتصادية المتردية من جراء الفوضى السياسية أولا، وما أصاب بغداد من أزمات وكوارث اقتصادية ثانيا بسبب الفيضانات المدمرة التي أتلفت المحاصيل بسبب طغيان المياه على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية، فضلا عن غرق وتدمير أعداد كبيرة من دور العامة (83). ومما زاد في تدهور الأوضاع الاقتصادية وتردي المستوى المعاشي للسكان كثرة أعداد النازحين إلى بغداد قادمين من المناطق التي وقعت تحت السيطرة المغولية حاملين معهم مشاكلهم ومعاناتهم، مما جعل بغداد في حالة دائمة من الفوضى والقلق التي أسهمت في إضعافها (84) فأصبح الوضع ملائما لهولاكو والفرصة مناسبة للانقضاض على بغداد واحتلالها وإنهاء الخلافة العباسية التي تمثل القوة والرمز الروحي والديني للمسلمين مما يسهل عليه إكمال مخططه في احتلال ما يتبقى من العالم الإسلامي، فأمر جيوشه بالتأهب للزحف إلى بغداد، واخذ بإرسال كتب التهديد والوعيد للخليفة من معسكره في همذان (85) لتبدأ أولى المراحل على الطريق لاحتلال بغداد سنة 656هـ/1258 م وهي مرحلة المراسلات بين هولاكو والخليفة المستعصم.

3- الزحف المغولي إلى بغداد

بعد العديد من المحاولات المغولية الاستطلاعية التي هاجمت أراضي الخلافة العباسية ووصلت أطراف بغداد، عقد الخان الأعظم منكو خان في سنة 649 هـ/1251 م اجتماعا موسعا حضره كبار الأمراء المغول، وتقرر فيه إعلان بدء الحملة العسكرية لاحتلال بغداد والقضاء على الخلافة العباسية التي تمثل القوة الدينية في العالم الإسلامي (86) كما تم تنصيب هولاكو في هذا الاجتماع قائدا عاما للجيوش المغولية المتوجه إلى العراق لما عرف به من صلابة وهيبة ولما له من رهبه في قلوب أعدائه (87).

عندما انتهى مانكوخان من مراسيم تعين هولاكو على رأس الحملة العسكرية المشؤومة، أمر باتخاذ جميع الإجراءات والتدابير اللازمة والاستعدادات الكفيلة بإنجاح حملته فضم إلى القوات المغولية التي يقودها هولاكو عددا كبيرا من المقاتلين، كما عين له عددا من الحراس الخاصين، فضلا عن إرساله معه عدد من الأسر المغولية وغير مغولية مختصة بصناعة

الأسلحة والمنجنيقات والأسهم، واسر أخرى مختصة بإصلاح آلات القتال، كما أرسل عدد من المرشدين أمام الحملة، لكي يسهل على هذه القوات السير عبر الطرقات والمناطق الخطرة دون أي عائق، فضلا عن قيامه بنشر العيون والجواسيس في البلاد التي اتجهت اليها القوات المغولية ومختصين ببناء الجسور على الأنهار العميقة التي تعيق تقدم قواته كي لا تتعرقل خطة سير الحملة، فضلا عن تأمين التموين الكافي للجيش المغولي (88).

أقيمت الاحتفالات إعلانا لبدء الحملة وتكريما لقائدها هولاكو، فقرر الخان الأعظم ان تكون البداية بإقليم قوهشات الجبلي الواقع بين هراة ونيسابور في بلاد فارس(89)، ومن ثمة تتجه نحو العراق ملزما هولاكو بقتل كل من يعترض تقدمه او يخالف إرادته في الخضوع وإعلان الطاعة للمغول، وبضمنهم الخليفة العباسي المستعصم بالله (90).

سارت القوات المغولية بقيادة هولاكو في سنه 651هـ/1253م متوجهة نحو الأقاليم التي قد تشكل في المستقبل خطورة على القوات المغولية، وكانت عملية التقدم تتم ببطء دون أي تسرع واستغرقت سنتين من قراقورم عاصمة المغول حتى كيش القريبة من سمر قند التي استقبل فيها هولاكو العديد من الملوك والأمراء المؤيدين له، وحضروا لإعلان طاعتهم وخضوعهم التام للحكم المغولي (91)، وبعد ان فرض هولاكو سيطرته على جميع البلاد والمناطق التي مر بها، قام بمهاجمة قلاع الإسماعيلية في بلاد فارس، واستولى على مركزهم قلعة الموت في سنه 654هـ/ 1256 م،ومن ثم توجه نحو همذان واستولى عليها واتخذ منها معسكرا مؤقتا لإعادة ترتيب قواته وتجهيزها بالمؤن والأسلحة الكافية التي تمكنها من مواصلة سيرها نحو بغداد عاصمة الخلافة(92)، متذرعا بعدم تقديم الخلافة للعون الذي طلبه منها أثناء عملية القضاء على الإسماعيلية (93).

4ـ المراسلات بين هولاكو والخليفة المستعصم بالله.

بعد أن أكمل هولاكو مهمته في القضاء على الإسماعيلية قضاءا مبرما عاد إلى همذان حيث معسكر جنده الذي أقامه فيها فلم يعد بينه وبين الخليفة في بغداد أي عائق فأرسل في شهر رجب سنة 656هـ/1257م الى الخليفة المستعصم بالله رسالة شديدة اللهجة مملوءة بعبارات التهديد والوعيد لامتناعه عن إرسال المدد والعون الذي طلبه منه أثناء حربه مع الإسماعيلية، وفحوى هذه الرسالة: ((لقد أرسلنا إليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحده وطلبنا ان تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة، فلم ترسل إلينا الجند والتمست العذر، ومهما تكن أسرتك عريقة وبيتك ذا مجد تليد....ولابد انه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حل بالعالم

والعالمين على يد الجيش المغولي منذ عهد جنكيز خان الى اليوم، والذل الذي لحق باسر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديالمة والاتابكة وغيرهم ممن كانوا ذوي عظمة وشوكة، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط في وجه أي طائفة من تلك الطوائف التي تولت هنا السيادة، فكيف يغلق هذا الباب في وجوهنا رغم مالنا من قدرة وسلطان وقد نصحناك قبل هذا، والآن تجنب الحقد والخصام والضغينة ولا تحاول ان تقف في سبيلنا لأنك تتعب نفسك[94]، ومع هذا فقد مضى ما مضى فعليك ان تهدم الحصون وتحطم الخنادق وتسلم ابنك المملكة ثم تتوجه لمقابلتنا، وان كنت لا تريد ذلك فأرسل إلينا الوزير وسليمان شاه والدويدار ليوصلوا رسالتنا إليك دون زيادة او نقصان، فإذا أطعت أمرنا فلا حقد ولا ضغينة ونبقى لك ولآتك وجيشك ورعيتك، واما اذا لم تطيع وسلكت طريق الخلاف والجدل...فسأتوجه مندفعا بصورة الغضب إلى بغداد، فانك لو كنت مختفيا في السماء أو في الأرض فسوف أنزلك من الفلك الدوار..ولن ادعك حيا في مملكتك وسأجعل مدينتك وإقليمك وأرضك طعمة للنار)) [95].

على ما يبدو ان الخليفة المستعصم كان يعتقد ان هولاكو لا يمتلك الجرأة الكافية على ان يقتحم داره ومقر خلافته دون موافقته لما له من مكانه دينية في قلوب المسلمين وكان اعتقاده هذا خاطئ وعليه ان يعتبر بما حل بالبلاد التي احتلوا من مجازر وتدمير واستباحة تامة، ويدرك انهم قوم يتصفون بالوحشية والهمجية ولا يتورعون عن القيام بأي عمل من اجل تحقيق أهدافهم ومطامعهم.

رد الخليفة المستعصم بالله على رسالة هولاكو برسالة تحمل جمل مملوءة بالتهديد والوعيد ذاته الذي أطلقه هولاكو، وجاء مضمون رسالة الخليفة بما يلي :((أيها الشاب الحدث، المتمني قصر العمر، والذي لم يخبر أيام العمر بعد، والذي أغرته إقبال الأيام، ومساعدة الظروف، فتخيل نفسه مسيطرا على العالم ولا يعلم الأمير ان من الشرق إلى الغرب ومن الملوك إلى الشاحذين، ومن الشيوخ إلى الشباب فمن يؤمنون بالله ويعملون بالدين كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي، إنني عندما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الأمور في إيران ثم أتوجه إلى بلاد توران واضع كل شخص في موضعه وعندئذ سيصبح وجه الأرض مملوءا بالقلق والاضطراب فان كنت مثلي تزرع بذور المحبة، فما شانك بخنادق رعيتي وحصونهم اسلك طريق الود وعد إلى خرسان، وان كنت تريد الحرب والقتال، فلا تتوان لحظة ولا تعتذر، فان لي ألوفا مؤلفة من الفرسان والرجال هم على أهبة الاستعداد للقتال)) [96].

وبهذه الرسالة يكون الخليفة المستعصم بالله قد اتخذ قراره الأخير وأعلن الحرب على هولاكو واستعد للمواجهة، وهذا ما اغضب هولاكو وجعله يرد عليه برسالة شديدة اللهجة قائلا



فيها ((ان الله الأزلي رفع جنكيز خان ومنحنا وجه الأرض كله من الشرق إلى الغرب، فكل من سار معنا وأطاعنا واستقام قلبه ولسانه تبقى أمواله ونساؤه وأبناءه ومن، يفكر في الخلاف والشقاق ولا يستمع بشيء من ذلك)) ثم عاتب الخليفة قائلا:(لقد فتك حب الجاه والمال والعجب والغرور بالدولة الغانية، بحيث لم يعد يؤثر فيك نصح الناصين بالخير، وان في أذنيك وقرا فلا تسمع لنصح المشفقين، ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك، وإذا فعليك ان تكون مستعدا للحرب والقتال، فاني متوجها إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد)) (97) .

لم يكن الخليفة من القوة والاستعداد ما يجعله متأهبا للقتال ومواجهة القوات المغولية، كما ان رسائله التي أرسلها لم تكن من مُطلق الاقتدار، ولكنه تدبير اتخذه عسى ان يخيف هولاكو ويجعله في حيره تقوده إلى التراجع عن مهاجمة بغداد والانسحاب إلى حيث أتى، ولكن بعد تأزم الموقف بينه وبين هولاكو أدرك مدى عزم هولاكو على الدخول إلى بغداد، جعله يتحرك للخروج من الأزمة التي تعصف به وببلاده فاستدعى أمراء الجيش والوزراء وكبار رجال الدولة للتشاور في كيفية معالجة الأمر،وطلب منهم الحل المناسب لذلك، وأثناء مناقشة هذه المشكلة وجد الخليفة نفســه امام تياران متضادان أولهما أمراء الجيش وقادته الذين قرروا التصدي للمغول ومقاومتهم بكل الوسائل المتاحة لديهم أما التيار الثاني فقد مثله الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي الذي أشار على الخليفة المستعصم بالله بالصلح مع هولاكو والتفاوض على الانسحاب عن المدينه من خلال استرضائه بالأموال والهدايا وتقديم الاعتذار والدخول في طاعته(98).

ألتزم الخليفة جانب التيار الداعي إلى الصلح والمهادنة وسمع مشورة وزيره ابن العلقمي وأرسل الهدايا البسيطة إلى هولاكو، ومعا تحذير من مغبة ما قد يحدث إذا ما أقدم على الهجوم، ومطلعا إياه على مصير الذين تعرضوا للخلافة بسوء ممن قد سبقه من الملوك.

رد الخليفة المستعصم بالله على رسالة هولاكو الأخيرة وفحواها ((لو غاب عنك الملك فله أن يسال المتطلعين على الأحوال اذ ان كل ملك قصد أسرة بني العباس ودار السلام ببغداد، كانت عاقبته وخيمة، ومهما قصدهم ذو السطوة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين فان بناء هذا البيت محكم للغاية، وسيبقى إلى يوم القيامة، وفي الأيام السالفة قصد يعقوب بن الليث الصفار الخليفة وتوجه بجيش إلى بغداد، فلم يبلغ مأربه إذا مات بعلة الزحار، والأمر كذلك مع أخيه عمرو، إذ قبض عليه إسماعيل الساماني، وكبله وأرسله الى بغداد لكي يجري عليه الخليفة، ما حكم به القضاء وجاء محمد خوارزمشاه بجيش عظيم قاصد استئصال هذه الأسرة فأبتلى في روابي (أسد جاد) بالثلج والعواصف، بسبب غضب الله عليه، وهلك أكثر جنده وعاد خائبا خاسرا، ثم لاقى ما لاقى من جدك جنكيز خان في جزيرة (ابسكون) فليس

من المصلحة ان يفكر الملك من قصد أسرة العباسيين،، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر)) (99).

عندما وصلت رسالة الخليفة إلى هولاكو غضب شديدا من جرائها، فكتب رسالة أرسلها إلى الخليفة، وقد صاغها بالتهديد والوعيد الشديد قائلا له ((اذهب واصنع من الحديد المدن والأسوار وارفع من الفولاذ الأبراج والهياكل واجمع جيشا من المردة والشياطين ثم تقدم نحوي للخصام والنزال فأنازلك ولكنت في السماء، وسأدفع بك غضبا إلى أفواه السباع)) (100).

وسار هولاكو بعد هذه الرسالة نحو بغداد وعندما اقترب منها،، شعر الخليفة بالرهبة وأرسل ابن الجوزي محملا إياه برسالة إلى هولاكو مملوءة بالوعيد والتهديد، ملمحا فيها إلى عودة هولاكو وانسحابه إلى بلاده مقابل قيام الخليفة بتسليم خزائن الخلافة له، مع كل ما يطلبه هولاكو من أموال وذهب، هذه الرسالة التي أرسلها الخليفة إلى هولاكو جعلت الأخير يتردد في الموافقة، إذ ظن ان الخليفة يريد من وراء ذلك كسب الوقت لإعداد الجيوش والانقضاض على القوات المغولية، فرفض طلب الخليفة بقوله :الذي كان مليء بالسخرية والتهكم بالخليفة ومكانته ((كيف نترك زيارة الخليفة بعد كل ما قطعناه من هذا الطريق، سوف نعود بإذنه بعد الحضور للقائه والتحدث معه)) (101).

وبذلك انتهت جولة المراسلات المتبادلة بين الطرفين، دون أي فائدة تحقق للخلافة، وان المستفيد الوحيد منها هو هولاكو الذي هدف من ورائها كسب الوقت لإعادة تنظيم قواته ومعرفة رد فعل الخليفة المستعصم بالله، فضلا عن إشغال الخلافة وجعلها تعيش في حالة من التوتر والحيرة في كيفية الخلاص من هذا المأزق.

5ـ الاحتلال المغولي لبغداد سنة 656 هـ/1258م.

في الوقت الذي كانت فيه المراسلات بين هولاكو والخليفة المستعصم بالله قائمة على قدم وساق، كانت هناك جهة أخرى، تمثلت بقادة كلا الجيشين تتبادل الرسائل والكتب، ويهدد كل منهما الآخر ويأمره ـ بالاستسلام فقد جرت مراسلات بين قائد جيش الخليفة ببغداد الأمير قرا سنقر وقائد جند المغول المدعو (جوق) الذي طلب من قرا سنقر أن يترك الخدمة في جيش الخلافة وينظم إلى جيوش هولاكو حفاظا على حياته الا ان قراسنقر رفض طلبه واعد ذلك اهانة، فرد عليه باسلوب التحدي له ولقائده هولاكو وللقوات ألمغوليه جميعها، ومعلنا له عن مدى فخره بكونه احد جند الخليفة العباسي، وما على جوق وملكه هولاكو الا ان يقدموا له الطاعة ويذعنوا له كي يقبل بالصلح والعفو عنهما (102).

وما ان علم هولاكو بتلك المرسلات بين قادة الجيوش، حتى ضحك لهذا الأمر وقال ((ان اعتمادي على الله إلا على الأعلى الدرهم والدينار، فإذا كان الله الأزلي مساعدا لي ومعينا لي فماذا أخشاه من الخليفة وجيشه)) (103) فزحف هولاكو نحو بغداد، ولا سيما انه لم يتلقى في أثناء تقدمه من همذان إلى الدينور ثم أسد اباد أي مقاومة تذكر لا من الشعب أو جيش الخلافة، للدفاع عن هذه الأراضي التابعة للخلافة، كما لم تهب قوات الأمراء المتحالفين مع العباسيين لنجدتها (104).

استطلع هولاكو رأي الفلكيين في ما يحدث، وهي عادة مألوفة لدى المغول يقومون بها يبدؤون بشن هجماتهم على الأقاليم والمدن المعادية لهم وحاول حسام الدين الفلكي احد علماء الفلك المسلمين ان يثنيه عن عزمه على مهاجمة بغداد، لما للخليفة مكانه في نفسه، فحذر هولاكو من عواقب ذلك قائلا له (ان كل ملك تجاسر حتى هذه اللحظة على معاداة ابناء العباس والتعرض لمدينة بغداد، زال عرشه وانتهت حياته) اما نصير الدين الطوسي العالم الفلكي المسلم فقد انضم إلى المغول وأطاع هولاكو الذي أصر على مهاجمة بغداد، والقضاء على بيت الخلافة، بل وشجعه على القيام بذلك مستبعدا حدوث أي شي مما يذكره حسام الدين من خلال قوله ((ان كثير من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ماتوا دفاعا عن الدين، ومع ذلك لم تقع كارثة من الكوارث، وان كثيرين من الناس خرجوا على بني العباس ولم يلحقهم اذى، وضرب بذلك مثلا بطاهر بن الحسين الذي قتل الخليفة الأمين)) (105).

بعد ان انتهى هولاكو استعداداته وأعاد مراجعة خطته المرسومة لاحتلال بغداد منذ إقامته في مدينة همذان، فضلا عن اطمئنانه على إمكانية الاستيلاء عليها بموجب الحصار الذي تقرر فرضه على بغداد من جميع جهاتها، سير قواته وجعل على رأس هذه الحملة قائده (باجو) لمهاجمة المدينة في سنة 656هـ/1258 م من جهتها الغربية، وسار هو على رأس قسم آخر من القوات لمحاصرتها من الجهة الشرقية، وكان بمعيته الكثير من أمراء المسلمين كأتابك شيراز أبي بكر سعيد زنكي وبدر الدين لؤلؤه اتابك الموصل، وزيره عطاء الملك الجويني صاحب كتاب جهان جشا، ونصير الدين الطوسي (106) كما انضم إليه سلاطين سلاجقة الروم عز الدين وركن الدين، فضلا عن ملك ارمينية الصغرى هيثوم الاول (623-669هـ/1226-1270م) (107) الذي أمده بفرقة من الخيالة الحقت الضرر بالمدينة (108)، حيث امعنت في تدمير الجوامع في بغداد، وكان ذلك بدفع من دوقوز خاتون زوجة هولاكو التي تدين بالمذهب النسطوري، فأمرت بالحفاظ على دور النصارى في الوقت الذي دمرت منازل المسلمين (109) كما حضر ملك جورجيا داؤود الخامس (634-667 هـ/1245- 1269م) إلى بلاد منكو خان وأرسل كتيبة

عسكرية لمساعدة المغول لاحتلال بغداد والقضاء على الخلافة العباسية [110] وكان ذلك باعتراف من أبناء دينهم والى ذلك أشار ابن العبري [111] قائلا ((يساعدهم خصوصا الكرج في تلك الملحمة الهائلة)) ولعبت هذه الكتيبة دورا كبيرا في دك أسوار بغداد، وارتكبت أبشع المجازر بحق سكان بغداد العزل من المسلمين بل أكدت بعض المصادر على ان عملية قتل الخليفة المستعصم بالله تم على أيدي قائد الكتيبة الجورجية المشاركة في تلك الحملة [112].

أمر هولاكو قائده باجو بالإسراع إلى عبور نهر دجلة ومهاجمة بغداد، ولما تمكنت قواته من عبور النهر هبت القوات العباسية للتصدي له ودار قتال بين الطرفين إلا ان الهزيمة لحقت بالقوات العباسية في محرم سنة 656هـ/1258م، فتمكن باجو وجنوده من فرض سيطرتهم على الجانب الغربي من بغداد وأحدثوا المذابح بسكانها ونزلوا في دورهم الواقعة على حافة النهر بعد ان اخضعوا تلك الأحياء بشكل كامل [113].

استغل هولاكو المقيم في معسكر بخانقين فرصة انشغال جيش الخلافة بالتصدي للقوات المغولية بقيادة باجو، فحرك قواته إلى بغداد، عسكر في جبهتها الشرقية، وتلقت قواته على حد تقدير ابن كثير [114] بما يقرب بمائتي ألف مقاتل، أما سكان الجهة الغربية من المدينة فقد نزحوا إلى الجهة الشرقية أيضا حيث كان هولاكو محاصرا إياها ففضلوا بذلك حصار هولاكو على تنكيل باجو وقواته، مما يدلك على عظم الكارثة التي وقعت في الجهة الغربية، وحجم المجازر التي ارتكبت بحق السكان العزل من النساء وأطفال وشيوخ، إذ القى الكثير من الناس بأنفسهم بنهر دجلة من اجل العبور والنجاة مما تسبب في غرق قسما منهم، فاستغل أصحاب القوارب والزوارق، هذه الفرصة واخذوا بنقل الناس مقابل اجر باهض وصلت بعضها إلى سوار من ذهب أو طرز من الزكش او عدد من الدنانير الذهبية [115].

وصل قسم من القوات المغولية التي يقودها هولاكو والبالغ عددها ثلاثين آلف مقاتل إلى الجهة الغربية فخرج قائد جيش الخلافة للتصدي له وكان بصحبته مقدم الجيش مجاهد الدين أبيك الدويدار مع عدد قليل من الرجال فدارت المعركة في الجانب الغربي من ألمدينه بالقرب من دور العامة، فكانت الغلبة في بادئ الأمر لجنود الخليفة المستعصم بالله، إلا ان القوات المغولية رتبت صفوفها واعادة الكرة، فأوقعوا بقوات الخلافة خسائر كبيرة مابين قتيل وجريح وأسير، ومما اعان القوات المغولية في تحقيق النصر، قيامها بفتح نهرا صغيرا طوال الليل، مما عرقل حركة القوات العباسية وأدى إلى هزيمتهم، ولم ينج منهم الا من ألقى بنفسه في الماء أو من فر إلى البرية ومضى إلى بلاد الشام دون عودة، بينما نجى الدويدار مع مجموعة من جنوده وانسحبوا إلى الجهة الشرقية من بغداد حيث مقر الخليفة [116].

سار باجو في اثر الدويدار ورجالة الفارين أمامه، أما المعركة في الجهة الشرقية من المدينة حيث معسكر هولاكو، فدارت بعد معركة الجهة الغربية اثر جو مشحون بالغبار غطى الجانب الشرقي من بغداد في 4 محرم /656 هـ/1258م، وما انتهت هذه الغبرة حتى وجد السكان ان قوات هولاكو قد أحاطت بأسوار المدينة من جهاتها الأربع، وفرضوا عليها حصارا شديدا بينما أخذت قوات الخلافة المرابطة في الجهة الخلفية لبغداد بالمقاومة والدفاع عن المدينة أمام هجمات المغول واستمرت بالصمود حتى 19 محرم 656هـ/1258م، ولم يشعر السكان الا وجنود المغول على أسوار المدينة رافعين الرايات على احد أبراج المدينة المسمى (برج العجمي) الواقع على طرف احد أبواب المدينة المسمى (باب كلوذاي)، حيث كان هذا البرج من اقصر أبراج بغداد فدخلوا المدينة من خلاله وعاثوا فيها خرابا وتدميرا وسلبا وقتلوا الكثير من الأهالي ومثلوا بهم (117).

عندما أدرك الخليفة المستعصم بالله عدم جدوى المقاومة وان دخول المغول إلى بغداد أمرا لا مفر منه قرر تسليم المدينة إلى هولاكو، فأرسل شرف الدين بن الجوزي إليه حاملا الهدايا الثمينة والأموال معلنا تسليم المدينة على ان يأمر هولاكو بإيقاف القتال، ولم تمض إلا عدة أيام حتى خدعه المغول بالوعود والأمان الكاذب الذي منحوه اياه (118) وكان ذلك بمساعدة وزيره مؤيد الدين بن العلقمي صاحب الدور الخياني الكبير في احتلال بغداد وقتل الخليفة (119) إذ تمكن ابن العلقمي من إقناع المستعصم بالله بالخروج إلى هولاكو من اجل المصالحة على ان يكون نصف الخراج له والنصف الآخر للخليفة، كما اخبر الخليفة بان هولاكو يرغب بتزويج ابنته من أبو بكر احمد الابن الأكبر للمستعصم بالله، ويبقيه في منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم في سلطنته ولا يريد الا ان تكون الطاعة له، مثلما كان أجداده مع السلاطين السلاجقة، ثم ينصرف عن الخلافة ويسحب جيوشه من بغداد (120).

وفي يوم الأحد الموافق 4صفر من ألسنه ذاتها خرج الخليفة إلى معسكر هولاكو للقائه وبمعيته أولاده الثلاثة فضلا عن سبعمائة راكب من كبار فقهاء وقضاة بغداد والصوفية والأمراء واعيان المدينة وعندما وصلوا إلى خيمة هولاكو حجب جميعهم عن الخليفة ولم يبق معه الا سبعة عشر شخصا، بينما انزل من تبقى منهم عن مراكبهم ونهبوها وقتلوهم جميعا دون أي رحمة، وعندما احضر الخليفة بين يدي هولاكو كان الاضطراب واضحا عليه، فخاطبه هولاكو قائلا: ((أنت المضيف ونحن الضيوف فاحضر ما يليق بنا)) (121).

ان الوضع الحرج والاضطراب الذي كان يعاني منه الخليفة جعله مرتبكا الى درجة انه لم يعد يعلم أين أخفى مفاتيح الخزائن ببغداد، فأمر بكسر عدة أقفال، فاحضر لهولاكو ألفي ثوب

وعشرة الآلف دينار وكمية كبيرة من الجواهر والنفائس، الا ان هولاكو لم يقنع بها لاستصغاره لها، فمنحها مباشرة إلى أمرائه ثم قال للخليفة المستعصم: ((ان الأموال التي تملكها على وجه الأرض ظاهره وهي ملك عبيدنا، ولكن اذكر ما تملكه من الدفائن، وما هي ؟وأين توجد؟ فأقر الخليفة بوجود حوض مليء بالذهب والجواهر في باحة القصر، فحفروا الأرض، فكان الحوض مملوء بالذهب الأحمر، المكنون من سبائك تزن الواحدة مئة مثقال، وقد أحصي نساء القصر فبلغن سبعمائة بين زوجة وسرية وخادمة (122).

طلب هولاكو من الخليفة المستعصم بالله ان يأمر السكان بإلقاء السلاح والخروج من المدينة، تحت ذريعة إجراء تعداد لهم، فأرسل الخليفة مناديا بين الناس يبلغهم بذلك، الا انهم لم يلبثوا أن لبوا النداء حتى انقض جنود هولاكو وأحدثوا فيهم المذابح، واتخذ هولاكو قصر المأمونية مقرا له وأمر جنده باستباحة المدينة فدخلوها وعاثوا فيها فسادا لمدة أسبوعا كاملا، وبلغ بهم الحال ان هدموا مساجدها من اجل الحصول على الذهب الموجود في قبائها، وجردوا قصور الأمراء وكبار الأعيان الأغنياء مـن كل ما هو ثمين من تحف ونفائس(123) كما اتلفوا عدد كبيرا من الكتب القديمة والنادرة الموجودة في مكاتب بغداد بين حرق وإلقاء في ماء نهر دجلة (124)، فضلا عن قتل الكثير من علمائها (125)، ولم يسلم من تدمير المغول حتى أشجار النخيل قاموا بقطعها ورمي قطعها بالمنجنيقات بسبب عدم توفر الحجارة، إذ كانوا يأتون بها من جبال حمرين (126) .

استمرت أعمال القتل والتخريب في بغداد على أيدي المغول أربعين يوما، قتلوا فيها السكان ونهبوا أموالهم، كما قتلوا أئمة المساجد وحملة القران، مما أدى إلى تعطيل المدارس والمساجد فيها، وأصبح من بقي من سكانها مشردا، وكانت جثث القتلى ملقات على الطرقات، مما أدى الى انتشار وباء الطاعون بينهم فحصد عدد كبير من الناجين من مذابح المغول (127).

أما الخليفة المستعصم بالله فقد أمر هولاكو بحبسه ولاقى ما لاقاه من المعاملة السيئة حتى تم قتله في الرابع عشر من صفر مع ولديه ابي بكر احمد وأبي الفضائل عبد الرحمن واسر أخواته الثلاثة فاطمة وخديجة ومريم(128) وقد اختلف المؤرخون في طريقة قتل الخليفة المستعصم بالله، فمنهم من قال انه قتل خنقا ومنهم من قال انه قتل غرقا بالماء حيث القي في نهر دجلة ومنهم من قال انه وضع في شوال كيس ورفع بالحبل حتى مات حتى لا يقع شيء من دمه على الأرض وهذه الطريقة هي الأرجح لأنها الطريقة المألوفة عند المغول في قتل الأمراء والملوك،كما اختلفت المصادر التاريخية في عدد من أزهقت أرواحهم على ايدي المغول الا أنهم

اجمعوا على انهم مابين ثمانمائة الف أو مليون وثمانمائة الف [129] باستثناء من غرق أو هرب إلى مصر وبلاد الشام [130].

في الحقيقة ان هذا العدد الكبير من القتلى مبالغ فيه، وهذا ما أكده الدكتور جعفر خصباك[131]، بعد أن دقق ومحص في الروايات التاريخية التي تحدثت عن مجازر المغول إذ أشار إلى أن المبالغة الكبيرة في هذا العدد واضحة جدا، إذا ما قورن عدد سكان بغداد بمساحة المدينة آنذاك والتي تشمل المنطقة المحصورة ما بين باب المعظم الحاليه والباب الشرقي من جهة وتمتد بعيدا عن النهر حتى مبنى متحف الأسلحة الحالي، وهي مساحة صغيرة نسبيا لا يمكن أن تتسع لملايين السكان، كما استدل على ذلك ان عدد كبير من أهل المدينة سلموا من القتال معتمدا على عودة الازدهار والنشاط إلى المدينة في فترة قصيرة، فضلا عن ان بغداد لم تكن في أواخر الدولة العباسية من المدن المزدحمة بالسكان، لنزوح قسما من السكان بسبب تهديدات المغول وخطرهم الداهم على أبواب المدينة من ناحية وسوء الأوضاع الاقتصادية من ناحية أخرى، ولعل تقديرات احد الكتاب المحدثين الذي أشار إليه الدكتور خصباك في كتابه بان عدد القتلى بلغ تسعين ألف هو التقدير الأقرب إلى الصحة.

أثار ونتائج الاحتلال المغولي لبغداد 656هـ/1258 م

ان القضاء على الخلافة العباسية، واحتلال عاصمتها بغداد بعد حكم دام قرابة الخمسة قرون، من الحوادث العظيمة عبر التاريخ، وكان له اثرا عميقا في قلوب المسلمين عموما، إذ عدوها ضربة قصمت ظهورهم، وانحدرت بدولتهم نحو الهاوية، لاسيما بعد ان أنهت حكم البيت العباسي الذي استقرت فيه خلافة المسلمين، وكان يمثل الرمز الديني والروحي لهم، لذا فان مثل هذا الحدث الجلل لابد أن تكون له نتائج وأثار سلبية على حياة المسلمين [132] يمكن إجمالها بما يلي:

1. لقد كان لنبأ الاحتلال المغولي لبغداد سنة 656هـ/1258 م وتدميرها تأثيرا مباشرا على العالم آنذاك واسيا تحديدا، حيث سر النصارى في جميع أنحائها، ومما عبر عن سرورهم وفرحهم انهم عدو هذا السقوط سقوط بابل الثانية، ورحبوا بدقوز خاتون زوجة هولاكو النصرانية ذات المذهب النسطوري، لما لها من دور كبير في تشجيع ومباركة هذه الحملة، فضلا عن تشجيع أبناء مذهبها، الذين كان لهم موقفا جليا ومشاركة فعالة منها سواء في عملية التفاوض او في مشاركتهم عسكريا، إذ اشتركت في احتلال بغداد كتيبتان احدهما من الأرمن والأخرى من الجورجيين، الذين دكوا أسوار بغداد، بل وأشار بعض المؤرخين إلى أن مقتل الخليفة المستعصم بالله كان على أيديهم [133].

2- أدى سقوط بغداد إلى ازدياد الأشجان والحزن والرعب الشديد في نفوس جميع المسلمين في مختلف بقاع العالم، لان هذا الحادث ليس حدثا بسيطا أو أزمة عابرة يمكن تخطيها ومعالجتها بل عدها كارثة بالنسبة لهم ومثل قضية المسلمين جميعا وبدأوا يحسبون لهذا الخطر الذي يهددهم حسابه لاسيما بعد أن احتلت عاصمتهم التي كانت تمثل رمزا للوحدة الإسلامية التي تلف حولها جميع أجزاء العالم الإسلامي (134).

3- ان قتل الخليفة المستعصم واستئصال البيت العباسي الذي قتل منه من قتل وفر من بقي خشية " من بطش المغول، جعل هذا المنصب المهم الذي يمثل المسلمين جميعا فارغا لا يشغله أحدا مما جعل كل مسلم طموح يتطلع لتوليه، فعندما قامت الدولة المملوكية الأولى في مصر سعى سلاطينها إلى البحث عن احد أبناء البيت العباسي وتنصيبه خليفة للمسلمين، وهذا ما قام به السلطان بيبرس عندما نصب احد أفراد البيت العباسي خليفة في سنة 659 هـ/1260م(135)، بل وسعى حكام الأقاليم الإسلامية الأخرى إلى نفس الهدف، من اجل جعل مدينته عاصمة للدولة العربية الإسلامية (136)، الا ان الأمر استقر في النهاية إلى أن أصبحت القاهرة، مركز للخلافة العباسية، وبذلك أصبحت حاضرة للعالم الإسلامي انتقل إليها النشاط السياسي والاقتصادي والثقافي، وبقيت القاهرة عاصمة للخلافة العباسية حتى سنة 923 هـ/1517 م حيث قامت الدولة العثمانية التي أنهت الخلافة العباسية ونقلتها إلى سلاطينها (137).

4- كانت نظرة المسلمين إلى الخلافة مقدسة لأنها تمثل جميع الممالك والإمارات الإسلامية، ولذلك فيجب أن تبقى دون زوال، فعلى الرغم من الضعف الذي لحق بها في حقب التسلط الأجنبي ابتدءا بالأتراك وانتهاء بالسلاجقة، إلا أنها ظلت تحتفظ بالسلطة الدينية والروحية التي تمارسها على جميع المسلمين، وبما ان بغداد كانت تمثل عاصمة للخلافة، فان ذلك اكسبها مكانة دينية لم تلبث ان زالت بزوال الخلافة التي قضي على نفوذها بيد المغول.

5 - تحولت بغداد بعد الاحتلال المغولي لها في سنة 656هـ /1258 م إلى مدينة ثانوية يعين عليها الولاة، بعد أن كانت عاصمة للخلافة وتتمتع بنشاط سياسي ومركزية تربط بين جميع أنحاء العالم الإسلامي، إذ انتقل النشاط على مختلف الأصعدة إلى القاهرة ومدن أخرى أخذت تقوم بدور العواصم (138).

6- كما ان بغداد كانت تمثل مركز إشعاع حضاري وحاضرة حاضنة للآداب والعلوم، يفد إليها العلماء وطلاب العلم من مختلف اصقاع العالم المسلمين منهم وغير المسلمين، من اجل التزود بالعلوم والمعارف على ايدي الشيوخ والعلماء في مختلف المجالات العلمية من طب وكيمياء ورياضيات وغيرها، وبعد الاحتلال المغولي الذي أودى بحياة الكثير من

هؤلاء العلماء وشرد من بقي منهم، كما دمرت المساجد والمدارس وأحرقت المكتبات التي حوت على نفائس الكتب التي أفنى فيها علماء المسلمين حياتهم، مما أدى إلى ركود الحياة العلمية في هذه المدينة العريقة (139).

الهوامش:

1- الهمذاني /جامع التواريخ 2/مج 212
2- القصاب /مغول القفجاق وعلاقاتهم السياسية بالمماليك
3- هوخام /تاريخ الصين ص219
4- عمر /الخلافة العباسية ص119
5- القزاز /الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص6
6- السرجاني /الموسوعة الميسرة 5/2
7- الهمذاني /جامع التواريخ مج 2 /212؛الصياد/المغول 20/1
8- الإقبال /تاريخ المغول ص47-48؛العزاوي /تاريخ العراق بين احتلالين 48-1
9- الساداتي /تاريخ الدول ص85
10- الصياد /المغول 30/1؛ألعريني /المغول ص11
11- *وهي لفظة مغولية معناها الصحراء الجدباء الخاوية ينظر:القزاز /الحياة السياسية ص4
12- الصياد /المغول 30/1-31
13- العزاوي /تاريخ العراق 51/1
14- زيدان /تاريخ التمدن الإسلامي 239/4
15- القزاز /الحياة السياسية ص4
16- القزاز /الحياة السياسية ص5
17- القزاز /الحياة السياسية ص5
18- القزاز /الحياة السياسية في العراق ص14-15
19- الصياد /المغول 9/1
20- حمدي /الدولة الخوارزمية ص111؛حسن الامين/الغزو المغولي ص29-30
21- القزاز /الحياة السياسية ص14-15
22- اليوسف /العلاقات بين الشرق والغرب ص191؛العريني /المغول ص54
23- القزاز /الحياة السياسية ص 15

24- الهمذاني /جامع التواريخ مج 2ج234/1

25- العريني/ المغول ص55

26- هوخام /تاريخ الصين ص221

27- ألعريني /المغول ص64-65

28- الصياد /المغول 53/1؛ألعريني /المغول ص66

29- هوخام /تاريخ الصين ص221

30- حمدي /الدولة الخوارزمية ص113

31- بارتولد/تركستان ص694

32- ابن الأثير /الكامل 680/9؛الذهب /العبر 3/ 168

33- عمر /الخلافة العباسية ص119

34- رشاد/ الرعب الذي أحدثه الغزو المغولي ص8

35- *هي منطقة المحصورة بين نهر جيحون وبحر قزوين وعاصمتها الجرجانية

36- الذهبي /العبر ج3 ص141؛الصياد /المغول ح1 ص63-67

37- النسوي /سيرة السلطان جلال الدين ص85

38- ينظر:النسوي /سيرة جلال الدين ص85 للاطلاع على نص الرسالة

39-الغساني /العسجد المسبوك 370/2

40- القصاب /مغول القفجاق ص23-24

41- *حاكم مدينة اترار وخال السلطان خوارزمشاه

42- ينظر:النسوي/سيرة السلطان جلال الدين ص87- 88؛ابن الاثير /الكامل 684/9

43- القصاب/مغول القفجاق ص24

44- القزاز /الحياة السياسية ص30

45- ابن الأثير /الكامل 683/9

46- القزاز /الحياة السياسية ص31

47- ابن الوردي /تتمة المختصر 138/2-139

48- حمدي /الدولة الخوارزمية ص130

49- القزاز /الحياة السياسية ص74

50- القزاز /الحياة السياسية في العصر العباسي الاخير ص300-301
51- الغساني /العسجد المسبوك 447/2
52- القزاز /الحياة السياسية ص101
53-سلطان/التاريخ الإسلامي 267/2
54- القزاز /الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص60/52
55- حمدي /الدولة الخوارزمية ص108؛خصباك /العراق في عهد المغول ص112
56- ابن الأثير /الكامل 695/9
57- خصباك /العراق في عهد المغول ص15
58-النسوي /سيرة السلطان جلال الدين ص31
59- خصباك /العراق في عهد المغول ص15؛الصياد/المغول 331/1
60- ابن الأثير /الكامل 797/9
61- الهمذاني /تاريخ ص83
62- ابن البوطي/الحوادث الجامعة ص84-85
63- المقريزي /السلوك ج1ق1 386
64- ألساعدي /أسرار سقوط الخلافة ص84
65- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص429
66- خصباك/العراق في عهد المغول ص16
67- السيوطي/تاريخ الخلفاء ص487
68- اليونيني/ذيل مرآة الزمان 87/1
69- ابن البوطي/الحوادث الجامعة ص199
70- ألساعدي /مؤيد الدين ابن العلقمي ص60-61
71- ابن الكازروني/مختصر التاريخ ص268
72- السيوطي /تاريخ الخلفاء ص428
73- ألساعدي /مؤيد الدين ابن العلقمي ص62
74- السامرائي /تاريخ الدول العربية ص360
75-ابن البوطي /الحوادث الجامعة

76- رشاد/احتلال المغول لبغداد ع6/1

77- الهمذاني /جامع التاريخ مج3 ج264/1

78- اليونيني /ذيل مرآة الزمان مج 1ج87/1

79- الصياد/المغول 254/1

80- ألعريني /المغول ص214

81- القزاز/الحياة السياسية في العصر العباسي الأخير ص310

82- ابن الكازروني/مختصر التاريخ ص270

83- عمر /الخلافة العباسية ص125

84- القزاز /الحياة السياسية ص309

85- السامرائي /تاريخ الدول العربية ص362

86- الهمذاني /جامع التواريخ مج236/1/2

87- خصباك /العراق في عهد المغول ص45

88- السامرائي /الخلافة العباسية ص361

89- صالح /الأوضاع الاقتصادية ص193

90- الهمذاني /جامع التواريخ مج239/1/2

91- صالح /الأوضاع الاقتصادية 493

92- السامرائي /تاريخ الدول العربية ص364

93- الصياد/المغول 255/1

94- الهمذاني /جامع التواريخ مج2ج1 ص276؛الصياد /المغول 256/1

95- الهمذاني /جامع التواريخ مج2 268/1؛الصياد /المغول 256/1

96- الهمذاني /جامع التواريخ مج2 269/1؛الصياد /المغول 256/1-127

97- القزاز /الحياة السياسية في العصر العباسي الأخير ص418

98- الهمذاني /جامع التواريخ مج2 272/1 -276

99- الهمذاني /جامع التواريخ مج2 1/؛ 276المشهداني /في محكمة التاريخ ص80

100- التكريتي /بغداد مدينة السلام وغزو المغول ص218

101- الهمذاني /جامع التواريخ مج2 282/1

102- التكريتي /بغداد مدينة السلام ص219

103- الهمذاني /جامع التواريخ مج2 284/1

104- الهمذاني /جامع التواريخ مج2 284/1

105- حسن /تاريخ الإسلام 149/4

106- ابن كثير /البداية والنهاية 13 /171؛اليونيني /ذيل مرآة الزمان 87/1

107- الأمين /الغزو المغولي ص109-110

108- كون/القافلة قصة الشرق الأوسط ص201

109- الدومنيكي /الآثار المسيحية بالموصل ص59

110-اليونيني /ذيل مرآة الزمان 87/1

111-تاريخ الزمان ص308

112- J.A. BOYlE، The mongl world Empire 1206-1370 (London:1977)، p.149

113- اليونيني /مرآة الزمان ص88-89

114- البداية والنهاية 171/13

115- ابن [illegible] /الفخري في الآداب السلطانية ص296- 297

116- حسن /تاريخ الإسلام 151/4

117- ابن [illegible] /الفخري 297

118- حسن /تاريخ الإسلام 152/4

119- ابن خلدون /العبر 3 /536؛السيوطي تاريخ الخلفاء ص 429

120- الغساني /العسجد المسبوك 630/1

121- ابن كثير /البداية والنهاية 172/13

122- الهمذاني /جامع التواريخ مج2 291/1

123- حسن /تاريخ الإسلام 152/4

124- ابن [illegible] /الفخري ص297

125- حسن /تاريخ الإسلام 4م152؛الخربوطلي /الإسلام والخلافة ص138

126- ابن كثير /البداية والنهاية /172/13

127-ابن البوطي /الحوادث الجامعة ص330

128- خصباك /العراق في عهد المغول ص55



129- ابن كثير /البداية والنهاية ج13 ص172 ؛ الغساني /العسجد المسبوك ج1 ص631

130- حسن /تاريخ الإسلام ج4 ص153.

131- خصباك /العراق ص56

132-للتفاصيل انظر:الصياد /المغول ص282/1

133- رنسيمان /تاريخ الحروب الصليبية 3/521-524

134- الصياد /المغول 283/1

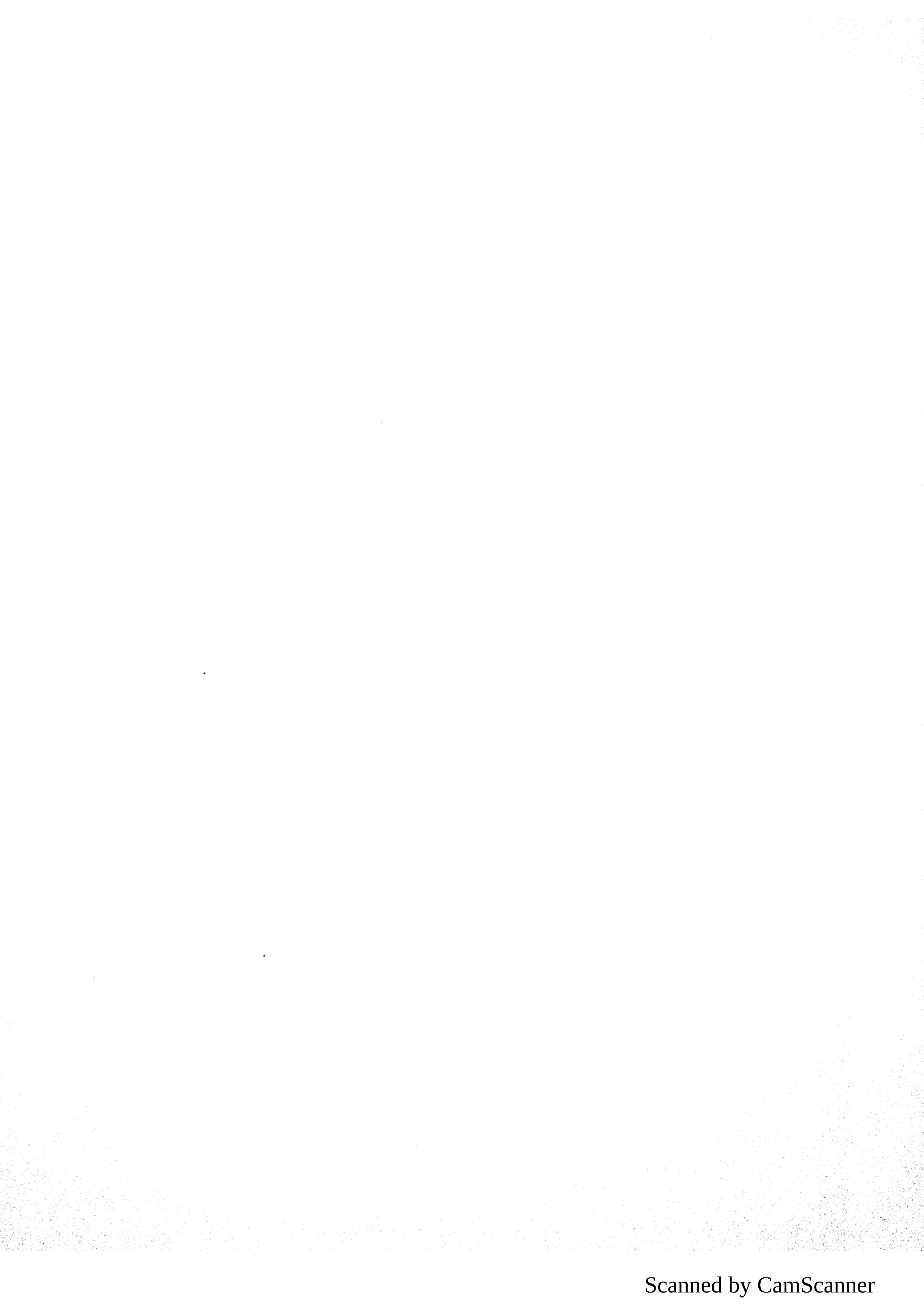
135- رنسيمان/تاريخ الحروب الصليبية 587/3

136- اليوسف /علاقات بين الشرق والغرب ص210

137- رنسيمان/تاريخ الحروب الصليبية 522/3

138- رنسيمان /تاريخ الحروب 522/3

139- الصياد /المغول 1 /280



6

الفصل السادس

معركة عين جالوت

(أسبابها ونتائجها وآثارها)





بعد استكمال احتلال العراق من قبل هولاكو، وبعد أن تم القضاء على العناصر التي تمردت على المغول في بعض مناطق العراق (تمرد أربيل) (وتمرد الموصل)، وبعد أن تم القضاء على هذين المتمردين بقسوة متناهية ورغم دفاع الأكراد وأهل الموصل المستميت إلا إن كلا المدينتين قد تعرضت للتدمير على يد المغول.

توجه المغول إلى بلاد الجزيرة الفراتية واحتلوا مدنها الواحدة تلو الأخرى، وقد عاونهم في ذلك ملك أرمينية هيثوم وملك أنطاكية صهر هيثوم وبارك بطريك الأرمن هذا الاتفاق، وشارك الأرمن والإفرنج المغول بكل ما يملكوا من قوة وقدرة وطاقة، بعد أن وعدهم المغول بان يعيدوا إليهم بيت المقدس وما يمكن أن يرجعه إليهم المغول جزاء ذلك التعاون، ولم يكن في الشام قدرة على مواجهة المغول لتفتت الجبهة الداخلية والانهيار النفسي الذي أحدثه انتصار المغول على كل من وقف بوجههم فسقطت ميافارقين وديار بكر وحلب وحمص وغيرها من القلاع والحصون في بلاد الشام، وقد لاقت كل المدن التي وقعت بيد المغول نفس المصير، من قتل واسر وتدمير وحرق، سواء المدن التي استسلمت صلحا أو احتلت عنوة،وما جرى في حلب أو دمشق أو ديار بكر لا يختلف عما لاقته مدينة بخارى أو بغداد أو سمرقند أو الري أو نيسابور[1]، وبعد السيطرة على بلاد الشام قرر هولاكو مهاجمة فلسطين وبلاد مصر، وقد كتب رسالة شديدة اللهجة إلى الملك المظفر قطز جاء فيها ((...يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته ...ان نحن جند الله في أرضه،خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، واسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا، ويعود أليكم الخطأ فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكا، وقد سمعتم إننا قد فتحنا البلاد،وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأي ارض تأويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم))[2].

بعد وصول هذه الرسالة إلى الملك المظفر قطز، جمع قادة الجيش وسائر الأمراء، وأستجلى أرائهم فقسم أراد الاستلام وقسم فضل الهرب، أما القسم الأقل فقد أصر على المواجهة وضرورة حرب المغول، وان أهل مصر قد قدموا المماليك كل شيء فعلى المماليك أن يردوا جميل المصريين والمسلمين الذين هم جزء منهم ويقفوا بوجه المغول وقفة مشرفة يذكرها التاريخ على مر العصور، وقام قطز يطلب أراء الفقهاء والعلماء ودعا المماليك إلى التبرع وبدأ بنفسه، وطلب معونة الناس في التبرع بما يمكن أن يقدموه لدعم الجيش المصري، فلما تكاملت لديه الجيوش

سار عن مصر مفضلا لقاء العدو خارج ارض مصر، منطلقا من قول الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه :((ماغزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا))،كما قام بقتل رسل هولاكو قطعا لأي أمل في الصلح، وعلقوا على أبواب القاهرة (3).

أما في منغوليا فقد مات منكوخان واضطر هولاكو إلى الرجوع إلى منغوليا لانتخاب خان جديد، وعهد بقيادة الجيش المغولي إلى كتبغا الذي تقدم لملاقاة الجيش المصري، وكان قطز قد هيأ كل مستلزمات النصر، من محاولة استطلاع خطط المغول وتعبئتهم العسكرية وهذا ما لم يتم من قبل، اذ اكتفى الحكام بالتحصن وراء الأسوار وتحصينها وهذا هو الخطأ الذي أوقعوا أنفسهم فيه، حيث حصروا أنفسهم، والمغول لديهم القدرة على المطاولة في الحصار،فلم تصعب عليهم الإسماعيلية التي عجزت أقوى الدول في ذلك الوقت من دك أسوارها .

معركة عين جالوت:

تعد معركة عين جالوت من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي وظلت تذكرها الأجيال على مر العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها

أسباب المعركة :

1- كان للتحدي المغولي ومحاولة احتلال بلاد الشام ومصر سببا مباشرا لحدوث هذه المعركة .

2- رسالة التهديد التي أرسلها هولاكو إلى السلطان المظفر قطز .

3- حدوث تعاون بعض الإمارات الارمنية والصليبية مع المغول مما كان له اثر مباشر ومهم لقيام تحد من نوع آخر،خوفا من استفحال أمره، أو حدوث تحالفات أخرى قد تنهي الوجود السياسي الإسلامي في المنطقة .

4- قطع الطريق أمام المتخاذلين من قادة الجيش المصري، ووضعهم في المكان الصحيح لهم وهو القتال الذي وجدوا من اجله، وهو الدفاع عن ديار الإسلام .

5- وضع حد بعمل عسكري كبير،ضد المغول لكي يوقفهم عند حدهم، بعد أن اعتقدوا إن قوتهم لاتقهر، وأنهم غضب من الله مسلط على الناس وخاصة المسلمين، الذين عليهم بقبول هذا الواقع المر .

6 - إظهار دعوة الجهاد لدى المسلمين بعد أن خفت بهاؤها منذ زمن طويل،ووضع المسلمين أمام واجبهم، وجعل الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة، فكيف يرضى المسلمون بالمهانة والمذلة وأسباب النصر موجودة والقيادة موجودة والمال للجهاد مبذول.

7- صعب على بعض قادة الجيش المملوكي رؤية مصر خاضعة للمغول الكفرة .

أدرك قطز انه الوقت المناسب لضرب المغول، بعد رحيل هولاكو إلى منغوليا، وانفضاض عرى التحالف الصليبي المغولي في الشام، بعد قيام المغول بتدمير ونهب وحرق مدينة صيدا وقتل كل من وجدوه من الصليبيين فيها وساقوا من نجا من القتل أسرى، ليجعلوهم دروع بشرية أمام الجيش المصري، لتقع عليهم الصدمة الأولى في القتال .

توجه الجيش المصري إلى بلاد الشام وفي الطريق نكص عدد من قادة المماليك، فجمعهم السلطان قطز وخطب فيهم خطبة مؤثرة، وضعتهم أمام واجبهم وأمام مسؤولياتهم أمام الناس وأمام الله (يا أمراء المسلمين ... لكم زمان تأكلون من بيت المال، وانتم للغزاة كارهون وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني ومن لم يختر ذلك، يرجع إلى بيته، فان الله مطلع عليه وخطب حريم المسلمين في رقاب المتأخرين))(4).

وقد سار الجيش المصري مع الساحل بعد ان تم الاتفاق مع الإمارات الصليبية بعدم التعرض للجيش المصري، وتزويده بالمؤن والمواد الأخرى، وبهذا ضمن السلطان قطز مسيرة جيشه في منطقة أمينة من مباغتة المغول، مع تمتعهم بالأمن في هذه المنطقة وعدم سلوكهم طريق الصحراء (5).

نظم السلطان قطز جيشه وقسمه تقسيم يدل على خبرة عسكرية متميزة وجعل على مقدمته بيبرس البندقداري، وأمره بعدم القيام بأي عمل عسكري دون اخذ رأيه ودون مشورته، لان النتيجة قد تكون عكسية على معنويات الجيش المصري، وربما تؤدي به إلى الانهيار النفسي الذي يحدث قبل وقوع المعركة الرئيسية مع المغول، مثلما حدث مع كل الجيوش التي حاربت المغول من قبل .

تقدم بيبرس البندقداري باتجاه مدينة غزة التي كان قد احتلها القائد المغولي (بايدر)، واشتبك مع الجيش المغولي وهزمه شر هزيمة، حتى اضطره إلى الالتجاء إلى نهر العاصي شمال الشام، وقد أفاد بيبرس البندقداري من موقف القوات الصليبية التي لم تثق بالمغول، لما فعلوه في صيدا من نهب وقتل وتدمير (6).

لقد جن جنون القائد المغولي كتبغا، وصار قطعة من اللهب بسبب الغيرة والغضب، وتقدم يقود قواته بعد سماعه بهزيمة بايدر، وعقد مجلسا استشاريا لكبار القادة المغول، فأشار البعض منهم إلى عدم لقاء الجيش المصري، وان عليهم الانتظار حتى يأتيهم المدد من

هولاكو،لكن كتبغا رفض هذا الرأي واندفع تسوقه كبرياؤه، وقوة المغول التي لم تقهر من قبل(7)، فاتخذ طريق بعلبك سالكا طريق الجليل -وادي الأردن، إلا انه فوجئ بثورة أهل دمشق عليه فعاد لإخمادها مما أخر تقدمه إلى عين جالوت(8).

أما السلطان قطز، فلم يدع فرصة إلى واستخدمها لصالح النصر على المغول، فكتب إلى كل الأمراء المتعاطفين مع المغول مكرهين أو مختارين، ودعاهم للانضمام إلى الجبهة الإسلامية، أو على الأقل الانسحاب من ساحة المعركة في أحرج الظروف أو تقديم العون العسكري والأستخباري للجيش المصري، عن تحركات المغول، واستعداداتهم العسكرية وخططهم إن كان ذلك ممكنا، وقد قدم له البعض من أمراء الشام ما طلبه منهم، انطلاقا من مبدأ الأخوة الإسلامية والنصح للمسلمين (9).

توجه السلطان قطز إلى غور الأردن، جاعلا على مقدمته الأمير بيبرس البندقداري، حيث اشتبك مع مقدمة الجيش المغولي، وكان السلطان قطز قد اعد الخطة لإجبار المغول على القتال فيها، كما كان دائما يحث جنوده على نصرة دين الله، وعليهم بالقتال حتى لا يحل بهم ما حل بالبلاد الإسلامية التي لم تقاتل المغول، وما أصابها من مصائب وويلات جراء التقاعس عن حرب المغول(10).

اشتبك بيبرس البندقداري مع مقدمة المغول وكتب إلى الملك المظفر قطز يعلمه بأنه اشتبك مع المغول، وعليه أن يسرع للحاق به وتطبيق الخطة الموضوعة وهي الانهزام أمام المغول في بداية المعركة ، حتى يلحق بهم المغول، ليقعوا بعد ذلك في الكمائن التي أعدت لهم، وهذا ما تم فعلا،ففي بداية المعركة انهزمت المقدمة المصرية، فلحقها المغول وكانت تحيط بالمنطقة من بعض الاتجاهات، واندفع كتبغا بكل قواته لإحداث الصدمة بالجيش المصري، ولحاق المنهزمين، فخرجت عليه الكمائن وأحاطت به من جميع الجهات، وكان السلطان قطز مع جنده يحثهم ويشجعهم ويمنيهم، حتى تم النصر بعون الله تعالى، وقد أبيد الجيش المغولي والقوات الارمنية المتحالفة معه، وكان هذا اليوم وهو الخامس عشر من رمضان من سنة 658هـ/3ايلول 1260م.ولحقت القوات المصرية بالمنهزمين من المغول، ومن أعانهم على المسلمين وقد وقع قائد الجيش المغولي أسيرا في ساحة المعركة (11) ثم اعدم بعد ذلك.

نتائج معركة عين جالوت وأثارها على الوضع العام:

كانت لهذه المعركة العظيمة، واسمحوا لي أن اسميها عظيمة فهي عظيمة في مدلولها ووقائعها وأثارها على عموم المنطقة ويمكن أن نجمل نتائجها وأثارها بما يعيننا الله عليه، فنقول ومن الله التوفيق :

1- أعادة هذه المعركة الثقة إلى نفوس المسلمين فرغم أن المغول قد جمعوا قواتهم مرة ثانية قرب بيسان، إلا ان الهزيمة حلت بهم مرة ثانية وشجعت الخائفين الذين كانوا مترددين أو خائفين من المغول على التمرد عليهم، كما حطمت الأسطورة القديمة بأن جيش المغول لا يقهر [12].

2- قام السلطان قطز بإرسال البشارة إلى أهالي دمشق بالنصر على المغول، فهرب من كان بها من مغول وتعقبهم الناس وقتلوهم شر قتلة وقام السلطان قطز وسكان دمشق بقتل كل من وقف إلى جانب المغول أعداء الإنسانية ولقنوا من تعاون معهم من أهل الشام عامة ودمشق خاصة ما يستحقونه من عقاب الخيانة، ومعاونة الأعداء المغول [13].

3- أكدت هذه المعركة قوة وقدرة المسلمين إذا ما توحدوا ورفعوا شعار لا اله إلا الله محمد رسول الله، وكلما ازداد إيمان المسلم بالله واخذ بالأسباب نصره الله نصرا مؤزرا [14].

4- شكلت هذه المعركة سدا منيعا أمام المغول للتقدم غربا صوب مصر، وبذلك نجت الديار المصرية والأراضي الواقعة خلفاء من الدمار والتخريب، وهي تعد صدمة عنيفة للمغول، وذلك لقتل خيرة قوادهم في هذه المعركة، بحيث أصبح المغول يحسبون ألف حساب قبل القدوم على خطوة أخرى لغزو مصر أو بلاد الشام [15].

5- جاءت هذه المعركة بنتيجة عكسية، فلو انتصر المغول لقضي على البقية الباقية من دول الإسلام في الشام ومصر، ولتحالفت القوى المعادية للإسلام مع المغول يقول، رنسيمان: ((ما أحرزه المماليك من انتصار أنقذ الإسلام من اخطر تهديد تعرض له، فلو أن المغول توغلوا إلى داخل مصر لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة، شرقي بلاد المغرب)) [16].

6- أعادت هذه المعركة الوحدة إلى بلاد الشام ومصر وعادت هذه البلاد إلى عصر نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، وأزالت نتائج هذه المعركة كل المتعاونين من بقايا البيت الأيوبي من الذين كانت تهمهم مصالحهم الخاصة أكثر من مصالح المسلمين [17].

7- علمت هذه المعركة المسلمين أهمية التآزر ولم الشمل، ولم تقف نتائج هذه المعركة على المسلمين بل تعدتها إلى أوربا، واعترف المؤرخون الأوربيون بأهميتها قبل غيرهم، حيث



وقفت هذه المعركة بوجه المغول، ومنعتهم من غزو أوربا وتدميرها وبذلك نجت أوربا من الدمار الذي أصاب العالم الإسلامي بفضل المسلمين [18].

8- بعثت هذه المعركة الهمة في نفوس المسلمين في خرسان التي كانت خاضعة للحكم المغولي المباشر، فقوي مركزهم، واخذوا ينافسون من وقف مع المغول ويزيحوهم عن أماكنهم وصاروا يشرحون للمغول تعاليم الإسلام حتى تحولوا أليه [19].

9- توطدت العلاقات بين مسلمي القبجاق (مغول القبيلة الذهبية) وبين مماليك مصر، وتحالفوا ضد مغول العراق وإيران بزعامة هولاكو وحلفاؤه [20].

10- أسفرت هذه المعركة عن فشل ذريع لسياسة الصليبيين في بلاد الشام، ومنحت قوة لمصر في زعامة العالم الإسلامي، وتحرير بلاد الشام من بقايا الصليبيين فيه [21].

11- تجنبت مصر بهذه المعركة التدمير والخراب والنهب والسلب والتأخر الذي أصاب بقية البلاد التي سيطر عليها المغول، مما جعلها تحمل مشعل الحضارة فترة أخرى من الزمن، وتكون ملجأ للمسلمين في الشرق والغرب . وختاما عدت هذه المعركة من أهم المعارك، وهي لاتقل في أهميتها عن المعارك المصيرية الكبرى فحري بنا أن نتلمس منها الدروس .

12- أعطت هذه المعركة لكيان المماليك السياسي الشرعية في حكم البلاد الواقعة تحت سيطرتهم بحيث أصبح المماليك هم المدافعين عن الإسلام وأهله كما نقل المماليك الخلافة العباسية إلى مصر وأصبحوا في نظر الناس هم حماة الدين الإسلامي والذين ينفذون سياسة الخليفة العباسي في العالم الإسلامي [22].

13- وضعت المعركة المغول أمام قوة فتية لم يألفها المغول من قبل في البلاد التي سيطروا عليها في مشرق العالم الإسلامي، وأصبح على المغول أن يعيدوا حساباتهم من جديد تجاه خصم عنيد هم المماليك [23].

الهوامش

1-الصياد /المغول ص289-296؛ألعريني /المغول ص242-252 .

2- المقريزي /السلوك ج1ق1ص427-429 ؛المولى/الأوضاع ص151؛ الصياد /المغول ص302-303 ؛ألعريني /المغول ص255-256.

3- الصياد/المغول ص304-305.

4- الصياد/المغول ص305-306

5- ألعريني /المغول ص259

6- المقريزي /السلوك ج1ق2 ص394 -395 ؛رشيد الدين /جامع م2ج1ص311 ؛[illegible] محمود سعيد عمران /المغول وأوربا ص64 ؛الصياد ج/المغول ص306؛المولى /الأوضاع ص104- 105.

7- ألكتبي /عيون التواريخ ج2 ص226-227 ؛اليونيني /ذيل مرآة الزمان ج1ص360؛رنسيمان /تاريخ الحروب ج3ص335؛المولى /الأوضاع ص105

8- المولى /الأوضاع ص105

9- ابن العماد الحنبلي /شذرات الذهب ج5ص350؛اليونيني/ذيل مرآة الزمان ج1ص366؛ألعريني /المغول ص259؛النويري /نهاية الارب ج29 ص273؛ ابن خلدون /العبر ج5ص820؛ابن أيبك الدواداري /كنز الدرر ج8 ص53-57؛ألعبادي /قيام دولة المماليك ص164-165؛المولى /الأوضاع ص107.

10- الصياد /المغول ص308.

11- الصياد /المغول ص310-311؛ألعريني/المغول ص259- 260 ؛عماد عبد السلام رؤوف/معركة عين جالوت ص41-47؛محمود نديم /الفن الحربي ص141؛رشيد الدين / جامع م2ج1ص316؛المولى /الأوضاع ص109 .

12- محمد صالح القزاز/الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، مطبعة القضاء -النجف الأشرف 1390هـ/1970،ص375.

13- أبو شامة /الذيل على الروضتين ص208؛الذهبي /دول الإسلام ج2ص125؛ المقريزي /السلوك ج1ق2ص432؛ابن تغري بردي /النجوم ج7ص81؛ الصياد/المغول ص311-312.

14- الصياد /المغول ص313؛ألعريني /المغول ص261-263

15- الصياد /المغول ص314؛ألعريني /المغول ص263

16- رنسيمان /تاريخ الحروب ج3 ص537-538؛ الصياد/المغول ص315

17- الصياد /المغول ص315-316

18- Browne/ALiterary History of Persia ، vol،lll، Cambridge p6p
MedivalHistory،vol،vi،pp- 28،43- 44

19- الصياد /المغول ص318

20- الصياد /المغول ص318

21- الصياد/المغول ص 318-319

22- القزاز/الحياة السياسية ص374

23- القزاز /الحياة السياسية ص376


7
الفصل السابع
الحروب الصليبية



تمهيد :

قبل البدء في تعريف الحروب الصليبية لابد أن نعرف إن هذه الحروب قامت على اثر توغل السلاجقة في آسيا الصغرى بعد معركة ملاذكرد التي قامت بين السلطان السلجوقي ألب ارسلان والإمبراطور البيزنطي رومانوس 463هـ /1071م والتي تم النصر فيها للمسلمين واسر الإمبراطور البيزنطي وقتل أعداد كبيرة من جيشه، وهنا أصبح للمسلمين موطئ قدم لهم في آسيا الصغرى بعد سيطرتهم على المناطق الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى وتوسعوا شيئا فشيئا حتى أسسوا دولة سلاجقة الروم بزعامة سليمان قتلمش، ولذلك فقد هزت هذه الأعمال ملوك وحكام أوربا وأدركوا الخطر الكبير الذي سيواجهونه إن لم يقوموا بعمل ضد المسلمين، ولذلك فقد حركت هذه المعركة أوربا لإعلان الحروب الصليبية على المسلمين فتم تحشيد أعداد كبيرة من أوربا من قبل البابا جريجوري والبابا اوريان الثاني وهذا ما سنتكلم عنه لاحقا .

ترجع أهمية الحروب الصليبية بالنسبة لنا إلى إنها تشكل تجربة في تاريخ المسلمين، سواء في المشرق أم المغرب، وهذه التجربة ليست من التجارب العابرة الأثر والنتائج، وإنما هي تجربة كبيرة مليئة بالدروس والعظات، مما يتطلب منا ان نتأملها ونبحثها في كل وقت، الآن وفي المستقبل، لنستفيد من أخطاء الماضي ونتجنبها، ونواجه أخطار الحاضر ونتغلب عليها، وبذلك نحفظ للمسلمين حقوقهم وللأمة الإسلامية كيانها، ونضمن لأبنائنا حياة حرة كريمة في بلادنا الإسلامية (1) ثم ان ذيول الحروب الصليبية انتهت في القرن الخامس عشر تقريبا لتفصح عن نتائج غريبة متناقضة بالنسبة للمسلمين والغرب الأوربي، فإذا كانت صفحة مثيرة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، فما السر في إنها انتهت بتدهور وركود وانحلال استمر طويلا في البلاد الإسلامية، في حين أصبحت هذه الحروب، وأعقبتها مباشرة نهضة شاملة في الغرب الأوربي هي أساس نهضته الحديثة ؟؟ الواقع ان هذه الظاهرة تسترعي الانتباه وتستحق منا التفكير العميق . فقد تكون الحروب الصليبية في حد ذاتها مسؤولة عن الانهيار الذي تعرضت له البلدان الإسلامية في أواخر القرون الوسطى، بعد ان استنفذت جهود هذه البلدان وإمكاناتها الاقتصادية والبشرية في الدفاع عن كيانها، وكرست مواردها ونشاطاتها للقضاء على الاخطبوط الصليبي الذي ثبت أقدامه في بقعة هي مثابة القلب من

العالم الإسلامي، واخذ يسعى من خلال ذلك المركز المتوسط إلى تهديد بقية بلاد الشام والعراق ومصر والحجاز فضلا عن بلاد المغرب والأندلس.ولعله من الواضح انه كان من الصعب على المسلمين وسط ذلك الخطر الذي أحدق بهم في صميم بلادهم أن يشتغلوا بالإنشاء والتعمير والنشاط الحضاري، صحيح ان بوادر الضعف والانحلال السياسي والتأخر الحضاري قد بدأت فعلا قبل الحروب الصليبية، حيث كثرة الثورات والخلافات المذهبية والطائفية والتي تسترعي الانتباه، مما أدى إلى قيام دويلات في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، فضلا عن خضوع الخلفاء العباسيين لسيطرة الأتراك والبويهيين والسلاجقة، والذي يشكل دلالة واضحة على ضعف وانحلال الخلافة التي تشكل القلب أو القيادة في ذلك المجتمع [2] .

وقبل الخوض في الحروب الصليبية هنالك سؤال يواجهنا دائما وهو ماهية الحروب الصليبية وما تعريفها، وما هو المقصود بها ؟ الواقع ان الإجابة على هذا التساؤل تختلف باختلاف وجهات النظر التي ينحدر منها هؤلاء المؤرخون، فقسم نظر إليها على انها ((حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب)) او هي حلقة أخيرة من سلسلة الهجرات الكبرى التي صحبت سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية)) او هي نتيجة عملية إحياء ديني بدأت في غرب أوربا)) او هي وسيلة تحايل بها الغرب الأوربي للخروج من أوضاع العصور الوسطى والانطلاق إلى حياة أوسع أفقا))، لكننا نستطيع إعطاء تعريف اقرب إلى الواقع وهو ((حركة كبرى نبعت من الغرب الأوربي المسيحي في العصور الوسطى، واتخذت شكل هجوم استعماري على بلاد المسلمين، وبخاصة في الشرق الأدنى بقصد امتلاكها، وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب أوربا في القرن الحادي عشر، واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستارا دينيا للتعبير عن نفسها تعبيرا عمليا واسع النطاق)) [3].

وفي أوربا لم يعرف المعاصرون لها هذه التسمية بل ان كل ما يعرفونه عنها ان الفرسان كانوا يخيطون على ألبستهم وعلى أكتافهم شارة الصليب وباللون الأحمر، وكان يشار لهذه الحرب بأسماء مختلفة مثل : الترحل، التطوف، التجوب الحملة، الطريق إلى الأرض المقدسة، التجوب ماوراء البحار، السير على درب الرب) وهكذا [4]. وسميت بالحروب الصليبية، لان الذين اشتركوا فيها لمحاربة المسلمين (الأتراك والعرب) كانوا يخيطون على ألبستهم على الصدر او على الكتف – علامة الصليب من قماش احمر رمزا للدوافع والأهداف والنوايا الدينية [5] .

أسباب الحروب الصليبية

من خلال التعاريف التي أطلقت على الحركة الصليبية، نستنتج ان لهذه الحركة دوافع وأسبابا مختلفة كل الاختلاف عن بعضها البعض، فلولا ان المجتمع الأوربي في تلك الفترة كان يعاني من أزمات كبيرة لما انطلق بكل تلك الحملات عبثا او دونما جدوى او فائدة، صحيح ان الإمبراطورية -

البيزنطية استغاثت بالغرب الأوربي، بعدما تعرضت لضغوط السلاجقة، ولو لم يكن للغرب الأوربي ما يحركه من أسباب قوية جعلته يدفع بكل تلك الحملات، لما انطلقت حملة واحدة صوب الشرق الإسلامي ولما استجابت أوربا بسرعة لتلك النداءات، والآن نتساءل ما أهم الأسباب التي حركت تلك الحروب والتي استمرت قرابة القرنين من الزمان .

1- الباعث الديني :

لقد عرف ريان Riant الحروب الصليبية بأنها ((حروب دينية استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام))، ان المتتبع للحركة الصليبية يجد ان العامل الديني كان له دور أساسي فيها لكنه ليس العامل الوحيد، والذي أدى دورا مهما ومحركا مباشرا لقيامها، كما يتبين للمتتبع لبواعث الحركة الصليبية في بعض الأحيان فتور العامل الديني في كثير من الأوقات، وسط التيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وللوقوف على قيمة الباعث الديني في القرون الوسطى يجدر بنا أن نتأمل أوضاع الحياة في الغرب الأوربي في العصور الوسطى، وما اعترى تلك الأوضاع من تطورات حتى أواخر القرن الحادي عشر، وذلك حتى لا ننزلق في الطريق الذي انزلق فيه كثير من المؤرخين السابقين، وهم الذين اعتادوا ان يستفتحوا كلامهم عن الحروب الصليبية بالمبالغة في سوء أحوال المسيحيين في البلاد الإسلامية، وما تعرضوا له من اضطهاد ووحشية وكيف ان كنائسهم وأديرتهم قد أغلقت وطقوسهم عطلت ... فضلا عما لاقاه حجاج بيت المقدس المسيحيين من عقبات وما تعرضوا له من معاملة سيئة من حكام البلاد الإسلامية التي مروا بها!!! .

من الواضح ان هذا المدخل مدخلا مضللا للحروب الصليبية بعيدا عن الحقيقة والواقع التاريخي، ليس بسبب ما يشتمل عليه من مبالغات معظمها لا أساس له من الصحة، بل ان الدخول إلى تاريخ الحركة الصليبية من هذا الباب الوهمي كفيل بان يصرف الباحث عن المدخل

الحقيقي للموضوع . فالقول ان الحروب الصليبية أتت رد فعل للاضطهاد الذي تعرض له المسيحيين الشرقيين والغربيين في البلدان الإسلامية، إنما هو ادعاء باطل لا يتفق وروح الإسلام وطبيعة الدعوة إليه، وما أحاط به القرآن الكريم من رعاية وعناية، وما أمر به سيدنا محمد (ﷺ) من دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿فان حاجوك فقل أسلمت لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءاسلمتم فان اسلموا فقد اهتدوا، وان تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ آل عمران /20، وقال تعالى ﴿وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب، فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما انزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم، والله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا واليه المصير﴾ (الشورى 14– 15) .

ويثبت التاريخ ان المسيحيين عاشوا دائما في كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة هانئة تشهد عليها الرسالة التي بعثها بطريق بيت المقدس سنة 256هـ/869 م، إلى زميله اجيناتوس بطريق القسطنطينية، والتي امتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق، بحيث انهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أي تدخل في شؤونهم الخاصة، وذكر بطريق بيت المقدس بالحرف الواحد في رسالته :((ان المسلمين قوم عادلون ونحن لا نلقى منهم أي أذى أو تعنت)) (6) كما ان القياس على بعض الحالات الفردية لا يمكن أن يكون مقياسا والتي تنبعث في أحيان كثيرة عن حالات قصر نظر، مثلما قام به الحاكم القائم بأمر الله الفاطمي من تصرفات تجاه المسلمين أولا وتجاه أهل الذمة لكي نقيس عليه حالة المسيحيين في الشرق، لتؤجج نار حرب استمرت قرنين من الزمان، طحنت أبناء أوربا قبل ان تطحن أبناء المسلمين . كما ان الأحداث التاريخية تؤكد انه بعد وفاة الحاكم بأمر الله عادت الأمور إلى مجاريها الطبيعية، وعقد صلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية، وعاد

المسيحيون يحظون بما ألفوه دائما من ألفة ومحبة ورحابة صدر، وصار البيزنطيون يشرفون على كنيسة القيامة في بيت المقدس، كما وفد الحجاج كعاداتهم يزورون الأماكن المقدسة في امن وسلام ولا يجوز الاستشهاد بهذه الحال الفردية (عصر الحاكم بأمر الله) والتركيز عليها على إنها المحرك والمسبب الرئيس في الحروب الصليبية، وتناسي من جهة أخرى ما قام به الحكام الأوربيون من مجازر وأضطهادات صاحبت انتشار الديانة المسيحية والتي بدأت منذ القرن الرابع للميلاد، واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى، فما قام به خلفاء الإمبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على اعتناق المسيحية، وما قام به شارلمان في القرن الثامن من فرض المسيحية على السكسون والبافاريين والافار بحد

السيف، حتى انه قتل من السكسون وحدهم أكثر من أربعة آلاف فرد جملة واحدة، وما ارتكبه الفرسان التيتيون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة في محاولاتهم نشر المسيحية في القرن الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتونيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطئ البحر البلطي، هذا فضلا عما قام به المبشرون الجزويت في القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية في الهند (7) .

وإذا كان دعاة الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر قد دأبوا على الدعاية لحركتهم في غرب أوربا عن طريق المناداة بان أحوال المسيحيين في آسيا الصغرى والشام قد ساءت تحت حكم السلاجقة، بينما يؤكد المؤرخون الأوربيون المنصفون، ان المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة كانوا اسعد حظا من إخوانهم الذين عاشوا في قلب الإمبراطورية البيزنطينية ذاتها، ((وان ما اعترى المسيحيين في الشام واسيا الصغرى من متاعب في ذلك العصر، إنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين، لأنه لا يوجد أي دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين الخاضعين لهم)) (8) .

ولكن هل معنى كل ذلك ان الباعث الديني ليس له اثر في تحريك الحروب الصليبية ؟ وهل يفهم من معنى كلامي السابق ان العامل الديني يصح إهماله تماما عند الكلام عن القوى التي وجهت الحروب الصليبية منذ القرن الحادي عشر؟ الواقع إنني لم اقصد ذلك مطلقا، وإنما أردت ان أصحح اعتباريين طالما وقع فيهما كثيرون عند معالجة موضوع الحركة الصليبية، اما الاعتبار الأول فهو انه ليس من الصواب إطلاقا القول ان هناك اضطهاد فريد حل بالمسيحيين في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن الحادي عشر مما يصح ان يكون سببا لاستثارة الغرب الأوربي . واذا كان بعض دعاة الحملة الصليبية وعلى رأسهم البابا اوربان الثاني نفسه، قد استغلوا فكرة الاضطهاد الديني هذه للاستهلاك المحلي في الدعاية لمشروعهم في غرب أوربا، فان عامة الناس في مختلف بلدان الغرب الأوربي لم يكن يهمهم كثيرا أمر إخوانهم المسيحيين الشرقيين في البلدان الإسلامية، والاعتبار الثاني هوانه لا صحة إطلاقا للفكرة الخيالية، التي ظلت سائدة أمدا طويلا والتي صورت للصليبيين الذين اخذوا يوفدون من غرب أوربا إلى الشرق منذ نهاية القرن الحادي عشر في صورة المسيحيين المخلصين الذين جرفهم الورع والتقوى إلى هجرة الأوطان والأهل والأحباب في سبيل تحقيق رسالة دينية سامية، وانهم اعرضوا عن الدنيا ومتاعها من اجل غرض واحد هو خدمة الصليب والاستشهاد من اجله(9) .

حقيقة ان العصور الوسطى في الغرب الأوربي عرفت في التاريخ باسم "عصور الإيمان"، وحقيقة اننا نسمع كثيرا عن سلطان الكنيسة ورجالها على قلوب الناس في غرب أوربا في تلك العصور، وحقيقة ان التاريخ يثبت ان الكنيسة الغربية ممثلة في شخص زعيمها البابا هي التي دعت للحرب الصليبية سنة 488هـ/1095 م، وان هذه الدعوة ترتب عليها ما حدث من خروج الناس أفواجا في شكل حملات صليبية ضخمة إلى الشرق الأدنى، ولكن فكرة شن حرب دينية على المسلمين واستخلاص الأراضي المقدسة منهم، لم تكن الباعث الحقيقي الأول الذي دفع البابوية إلى القيام بتلك الدعوة، ودفع جموع الناس من أمراء وعامة، إلى تلبية نداء البابا في سهولة ويسر والخروج أفواجا من غرب أوربا قاصدين الشرق الأدنى.

أما عن البابوية فكانت قد بلغت في القرن الحادي عشر درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ، والإمكانات الاقتصادية، فقد بلغت في سيطرتها على الأراضي وعلى واردات أوربا درجة عظيمة، وكانت تستثمر الفلاحين الأقنان الذين يعملون تحت رحمتها استثمارا وحشيا[10] مما فتح أمامها آفاقا واسعة لتجعل سلطاتها عالية، بمعنى أن يكون البابا، بوصفه خليفة المسيح (عليه السلام) والقديس بطرس، الزعيم الروحي لجميع المسيحيين في الشرق والغرب، والمعروف ان البابوية ظلت دائما ترغب في إخضاع الكنيسة الشرقية الأرثذوكسية لزعامتها، ولكن النزاع الذي استحكمت حلقاته بين الأباطرة البيزنطيين من ناحية والبابوية من ناحية أخرى، جعل من المتعذر حتى ذلك الوقت القيام بمحاولة جديدة لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية وإزالة ما بينهما من شقاق، وأخيرا جاء استنجاد الأباطرة البيزنطيين بالغرب الأوربي ضد السلاجقة في القرن الحادي عشر، ليتيح فرصة ذهبية للبابا للظهور في صورة الزعيم الأوحد للشعب المسيحي كافة في صراعه ضد المسلمين، ولمحاولة دمج الكنيسة الشرقية في الكنيسة الغربية –التي استقلت وانفصلت نهائيا عن كنيسة الكاثوليكية الرومانية في سنة 446هـ /1054م [11] –تحت زعامة خليفة القديس بطرس، على ان يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين، واسترداد الأراضي المقدسة في فلسطين[12].

هذا عن البابوية أما عن جمهرة الصليبيين الذين استجابوا لنداء البابوية، وخرجوا قاصدين الشرق الأدنى، فلم يكن الهدف الديني هو الباعث الرئيس الذي دفع الغالبية العظمى منهم إلى المشاركة في الحركة الصليبية، وقد اعترف كثير من المؤرخين الأوربيين الذين عالجوا هذا الموضوع، بان غالبية الصليبيين الغربيين الذين أسهموا في الحركة الصليبية تركوا بلادهم اما بدافع الفضول او لتحقيق أطماع سياسية، واما للخلاص من حياة الفقر التي كانوا يحيونها

في بلادهم في ظل النظام الإقطاعي، واما للهرب من ديونهم الثقيلة او محاولة تأجيل سدادها، واما فرارا من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم، واما لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية في بلاد الشرق . واي واعز ديني كان عند الوف الصليبيين الذين شاركوا في الحملة الصليبية الرابعة والذين اتجهوا نحو القسطنطينية، وهو البلد المسيحي الكبير، لينهبوا كنائسها ويسرقوا أديرتها ويعتدوا على أهلها، بالقتل والضرب، وهم جميعا إخوانهم في الدين ؟؟؟ وهكذا يبدو انه اذا أردنا ان نعرف الأسباب الحقيقية للحركة الصليبية، فعلينا البحث في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في غرب أوربا في القرن الحادي عشر .

1- **أثبتت الأبحاث الحديثة قوة العامل الاقتصادي وأهميته في تحريك** كثير من الهجرات والحروب المهمة في التاريخ، ونحن مع اعترافنا بوجود بواعث عديدة للحركة الصليبية، نميل إلى تأكيد العامل الاقتصادي بالذات في تلك الحركة . ذلك ان جميع الوثائق المعاصرة تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية في غرب أوربا، ولاسيما فرنسا في أواخر القرن الحادي عشر . فالمؤرخ المعاصر جيوبرت نوجنت Nogent Guibert يؤكد ان فرنسا نفسها تعاني مجاعة شاملة قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولى، فندر وجود الغلال وارتفعت أثمانها ارتفاعا فاحشا مما ترتب عليه حدوث أزمة في الخبز . وفي ضوء هذه الحقيقة، يمكننا ان نفسر لماذا كانت نسبة الصليبيين الفرنسيين المشتركين في الحملة الصليبية الأولى اكبر من الوافدين من أي بلد أخر في غرب أوربا .

ومهما يقال من ان هذه الأزمة كانت مفتعلة، افتعلها التجار المستغلون ومعظمهم من اليهود، فالذي يهمنا هو انه كانت هناك أزمة اقتصادية فعلا في الغرب الأوربي عند الدعوة للحملة الصليبية الأولى، وان هذه الأزمة ألجأت الناس إلى أكل الأعشاب والحشائش . وزاد من سوء الأحوال الاقتصادية في الغرب الأوربي في ذلك الوقت كثرة الحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين، وهي الحروب التي لم تنجح الكنيسة او الملوك في وقفها، مما اضر بالتجارة وطرقها والزراعة وحقولها ابلغ الضرر. وهكذا جاءت الحروب الصليبية لتفتح أمام أولئك الجوعى في غرب أوربا بابا جديدا للهجرة، وطريقا للخلاص من الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي عاشوا فيها داخل أوطانهم(13). فقد عانت أوربا من سوء المواسم الزراعية ومن شتى ضروب الكوارث، كما كانت المجاعة تسود في كل المناطق، وبلغت الأمور حد أكل لحوم البشر فان الراهب المؤرخ رادولف غلابر مثلا، يذكر حالات كانوا يأكلون فيها أجسام الموتى، في

الذي سماه المؤرخون بالسنوات أواخر القرن الحادي عشر،، أي في ذلك الزمن العصيب السبع العجاف، وهذه السنوات سبقت الحروب الصليبية مباشرة، ومن سنة إلى أخرى أخذت المدونات والحوليات التاريخية تذكر شحة المعلومات ذاتها تقريبا، وقد نعت الراهب سيغبرت من جامبلو سنة 482هـ/1089م بسنة الطاعون، وفي هذه السنة ذاتها، وقعت هزات أرضية في ألمانيا وفي بربان، وفاضت الأنهار في بعض الأنحاء الأمر الذي أشارت إليه حوليات دير القديس يعقوب وغيره من المدونات التاريخية، وتذمر سيغبرت من جامبلو من ازدياد جدوبة التربة في سنة 483هـ/ 1090م، وأعرب عن المخاوف بصدد ((الجوع الزاحف تدريجيا)) وكتب المؤرخ الألماني ايكهارد من اوورا عن مرض رهيب أصاب الناس والمواشي معا في سنة 485هـ/1092م، ونجم عن الجوع والنقص في المنتوجات الغذائية والأعلاف اللذين تسبب بهما القحط الناشئ بدوره من برد الربيع، ففي أول نيسان تساقط الثلج، وكان الصقيع والجليد على حد قول برنولد سان بليه، وفي سنة 489هـ/1093م تميز جو انكلترا بالعواصف وسوء الطقس ففي الربيع فيضانات وفي الشتاء صقع قارص وقد تجمدت وهلكت جميع المبذورات وفي السنة ذاتها كانت الغلة ضئيلة وجاع الألمان وفي معرض الكلام عن الأحداث المشهورة، ففي سنة 487هـ/1094 م أشار المؤرخون الى الوفيات بالجملة من جراء الوباء الشامل الذي شمل بلدان مختلفة ففي رينسبورغ مات في 12 أسبوعا 8500 شخص، وفي احدى القرى مات في ستة أسابيع 1500 شخص وفي قرية أخرى 4000 شخص وانتقل الوباء من ألمانيا إلى فرنسا وبورغونيا وايطاليا ومن جديد تسببت الأمطار الغزيرة بضرر فادح، وفي أراضي هولندا استمرت الفيضانات من تشرين الأول 1094م إلى نيسان 1095م/487هـ-488هـ وفي فرنسا الجنوبية وجزئيا في ألمانيا كان الجوع قد خف ولكنه انفجر بقوة في فرنسا وفي انكلترا، فقد كتب الراهب والمؤرخ النورماندي اورديريك فيتالي ((ان الجفاف الرهيب حرق العشب في المروج وأباد السنابل والخضراوات، وتسبب بالتالي في جوع فضيع)) . وفي سنة 488هـ/ 1095 م كانت نورمانديا وفرنسا مرهقتين بنسبة عظيمة من الوفيات التي أفرغت الكثير من البيوت، ودفع الجوع البلايا إلى أقصى الحدود، ويتحدث المؤرخون جميعهم تقريبا عن العوز الشديد الذي ساد في الغرب بسبب قحط المواسم الزراعية والكوارث الطبيعية والأوبئة الفتاكة وجائحة المواشي(14) .

ولم يكن عجبا أن ضمت الحملة الصليبية الأولى جموعا غفيرة من المعدمين والفقراء والمساكين وطريدي القانون وجميعهم كانوا يفكرون ببطونهم قبل ان يفكروا في دينهم، بدليل ما اتوه طوال طريقهم إلى القسطنطينية من أعمال العدوان والسلب والنهب ضد الشعوب المسيحية التي مروا بأراضيها، مما يتعارض مع أي وازع ديني أو أخلاقي يؤمنون به كما يدعون .

ثم ان الباحث في تاريخ الحركة الصليبية يلحظ حماسة منقطعة النظير من جانب المدن التجارية، في ايطاليا وفي غيرها من المدن في غرب أوربا، للمساهمة في تلك الحركة، سواء بعرض خدماتها لنقل الصليبيين عن طريق البحر إلى الشرق، أم في نقل المؤن والأسلحة وكافة الإمدادات إلى الصليبيين في الشام، او مساعدة الصليبيين في الاستيلاء على الموانئ البحرية ببلاد الشام وتقديم المعونة البحرية، للدفاع عن هذه الموانئ ضد هجمات الأساطيل الإسلامية، وهنا أيضا نستطيع ان نقرر ان جميع جمهوريات ايطاليا البحرية لم تكن مدفوعة إلى تقديم جميع تلك المساعدات للصليبيين بوازع ديني، وإنما جرت وراء مصالحها الاقتصادية الخاصة، ورأت في الحروب الصليبية فرصة طيبة يجب اقتناصها لتحقيق اكبر قسط من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين معا، وسنرى فيما بعد كيف ان البندقية لم تتورع عن تضليل حملة صليبية كبرى فوجهتها لغزو القسطنطينية، وهي البلد المسيحي الآمن، بدلا من ان تتركها في طريقها الطبيعي المرسوم ضد المسلمين . وكان ذلك عندما رأت البندقية ان مصالحها المادية الصرفة تتطلب مهاجمة القسطنطينية، وليس غزو مصر (15) .

والواقع ان الصليبيين بالشام كان لا يمكنهم الاستغناء عن مساعدة أساطيل البندقية وجنوه وبيزا، إذ ان هذه الأساطيل قامت بدور فعال في ربط بلاد الشام الصليبية بالغرب الأوربي . واذا كانت هذه الجمهوريات الايطالية قد قدمت المساعدة المطلوبة للصليبيين، فانها لم تفعل ذلك إكراما للكنيسة وابتغاء مرضاة الله، وإنما مقابل معاهدات عقدتها مع القوى الصليبية في الشام حصلت بموجبها على امتيازات اقتصادية هامة، ففي معظم موانئ الشام ومدنه الكبرى التي استولى عليها الصليبيون تمتعت المدن الايطالية التجارية بإعفاءات خاصة، فضلا عن شارع وسوق وفندق وحمام ومخبز خاص بتجار المدينة الايطالية التي قدمت خدماتها لحاكم الإمارة الصليبية التي يتبعها الميناء . ولم تلبث مرسيليا بجنوب فرنسا ان حذت حذو المدن الايطالية، فحصلت على امتيازات كبيرة لتجارها في عدد من المدن الصليبية في الشام اذ منح الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس تجار مرسيليا حيا خاصا بهم في مدينة القدس ذاتها سنة 511هـ/ 1117م ولم يأت هذا الإعفاء من فراغ فلا بد من تقديم جهد مماثل للإمارات الصليبية في بلاد الشام، كما أعفى الملك فولك تجار مرسيليا من الضرائب والتي كانت تقدر بمبالغ كبيرة في ذلك الوقت، ومنحهم الملك بلدوين الثالث امتيازات وإعفاءات من الضرائب في كافة المدن والموانئ الصليبية في سنة 547هـ/1152م.

وهكذا اصطبغت الحركة الصليبية من أول أمرها بصبغة اقتصادية استغلالية واضحة . فكثير من المدن والجماعات والأفراد الذين أيدوا تلك الحركة وشاركوا فيها ونزحوا إلى الشرق،

لم يفعلوا ذلك خدمة للصليب وحرب المسلمين، وإنما جريا وراء المال وجمع الثروات وإقامة مستعمرات ومراكز ثابتة لهم في قلب العالم الإسلامي بغية استغلال موارده والمتاجرة فيها والحصول على اكبر قدر ممكن من الثروة . حقيقة ان الاستعمار بمعناه الحديث لم تتضح معالمه إلا بعد الثورة الصناعية في أوربا ولكن ليس معنى ذلك ان العالم القديم لم يعرف الاستعمار منذ القدم في القرون الوسطى كانت ((الحروب الصليبية اول تجربة للاستعمار الغربي، قامت بها الأمم الأوربية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق على حد قول THOMPSON في كتابهEconomic and social History voll p397 وليس أدل على سيطرة النزعة الاستعمارية الاستغلالية على عقول كثير ممن أسهموا في الحركة الصليبية مما نشأ من منازعات ومخاصمات، بل حروب أهلية بين الصليبيين بعضهم مع بعض في بلاد الشام، وقد استمرت هذه الحروب بين مدن البندقية وجنة وبيزا، في اشد الأوقات حرجا بالنسبة للصليبيين، أي في النصف الأخير من القرن الثالث عشر، عندما أخذت البقايا الصليبية في الشام تتساقط في أيدي المسلمين واحدة بعد أخرى [16] .

وعندما ذهبت صيحات العقلاء من الباباوات ورجال الدين وملوك قبرص ليوحد الصليبيون صفوفهم أمام الخطر الذي يوشك ان يعصف بهم جميعا، فقد كانت المنافسات التجارية والخصومات المادية بين الصليبيين الاستعماريين بعضهم مع بعض أعمق جذورا وأقوى تأثيرا وأكثر نفعا من شعور الولاء للدين والكنيسة .

2- الباعث الاجتماعي:

تالف المجتمع الأوربي في العصور الوسطى من ثلاث طبقات، طبقة رجال الدين – من الكنيسة والديريين –،طبقة المحاربين –من النبلاء والفرسان –، طبقة الفلاحين من الاقنان ورقيق الأرض وكانت الطبقتان الأولتان أقلية تمثل في مجموعها الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية والارستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعية، في حين ظلت طبقة الفلاحين تمثل الغالبية العظمى المغلوبة على أمرها، والتي كان على أفرادها ان يعملوا ويشقوا ليسدوا حاجة الطبقتين الأولتين .

والواقع ان آلاف الفلاحين عاشوا في غرب أوربا عيشة منحطة في ظل نظام الضيعة، حيث شيدوا لأنفسهم أكواخ قذرة من جذوع الأشجار وفروعها غطيت سقوفها وأرضيتها بالطين والقش، دون ان تكون لها نوافذ او بداخلها أثاث، ماعدا صندوق صغير من الخشب وبعض الأدوات الفخارية المعدنية البسيطة . وكان معظم أولئك الفلاحين من العبيد والأقنان

الذين ارتبطوا وراثيا بالأرض التي يعملون عليها، وقضوا حياتهم محرومين من ابسط مبادئ الحرية الشخصية، فكل ما يجمعه ألقن يعد ملكا خاصا للسيد الإقطاعي لان ألقن محروم حتى من الملكية الشخصية (17) .

ثم ان أولئك الفلاحين عاشوا مثقلين بمجموعة ضخمة من الالتزامات والخدمات، فكان عليهم ان يقدموا خدمات معينة للإقطاعي مثل فلاحة ارض الخاصة، فضلا عن تسخيرهم في أعمال شاقة مثل إنشاء طريق او حفر خندق، او إصلاح جسر، كذلك كان على الفلاحين دفع مقررات معينة، مثل ضريبة الرأس التي يتعين على كل قن دفعها سنويا رمزا لعبوديته، هذا ماعدا الضرائب المفروضة على ماشيته وما تنتجه أرضه من خضراوات . فإذا أضفنا إلى ذلك الاحتكارات العديدة التي ألزم بها الفلاح، الطحن في مطحنة الإقطاعي، العصر في معصرة الإقطاعي، الشراء من دكان الإقطاعي – أدركنا مدى الهوان والذلة التي عاش فيه غالبية الشعب الأوربي في القرن الحادي عشر . فالسيد الإقطاعي صاحب الضيعة هو الذي يمتلك طاحونة ومعصرة وفرنا بل أحيانا البئر الوحيد في الضيعة، كما ذكرنا مسبقا، وفي هذه الحالة يصبح كل قن ملزما بإحضار غلته الى طاحونة السيد الإقطاعي لطحنها، ويحمل خبزه إلى فرن السيد لخبزه، وكرومه وزيتونه وتفاحه إلى معصرة السيد لعصرها ... كل ذلك مقابل أجور معينة يقدمها الاقنان والفلاحون لسيدهم الإقطاعي وهم صاغرون، فاذا امتلك فلاح طاحونة يدوية او غير ذلك من الأجهزة التي من حق السيد الإقطاعي وحده ان يحتكرها، صار ذلك جرما يحاكم عليه (18) .

وهكذا ظلت الغالبية العظمى من الناس في غرب أوربا يحيون حياة شاقة، مليئة بالذل والهوان، وكان ذلك في الوقت الذي علت الدعوة للحرب الصليبية، فوجدت تلك الألوف من البؤساء في الغرب الأوربي فرصتها قد حانت للتخلص مما كانت تعيش فيه من ذل العيش و نكد الدنيا .ومهما يكن في الدعوة الجديدة من أخطار، فان أخطارها هانت أمام الفاقة والذل والهوان، التي كتبت على طبقة العوام ان يعيشوا فيها في غرب أوربا دون أمل في الخلاص، فإذا ماتوا في تلك الحروب الصليبية الجديدة، فان الموت كان أحب إليهم من حياة الجوع والذل والعبودية، وان وصلوا إلى الأراضي المقدسة سالمين، فان حياتهم الجديدة، لن تكون بأي حال أسوء من حياتهم التي يحيونها فعلا في بلادهم الأصلية (19) .

ومن هنا يبدو جليا انه إذا كانت ألوف العامة من غرب أوربا، قد أسهموا في الحركة الصليبية، فإنما دفعتهم إلى ذلك عوامل اجتماعية واقتصادية مهمة، فوجدوا في تلك الحركة

متنفسا إلى حياة أفضل . ونستطيع ان نقرر، انه لو تيسرت لتلك الجموع في بلادهم الأصلية حياة حرة وكريمة وقدر مناسب من كرامة العيش، لما غمروا بترك أوطانهم وزوجاتهم وأطفالهم وأقاربهم الذين يشعرون بالطمأنينة معهم وانجرفوا وراء وعود خيالية أسرفت الكنيسة في تقديمها (20) .

الباعث السياسي:

ولكن إذا كانت الفاقة والحرمان والذل والهوان هي التي دفعت الغالبية العظمى من الصليبيين إلى الترحيب بالدعوة الجديدة والمشاركة بالحملة الصليبية بحثا عن حياة أفضل، فما الدافع الذي دفع عددا من ملوك أوربا وأمرائها وفرسانها للمشاركة في تلك الحركة ؟

أما عن ملوك الغرب الذين شاركوا في الحروب الصليبية مثل فردريك بربوسا وريتشارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس وفردريك الثاني، فيثبت التاريخ ان معظمهم لم يخرج من بلاده لحرب المسلمين إلا تحت ضغط البابوية وإلحاحها بل تهديدها ، وربما كان هذا الحكم بعيدا عن الصحة في حالة واحدة، وهي حالة لويس التاسع ملك فرنسا ، الذي اشتهر بورعه وتقواه وتدينه حتى لقبه معاصروه بالقديس، والذي أراد ان يعبر عن حماسته الدينية تعبيرا عمليا بالمشاركة في الحركة الصليبية مشاركة فعالة . أما من عداه فان تاريخ البابوية وتاريخ غرب أوربا وتاريخ الحركة الصليبية يشهد على السفارات العديدة التي دأب الباباوات على إرسالها بين حين وآخر إلى ملوك أوربا ، يلحون عليهم بالخروج على رأس جيوشهم إلى الشرق لمحاربة المسلمين .

وان من يدرس تاريخ الغرب الأوربي في تلك الفترة من العصور الوسطى، يعرف جيدا مدى قوة البابوية وعظم سلطانها ، وان ملكا من ملوك أوربا كان لا يستطيع ان يعصى لها أمرا أو يرد لها طلبا ، وإلا تعرض للحرمان والطرد من الكنيسة ورحمتها فلا يستطيع الاحتفاظ بعرشه، او بولاء شعبه له . وابرز مثل لدينا الإمبراطور فردريك الثاني الذي اخذ البابوات واحد بعد أخر يلحون عليه بالخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ضد المسلمين، ولم يجد الإمبراطور دافعا يدفعه للقيام بتلك الخطوة، فظل يماطل مرة بعد أخرى، والبابوية تتوعد وتتهدد ، حتى أصدرت ضده قرار الحرمان، وعندئذ خرج الإمبراطور مكرها لا بطل، على رأس فئة قليلة من جنده قاصدا الشام، وبادر بمجرد وصوله الى الاتصال بالسلطان الكامل الأيوبي ليشرح له موقفه وانه ((ماله غرض في القدس ولا في غيره، وانما حفظ ناموسه عند الفرنج))(21) .

هذا عن الملوك، أما الأمراء الذين أسهموا في الحرب الصليبية، فمعظمهم كان يجري وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفائها قبل وصولهم إلى الشام وبعد استقرارهم فيها . والمعرف ان النظام الإقطاعي ارتبط دائما بالأرض، وبقدر ما يكون الإقطاع كبيرا والأرض واسعة، بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية في المجتمع . وفي هذا النظام كانت المشكلة التي يمكن ان تواجه الأمير او الفارس هي عدم وجود اقطاع او ارض له، مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ، وقد أدت طبيعة النظام الإقطاعي في الغرب الأوربي إلى وجود عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون ارض، لأنه من القواعد الأساسية في هذا النظام، ان الابن الأكبر وحده هو الذي يرث الاقطاع، فإذا مات صاحب الإقطاع، انتقل الإقطاع إلى اكبر أبنائه، ومن الواضح ان هذا المبدأ يعني بقاء بقية الأبناء بدون ارض، وهو وضع ممقوت في المجتمع الإقطاعي، وهنا تتبين عظمة الدين الإسلامي في توزيع الميراث وهو المساواة بين الأبناء من جهة والبنات من جهة أخرى، فالأولاد متساوون في حصصهم والبنات متساويات في حصصهن فسبحان من خلق وهو اللطيف الخبير .

ونتيجة لما سبق فقد لجأ الأمراء المحرومون من الإقطاع إلى الزواج من بنت الإقطاعي الذي ليس لديه ولد للحصول على مال ابيها بعد موته وهكذا، كما سعى هؤلاء الأمراء أيضا إلى إشعال نار الحروب والفتن والقلاقل والعدوان للحصول على الاقطاع . وكان ان ظهرت الحركة الصليبية لتفتح بابا جديدا أمام أولئك النفر من الأمراء والفرسان المحرومين من الأرض في غرب أوربا، فلبوا نداء البابوية، وأسرعوا إلى المساهمة في تلك الحركة لعلهم ينجحون في تأسيس إمارات لأنفسهم في الشرق تعويضا عما فاتهم في الغرب، وحتى أولئك الأمراء الذين كانت لديهم إمارات إقطاعية في بلادهم الأصلية وجدوا فرصة طيبة لتحقيق مجد اكبر والحصول على جاه أعظم .

ولا أدل على تغلب النزعة السياسية عند الأمراء الغربيين الذين أسهموا في الحركة الصليبية من الخلافات التي كثيرا ما دبت بينهم وبين بعض، مما انزل بالغ الضرر بالصالح الصليبي . حتى ان أمراء الحملة الأولى اخذوا يقتسمون الغنيمة حتى قبل الحصول عليها، وهم في طريقهم إلى الشام، قبل ان يستولوا على الغنيمة فعلا، وكيف استحكم النزاع بينهم أمام أنطاكية من اجل رغبة كل منهم في الفوز بها، وكيف ان من استطاع منهم ان يحقق لنفسه كسبا في الطريق قنع بذلك الكسب، وتخلى عن مشاركة إخوانه الصليبيين في الزحف على بيت المقدس، وهو الهدف الأساسي للحملة . كما نستطيع ان نلاحظ كيف ان الخلافات كثيرا ما كانت تدب بين الأمراء الصليبيين في بلاد الشام بسبب نزاعات إقليمية ضيقة، من اجل

الفوز بحكم امارة او توسيع مناطق، وقد كانت البابوية تتدخل من اجل فض هذه النزاعات، وتذكر البابوية الأمراء الصليبيين، بان المسلمين يحيطون بهم ويتربصون بهم الدوائر، ولكن دون جدوى . لان هدف الامراء كان ذاتيا سياسيا، ولم يمن يهمهم رضاء البابا او سخطه، كما ان بعض الأمراء الصليبيين لم يحجموا عن التحالف مع القوى الإسلامية في المناطق المجاورة لهم، ضد اخوانهم الصليبيين، مما يدل على ان الوازع الديني كثيرا ما ضعف عند أولئك الأمراء أمام مصالحهم السياسية والشخصية .

فضلا عن ذلك كله هناك عامل آخر شجع كثيرا من فرسان الغرب الأوربي على المشاركة في الحركة الصليبية، ذلك انه من المعروف ان النظام الإقطاعي ارتبط ارتباطا وثيقا بالفروسية والحرب وإظهار الشجاعة، وان حياة السلم كانت تعني البطالة عند هؤلاء الفرسان، الذين لا عمل لهم إلا الحرب والقتال، وعندما كثرت الحروب الاقطاعية وهددت المجتمع الأوربي تهديدا خطيرا، تدخلت البابوية ونادت بما يعرف باسم ((هدنة الله)) وهي أوقات معلومة يحرم فيها القتال .وعندئذ بحث الفرسان الأوربيون عن ميادين جديدة يستعرضون فيها عضلاتهم، فابتكروا المبارزة، ولكن المبارزات بين الفرسان كانت تتم بطريقة تمثيلية استعراضية، استهدفت إظهار اكبر قدر من المهارة بأقل قدر من الإصابات وإراقة الدماء .لذلك لم يقنع الفرسان بتلك الوسيلة، حتى إذا ما ظهرت الدعوة الصليبية فتحت أمامها بابا واسعا لاظهار شجاعتهم والتعبير عن مواهبهم الحربية، بغض النظر عما في المشاركة في تلك الحركة الجديدة من سعي مشكور وذنب مغفور.

أثار الاحتلال الصليبي للعالم الإسلامي:-

لم تكن الحملة الصليبية الأولى مجرد غزوة عابرة قامت بها الدول الأوربية بدعم من الكنيسة فحسب، بل هي حملة منظمة استهدفت فيما استهدفته السيطرة على مناطق خارج أوروبا، لأهداف معلنة وأخرى غير معلنة، غلفت بغلاف الدين وحماية الأراضي المقدسة في فلسطين، قادتها ووجهتها الكنيسة الغربية الكاثوليكية لأهداف معروفة لدينا، وهي قيادة العالم المسيحي تحت قيادة مسيحية موحدة، وقد حاولت الكنيسة الغربية رأب الصدع الذي ما لبث ان ظهر بين قادة تلك الجيوش الصليبية أكثر من مرة مما يوضح الانقسام الذي كان دائما ما يحدث بين الأمراء المتنازعين على السلطة والمتنافسين للسيطرة على المناطق المختلفة طبقا لما يراه هؤلاء الأمراء من مصالحهم الخاصة، دون الالتفات إلى مصالح الكنيسة التي هيأت لهم هذه الظروف، فتنافسوا فيما بينهم بحروب وتحالفات حربية .

أما اثر هذه الحملات في مختلف مناطق العالم الإسلامي فكثيرة، فقد مزقت هذه الحملات البلاد الإسلامية، بسيطرتها على قلب العالم الإسلامي مقطعة أوصاله ومعرقلة لخطوط مواصلاته وتجارته، فانعدمت الزراعة نتيجة للحروب الكثيرة التي خاضها الصليبيون فيما بينهم، او الحروب التي قام المسلمون بشنها عليهم لاسترداد أراضيهم ومناطقهم، كما مارس الصليبيون أقسى أنواع الظلم على من بقى من المسلمين تحت سيطرتهم، وفرضوا عليهم نظام المجتمع الأوربي الذي كان سائدا في أوربا (نظام القنانة) وهدموا المساجد والجوامع، ومما يدل على ذلك قيامهم بتدمير المسجد الأقصى وقتل الناس الموجودين فيه، أثناء دخولهم بيت المقدس، تماما كما يفعله الصهاينة اليوم، كما لم تقف أطماع الصليبيين بتأسيس الإمارات الثلاث، بل حاول كل أمير منهم ان يوسع من ممتلكاته على حساب المناطق المجاورة، ونحن نعرف ان بلاد الشام، مركز الثقل الصليبي في هذه الإمارات، كان من أخصب وأنشط وأرقى بقاع العالم آنذاك من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والعلمية، لكن الغزو الصليبي لبلاد الشام حولها إلى مناطق مدمرة ومجزأة، فقطعت طرق المواصلات أهملت الزراعة، وتأخرت الحركة العلمية وانقطعت طرق الحج والتجارة ورحلات العلم، الا ما يقوم به الصليبيون من نشاطات في هذا الجانب يدعمهم التجار الايطاليون، فضلا عن الحروب التي نشأت بين القوى الصليبية والمسلمين والتي أدت بدورها إلى القضاء على كل العناصر الحضارية في هذه المنطقة، فخربت المدن وأنهدمت الأسوار والتحصينات واندثرت الجداول ومشاريع الري في المنطقة، فضلا عما تخلفه تلك الحروب من مشاكل اجتماعية خطيرة، فالحرب تعد مطحنة للرجال من كلا الطرفين، وتعكس آثارها في المجتمعين الإسلامي والأوربي .

معركة حطين وتحرير بيت المقدس:

أرسل صلاح الدين الأيوبي رسائل إلى مختلف مناطق البلاد الإسلامية، يحضها على المشاركة على الحملة في حملة كبيرة لتحرير بيت المقدس من يد الصليبيين، وجاءته الجيوش من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وقد اتخذ صلاح الدين الأيوبي الإجراءات المناسبة لحماية الجيش المصري أثناء توجهه إلى بلاد الشام فقام هو بحماية ميمنة الجيش المصري من غارات الصليبيين في منطقة الكرك والشوبك ووادي عربة، وهذا قد امن وصول القوات المصرية إلى بلاد الشام بسلام[22] .

وفي مطلع عام 583 هـ وصلت القوات الإسلامية من مختلف أرجاء البلاد الإسلامية من الموصل وحلب ومصر وغيرها من المناطق الإسلامية، كما اجتمعت القوات الصليبية في مدينة

صفورية، وقد استشار صلاح الدين الأيوبي كبار قادته ومستشاريه فيما يجب فعله، فأشار عليه بعدم التعرض لهم والاكتفاء بالنهب والغارة والتخريب، وقد رد عليهم صلاح الدين :علينا ان نلقى بجميع المسلمين جميع الصليبيين، فان الأمور لا تجري بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقي في أعمارنا، ولا ينبغي ان نفرق هذا الجمع الا بعد الجهاد [23]. فلما رأى الافرنج وجهة صلاح الدين إلى طبرية اجتمعوا إلى التشاور فقال بعضهم :علينا بمقاتلة المسلمين ومنعهم من اجتياح مدينة طبرية، وفي هذه الأثناء وصلت الصليبيين أنباء عن فتح مدينة طبرية دون قلعتها فاختلفوا، ((فقال لهم القمص :ان طبرية لي ولزوجتي وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقي القلعة، وفيها زوجتي، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ويعود، فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديما وحديثا ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة، واذا اخذ طبريه لا يمكنه المقام بها، فمتى فارقها وعاد أخذناها وان اقام لايقدر على المقام بها الا بجمع عساكره، ولايقدرون على الصبر طول الزمان عن اوطانهم واهليهم، فيضطر الى تركها، ونفتك من اسر منا)) [24] ، وقد عارضه ارناط صاحب الكرك، وجرت المعركة، حيث صحب صلاح الدين قواته من طبريه، وكان هدف صلاح الدين من محاصرة طبرية وهو لاجبار الصليبيين على القتال في مناطق مختارة بدقة وعناية، حيث اختار صلاح الدين مكانا يوفر للمسلمين الحماية والماء ويحرم الصليبيين منهما، وتقدم المسلمون واشتبكوا مع الصليبيين، وهم يحاولون ان يصلوا الى الماء في طبرية، فصدهم صلاح الدين عن هدفهم، وقام بعض المسلمين بحرق الاحراش، فأصبح الصليبيين بين نار صلاح الدين وخطته وبين نار القصب، وقد قاتل كلا الفريقين قتال اليائس، حتى كتب الله النصر للمسلمين في معركة حطين، وكان اشد شي في المعركة هو نصب الصليبيين لصليب الصلبوت الذي يدعي الصليبيون ان السيد المسيح عليه السلام قد صلب عليه، حيث عمل هذا العمل فعله في استمرار القتال للصليبيين، وتم هذا النصر في العشرين من ربيع الاخر من سنة 583هـ/ 4تموز 1187م [25].

اسفرت معركة حطين عن هزيمة كبرى للقوات الصليبية ((ومن عاين القتلى ذلك اليوم قال:ما هنالك)) [26] وكان صاحب الكرك ارناط من بين الاسرى، فذكره صلاح الدين بما قام به من نكث المواعيد والمعاهدات ثم قتله بيده الكريمة وعفى عن بقية الملوك [27] .

بعد معركة حطين كان على صلاح الدين الأيوبي خياران لا ثالث لهما، هي اما ان يتجه بقواته إلى بيت المقدس ويحررها من يد الصليبيين ا وان يتجه الى الساحل لتحرير المدن الساحلية وقطع الصلة بين أوربا وبين الصليبيين ومن ثم ترك الحصون الصليبية في الداخل دون إسناد او نجدة وذلك لسيطرة المسلمين على المدن الساحلية، ولكن صلاح الدين

سلك الخيار الأول وهو مهاجمة مدن الساحل، فوصلت قواته إلى أسوار عكا ففتحها وفتح اغلب مدن الساحل مثل صرفند وصيدا وبيروت وجبيل وبقيت صور وعسقلان وطرابلس وبيت المقدس بيد الصليبيين .

بعد هذا اتجه صلاح الدين الأيوبي الى مدينة القدس وحاصرها بعد ان حرر مدينة عسقلان، وأبلى كل الطرفين ضروبا من البسالة فقال ابن الأثير ((وقوتلوا اشد قتال رآه احد من الناس، كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينا، وحتما واجبا، فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني، بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون، ويزجرون ولا ينزجرون)) [28] . بعدها أدرك الصليبيون ان لاقبل لهم بالمقاومة فأذعنوا إلى الاستسلام، بعد ان رفض طلبهم أول الأمر فوافق صلاح الدين على ذلك، ففتحت بيت المقدس أبوابها للمسلمين في 27 رجب من سنة 583 هـ/ 2تشرين الأول من سنة 1187، وقد سمح صلاح الدين للافرنج بمغادرة المدينة المقدسة يعكس ما فعلوه من مجازر عندما احتل الصليبييون مدينة القدس، وأود هنا ان انقل نصا ذكر احد المؤرخين الغربيين لنذكر به صغار النفوس من الغربيين ومن يركض وراءهم)) الواقع ان المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والانسانية فبينما كان الافرنج منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون دماء ضحاياهم لم تتعرض الان دار من الدور للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه، اذا صار رجال الشرطة بناءا على أوامر صلاح الدين، يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين)) [29]، كما وصف صلاح الدين بانه كان بعيدا عن روح الانتقام ((والواقع ان رحمته وعطفه كانا على نقيض افعال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى، ... وهو في نضاله كان بعيدا كل البعد عن التأثر بأي عداء شخصي، او الرضوخ لشهوة الانتقام، وعلى العكس من ذلك كان الكثيرون من زعماء الصليبيون، بمن فيهم رجال الدين، لا يعرفون الا مصلحتهم الشخصية)) [30] .

وبعد تحرير بيت المقدس تجمعت كل القوات الصليبية في مدينة صور، وأصاب الجند الإسلامي التعب جراء المعارك التي خاضوها ولكون الشتاء على الأبواب قرر صلاح الدين رفع الحصار عن صور، ريثما تتحقق له فرصة أخرى، بعد أن أدى دوره على أفضل ما يجب، للدفاع عن حدود المسلمين وتحرير أراضيهم [31] .

الهوامش

1- سعيد عبد الفتاح عاشور / الحروب الصليبية ص3 .

2- ارنست باركر / الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريبني ص9 ؛عاشور /الحروب الصليبية 1/3- 4

3- عاشور /الحروب الصليبية 1/21- 25

4- ميخائل زابوروف /الصليبيون في الشرق، ص13- 14

5- زابوروف / الصليبيون ص13

6- عاشور / الحروب الصليبية 1/28- 29 ؛خاشع المعاضيدي وآخرون : الوطن العربي والحروب الصليبية ص21 .

7- عاشور / الحروب الصليبي 1/29- 30 .

8- عاشور / الحروب 1/31.

9- عاشور /الحروب 1/31- 32.

10- زابوروف /الصليبيون ص69 .

11- زابوروف /الصليبيون ص29 .

12- عاشور /الحروب 1/31- 33 ؛زابوروف :الصليبيون ص14-16

13- عاشور /الحروب 1/34- 35 ؛المعاضيدي /الوطن العربي ص22- 3 ؛زابوروف/الصليبيون ص15.

14- زابوروف /الصليبيون ص15-16

15- عاشور / الحروب 1/35- 36

16- عاشور /الحروب 1/36- 37.

17- عاشور /الحروب 1 38.

18- عاشور /الحروب 1/39.

19- عاشور /الحروب 1/39

20- عاشور /الحروب 40 .

21- عاشور /الحروب 1/40 ؛المعاضيدي /الوطن العربي ص24-25.

22- الغامدي /صلاح الدين ص164-167.

23- ابن الاثير /الكامل 11 /532- 533 .

24- ابن الأثير /الكامل 11/533.

25- ابن الأثير /الكامل 11/535- 536 .

26- جمال الدين محمد بن سالم المعروف بابن واصل / مفرج الكروب في أخبار بني أيوب

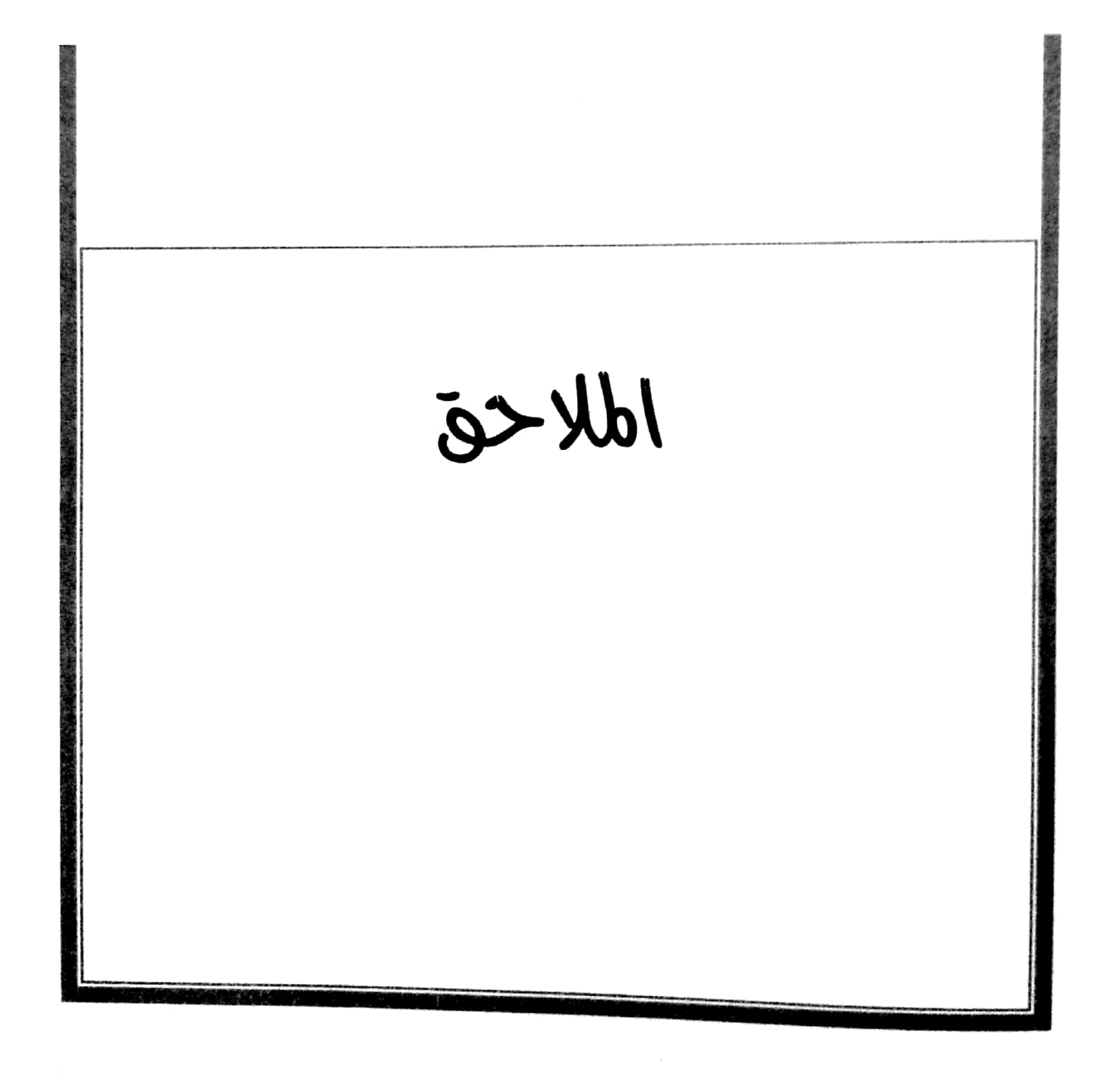
27- الاصفهاني /الفتح القسي ص44 -45، 116- 131 ؛حامد محمد غنيم /الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية 2/106- 109 ؛ أمين /الحروب ص190-191؛ جب /صلاح الدين ص172-173؛ ابو بدر :الحروب ص70؛ باركر/ الحروبص 83/182-183.

28- ابن الاثير /الكامل 11 547 .

29- رنيسيمان / الحروب الصليبية 1/752 ؛ ابو بدر الحروب ص116-117

30- رنسيمان /الحروب الصليبية 1/753 ؛ابو بدر/ الحروب ص 116-117.

31- ابو سعيد /الحروب ص117-119 .

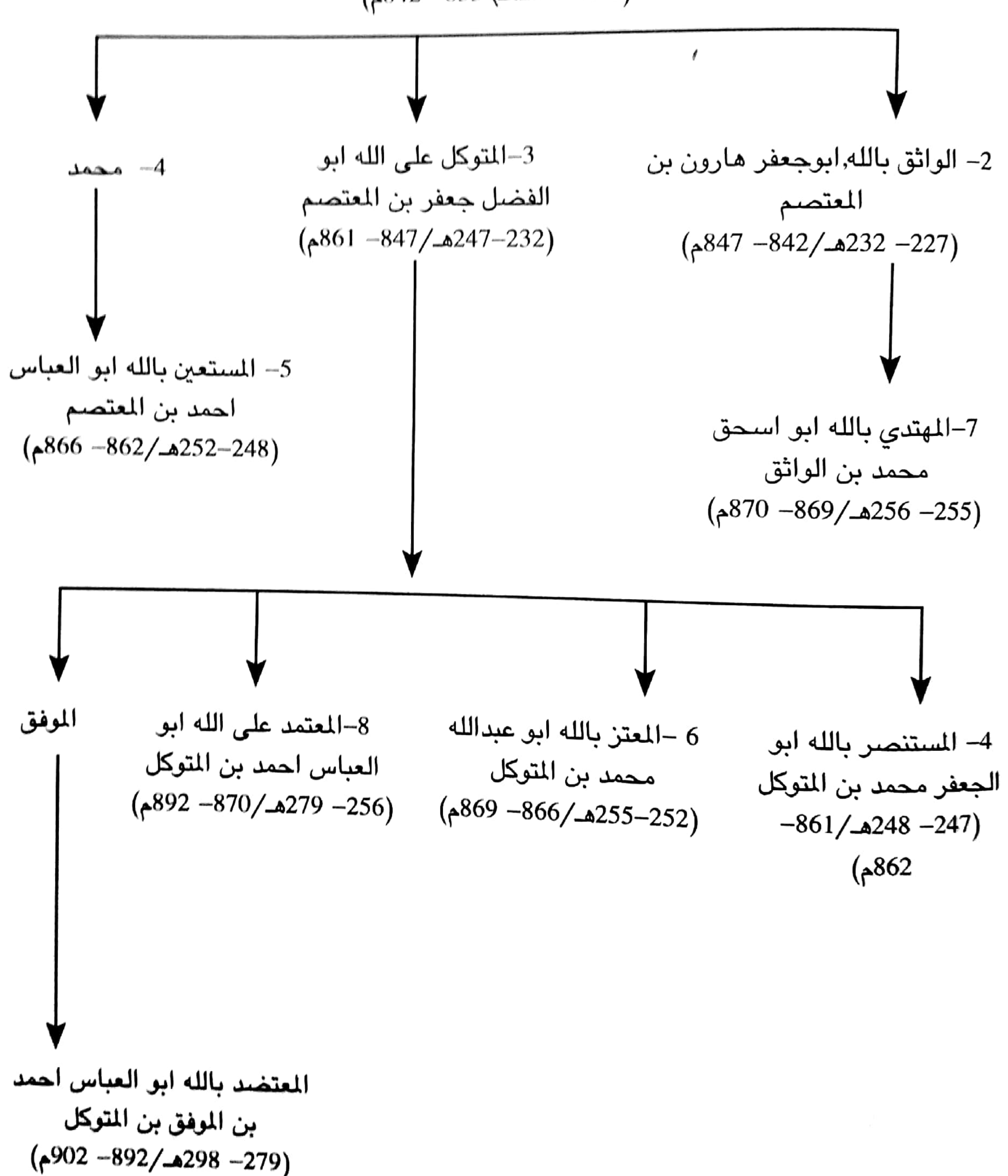

الملاحق



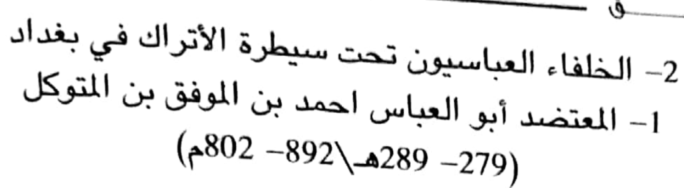
الملحقات

1- الخلفاء العباسيون في سامراء

1- المعتصم بالله, ابو اسحق محمد بن الرشيد
(218- 227هـ\833- 842م)







2- الخلفاء العباسيون تحت سيطرة الأتراك في بغداد

1- المعتضد أبو العباس احمد بن الموفق بن المتوكل
(279- 289هـ\892- 802م)

2- المكتفي بالله أبو محمد بن المعتضد
(289- 295هـ/902- 908)

3-المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتضد
(295- 320/908- 932م)

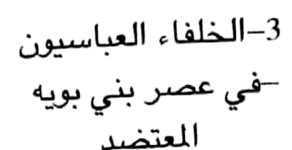
4- القاهر بالله أبو منصور محمد بن
(320-322هـ/932- 934م)

5- الراضي أبوالعباس احمد بن المقتدر
(322- 329هـ/934- 940م)

6-المتقي لله أبو اسحق ابراهيم بن المقتدر
(329-333هـ/940- 944م)

المطيع لله ابوالقاسم الفضل بن المقتدر
(334-363هـ/946- 974)

7-المستكفي بالله ابو القاسم عبد الله بن المكتفي
(322- 329هـ/934- 940م)



3-الخلفاء العباسيون
-في عصر بني بويه
المعتضد

المكتفي

المقتدر

القاهر

1- المستكفي بالله ابو القاسم عبد الله
بن المكتفي
(333- 334هـ/944- 946)

الراضي

المتقي

2- المطيع لله ابو القاسم
الفضل بن المقتدر
(334- 363هـ/946-974)

3- الطائع لله ابو الفضل
عبد الكريم بن المطيع
(363- 381هـ/974- 991م)

4 -القادر بالله ,ابو العباس احمد بن
اسحق بن المتقي
(381- 422هـ/991- 1031م)

5 -القائم بامر الله,ابو جعفر عبد الله بن القادر
(422- 467هـ/1031- 1075م)

4 -الخلفاء العباسيون
منذ العصر السلجوقي حتى سقوط بغداد 656هـ\1258م

1 -القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن القادر
(422-467هـ\1031- 1075م)

↓

محمد

↓

2- المقتدي بأمر الله القاسم بن محمد بن القائم
(467- 487هـ\1075- 1094م)

↓

3- المستظهر بالله ابو العباس احمد بن المقتدي
(487- 512هـ\1094- 1118م)

↓

4-المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر
(512- 529هـ\1118- 1135م)

↓

5- الراشدأبوجعفر المنصور بن المسترشد
(529- 530هـ\1135- 1136م)

6- المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر
(530- 555هـ\1136- 1160م)

↓

7- المستنجد بالله أبوالمظفر يوسف بن المقتفي
(555- 566هـ\1160- 1170م)

↓

8- المستضيء بامر الله,ابو محمد الحسن بن المستنجد
(566- 575هـ\1170- 1180م)

↓

9- الناصر لدين الله ابو العباس احمد بن المستضيء
(575- 622هـ\1180- 1225م)

↓

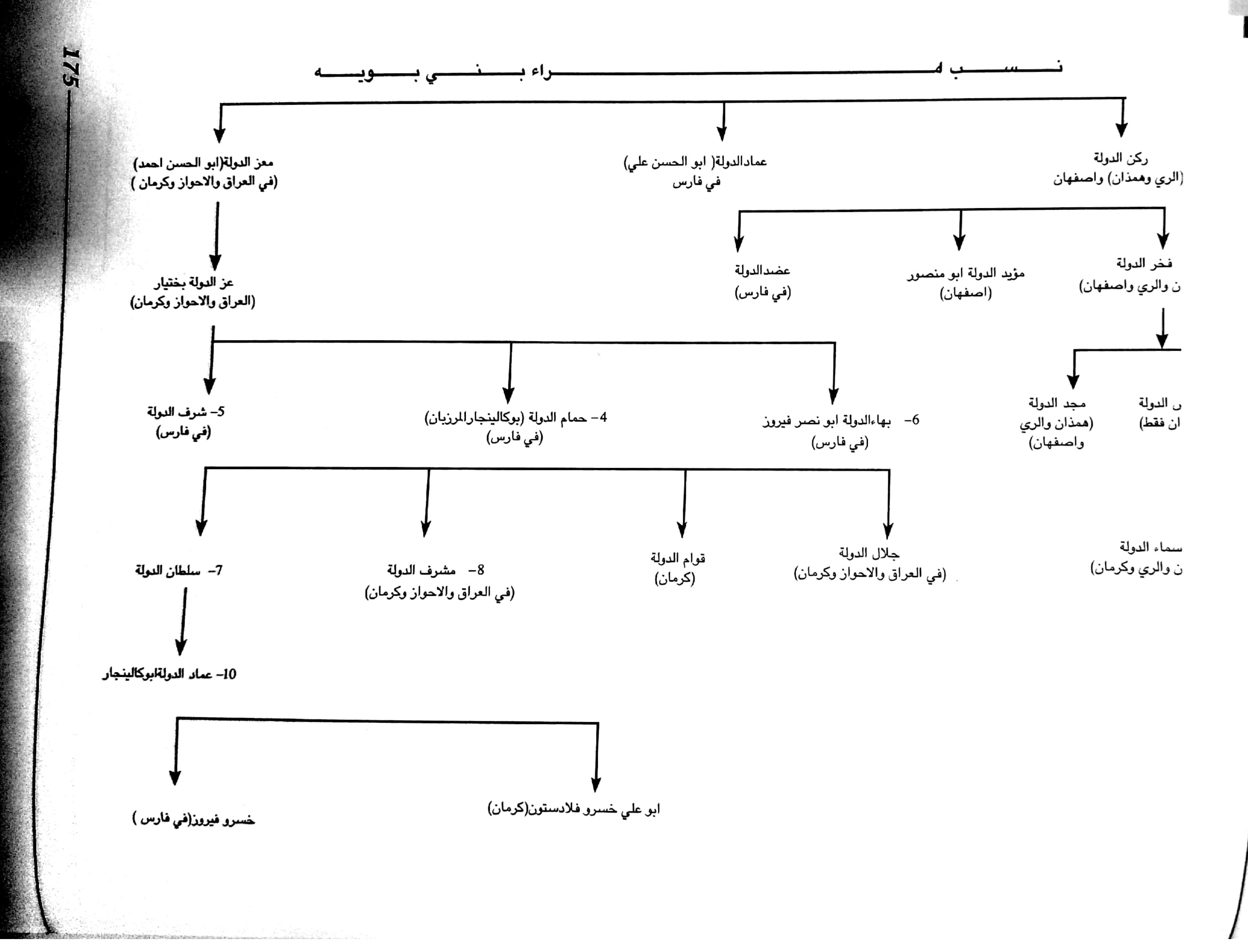
10 -الظاهر بأمر الله أبو النصر محمد بن الناصر
(622- 623هـ\1225- 1226م)

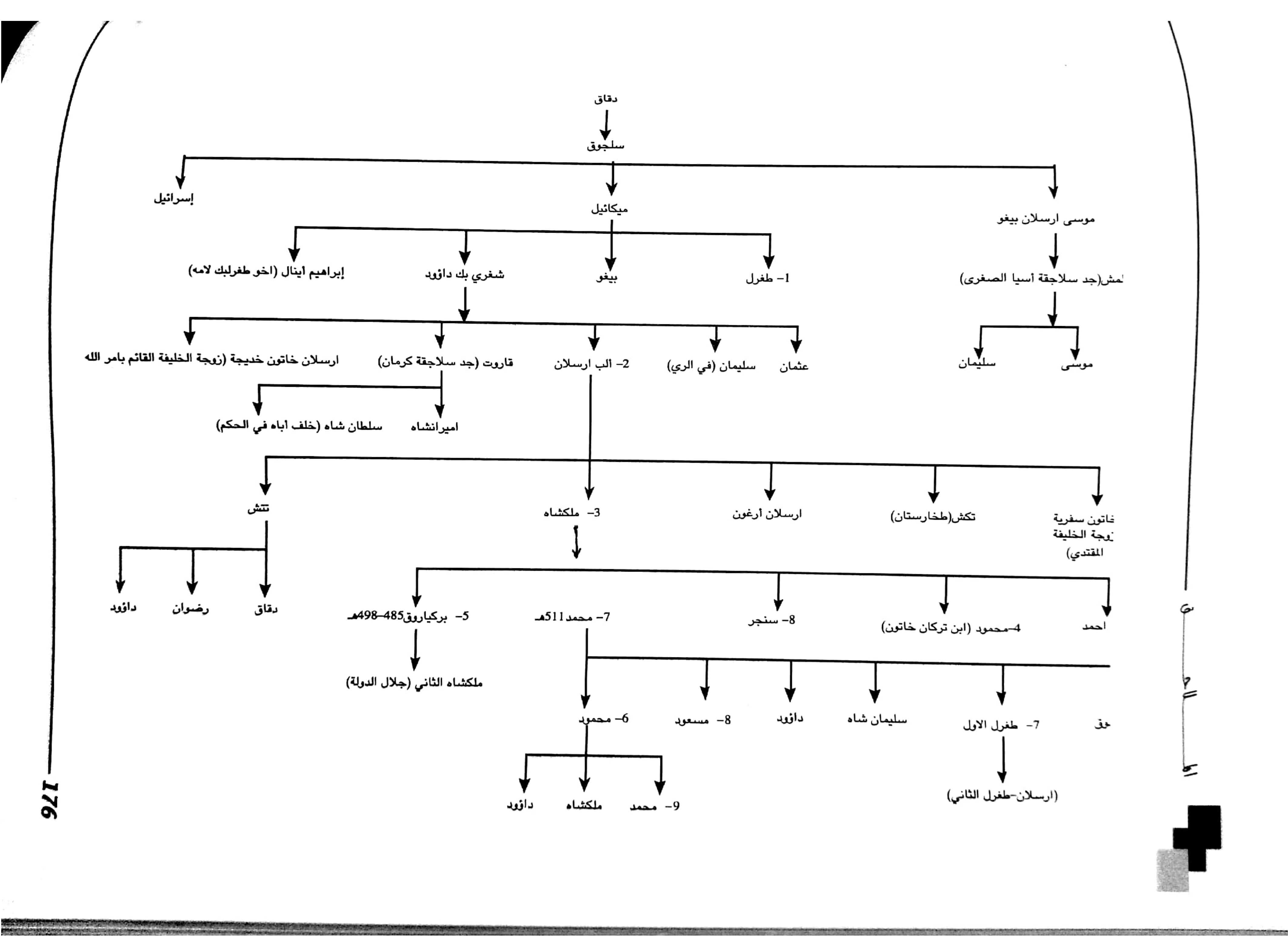
↓

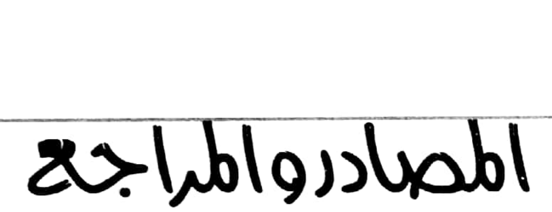
11-المستنصر بالله أبو جعفر المنصور بن الظاهر
(623- 640هـ\1226- 1242م)

↓

12- المستعصم بالله أبو احمد عبد الله بن المستنصر بالله
(640- 656هـ\1242- 1258م)


نسب امراء بني بويه
ركن الدولة
(الري وهمذان) واصفهان
عمادالدولة(ابو الحسن علي)
في فارس
معز الدولة(ابو الحسن احمد)
(في العراق والاحواز وكرمان)
فخر الدولة
ن والري واصفهان)
مؤيد الدولة ابو منصور
(اصفهان)
عضدالدولة
(في فارس)
عز الدولة بختيار
(العراق والاحواز وكرمان)
ن الدولة
ان فقط)
مجد الدولة
(همذان والري
واصفهان)
6- بهاءالدولة ابو نصر فيروز
(في فارس)
4- حمام الدولة (بوكاليجار المرزبان)
(في فارس)
5- شرف الدولة
(في فارس)
سماء الدولة
ن والري وكرمان)
جلال الدولة
(في العراق والاحواز وكرمان)
قوام الدولة
(كرمان)
8- مشرف الدولة
(في العراق والاحواز وكرمان)
7- سلطان الدولة
10- عماد الدولةابوكاليجار
ابو علي خسرو فلادستون(كرمان)
خسرو فيروز(في فارس)


دقاق
سلجوق
موسى ارسلان بيغو
ميكائيل
إسرائيل
مش(جد سلاجقة آسيا الصغرى)
1- طغرل
بيغو
شغري بك داؤود
إبراهيم اينال (اخو طغرلبك لامه)
موسى
سليمان
عثمان
سليمان (في الري)
2- الب ارسلان
قاروت (جد سلاجقة كرمان)
ارسلان خاتون خديجة (زوجة الخليفة القائم بامر الله
اميرانشاه
سلطان شاه (خلف اباه في الحكم)
خاتون سفرية
زوجة الخليفة
المقتدي)
تكش(طخارستان)
ارسلان أرغون
3- ملكشاه
تتش
احمد
4-محمود (ابن تركان خاتون)
8- سنجر
7- محمد511هـ
5- بركياروق485-498هـ
دقاق
رضوان
داؤود
ملكشاه الثاني (جلال الدولة)
حق
7- طغرل الاول
سليمان شاه
داؤود
8- مسعود
6- محمود
(ارسلان-طغرل الثاني)
9- محمد
ملكشاه
داؤود


المصادر والمراجع



جريدة المصادر والمراجع

أولا: المصادر

القرآن الكريم

ابن الأثير: عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم.

- الكامل في التاريخ ،دار بيروت للطباعة والنشر،بيروت 1966 م.

-لباهر في تاريخ الدولة الاتابكية ،تحقيق: عبد القادر احمد طليمات دار الكتب الحديثة ،القاهرة 1963 م.

الأربلي: عبد الرحمن.

خلاصة الذهب المسبوك ومختصر سير الملوك ،تصحيح: مكي السيد جاسم، مكتبة المثنى ،بغداد بلا.

الاصطخري: ابو اسحق إبراهيم بن محمد.

- المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر الحسيني، مراجعة: شفيق غربال ،دار العلم ،القاهرة 1967 م.

البنداري،الفتح بن علي بن محمد.

- تاريخ دولة آل سلجوق، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1987.

البيهقي: ابو الفضل محمد بن حسين.

- تاريخ البيهقي ،تصحيح: يحيى الخشاب وصادق نشأت،دار النهضة العربية ،بيروت 1982 م.

ابن تغري بردي: أبي المحاسن يوسف.

- النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1950 م.

ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد.

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ،دائرة المعارف العثمانية ،الدكت 1358 م.

- التبصرة، تحقيق مصطفى عبد الواحد، بلا، القاهرة 1970 م.

ابن جبير: محمد بن احمد بن سعيد.

- رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، بيروت، بلا.

الحسيني: صدر الدين ابو الحسن

- اخبار الدولة السلجوقية تصحيح ونشر: محمد اقبال بيروت دار المعرفة 1952 م.

الحسيني: محمد بن محمد بن عبدالله

- العراضة في الحكاية السلجوقية ،ترجمة وتحقيق: عبد النعيم محمد حسين وحسين امين / بغداد مطبعة جامعة بغداد 1979م.

الحموي: أبو عبدالله ياقوت.

- معجم البلدان، دار صادر، بيروت 1966 م.



ابن العبري: ابو الفرج غريغوريوس الملطي.

ـ تاريخ الزمان ،تعريب: الأب اسحق أرملة، دار الشرق بيروت 1991م

ابن العمراني: محمد بن علي.

ـ الأبناء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السامرائي، المعهد الهولندي، ليدن 1973م.

الغزالي: أبو حامد.

ـ إحياء علوم الدين، مؤسسة الحلبي وشركائه، بيروت1967 م.

الغساني: اسماعيل بن عبد بن رسول الاشرف

ـ العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك تحقيق: شاكر محمود ،دار البيان بغداد 1975م.

الفارقي: احمد بن يوسف بن الأزرق.

ـ تاريخ الفارقي، تحقيق: بدوي عبد اللطيف عوض، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1974 م.

أبو الفداء: عماد الدين اسماعيل بن علي.

ـ المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، مصر، بلا.

ابن ألفوطي: كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق.

ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة والسبعون، تحقيق: مصطفى جواد، بلا ،بغداد 1992 م.

ابن القلانسي: أبي يعلي حمزة.

ـ ذيل تاريخ دمشق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1908 م.

ابن الكازروني: ظهير الدين بن محمد.

ـ مختصر التاريخ في اول الزمان الى منتهى دولة بني العباس، تحقيق: مصطفى جواد، بلا ،بغداد 1970 م.

ابن كثير: أبو الفدا إسماعيل.

ـ البداية والنهاية، دار ابن كثير، بيروت، بلا.

الماوردي: ابو يعلي محمد بن الحسين.

ـ الأحكام السلطانية، ط2،مطبعة مصطفى محمد البادلي وأولاده، بلا 1966م.

المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسن بن علي.

ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت 1988 م.

مسكويه: أبو علي احمد بن محمد.

ـ تجارب الأمم، مطبعة التمدن الصناعية، مصر 1951 م.

المقريزي: أبو العباس احمد بن علي.

ـ السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1941م.

ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، دار الكتب العلمية، بيروت 2004م.

الهمذاني: محمد بن عبد الملك.

ـ تكملة تاريخ الطبري، تحقيق: ألبرت يوسف، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1958.

ألهمذاني: رشيد الدين فضل الله.

ـ جامع التواريخ ،ترجمة: محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة دار احياء الكتب العربية 1960 م.

ابن الـوردي: زين الدين عمر

ـ تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق: احمد رفعت ألبدراوي، دار المعرفة بيروت 1970 م.

اليعقوبي: احمد بن يحيى.

ـ مشاكله الناس لزمانهم، تحقيق: وليم مورو.

اليونيني: موسى بن محمد بن احمد.

ـ ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ،الركن 1960 م.

المراجع الحديثة

إدريس: محمد محمود

ـ تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر العباسي الأول، المطبعة التجارية الحديثة ،القاهرة 1985 م.

اشبولر: برتولد.

ـ العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد سعد عيسى، مراجعة:سهيل زكار، دار إحسان، دمشق 1982 م.

امين: حسين.

ـ العيارون والشطار، مجلة التراث الشعبي، بغداد تشرين الاول1963م

ـ تاريخ العراق في العصر السلجوقي، مطبعة الإرشاد، بغداد 1965 م

الأمين: حسن.

ـ الغزو المغولي، دار التعاون، بيروت 1976 م.

بارتولد: فلادمير.

- تركسان منذ الفتح العربي الى الغزو المغولي ،ترجمة: صلاح الدين عثمان، بلا، الكويت 1981 م.

بلاثيوس:

- ابن عربي حياته ومذهبه ،ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار القلم ، بيروت 1975 م.

جب: هاملتون.

ـ دراسات في حضارة الإسلام ،ط2،دار العلم للملايين، بيروت 1974م.



جواد: مصطفى.

– القوة وأثرها في توحد البلاد، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد 1978م.

حسن: حسن إبراهيم.

– تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المركزية، القاهرة.

حسنين: عبد المنعم.

– سلاجقة إيران والعراق ،ط2،مكتبة النهضة المصرية، مصر 1976

الحكيم: حسن عيسى

– نوابغ الفكر العربي – ابن الجوزي وزارة الثقافة والاعلام، بغداد 1978 م.

الحمداني: عمر احمد سعيد.

– العامة في بغداد تحت التسلط البويهي، دراسة في أوضاعها العامة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، الموصل 2005 م.

خصباك: جعفر حسين.

– العراق في عهد المغول الايلخانيين، مطبعة العاني، بغداد1968 م.

الخضري بيك: محمد.

– تاريخ الأمة الإسلامية، مطبعة الاستقامة، القاهرة 1953 م.

الدوري: عبد العزيز.

– دراسات في العصور العباسية المتأخرة

– مقدمة في الاقتصاد العربي ،دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 1972 م.

– العراق في التاريخ ،دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد 1983 م.

الدومنيكي: جان مويس فيه.

– الآثار المسيحية في الموصل ،ترجمة: نجيب قاقو، مطبعة الطيف، بغداد 2000 م.

ديورانت: ول.

– قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، بلا ،القاهرة 1964 م.

رايس: تمارا تالبوت.

– السلاجقة، ترجمة: لطفي ألخوري، مطبعة الإرشاد ،بغداد 1968 م.

رشاد: عبد المنعم.

– الرعب الذي أحدثه الغزو المغولي.

– احتلال المغول بغداد، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل 1970 م.

الزركلي: خير الدين.

– الإعلام، دار العلم للملايين، بلا ،بيروت، بلا

زكار: سهيل.

ـ مدخل في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق 1981 م.

ـ تاريخ العرب والإسلام منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد ،دار الفكر العربي، بيروت 1970 م.

زيدان: جرجي.

ـ تاريخ الدين الإسلامي، مراجعة: حسين مؤنس دار الهلال، القاهرة، بلا

سانتيلا:

ـ تراث الإسلام، إشراف: توماس أرنولد، دار الطليعة ،بيروت 1972م.

ألساعدي: الشيخ حسين.

ـ مؤيد الدين بن العلقمي وأسرار سقوط الدولة العباسية، مطبعة النعمان ،النجف1972 م.

سرور: محمد جمال الدين.

ـ سياسة الفاطميين الخارجية ،دار الفكر، القاهر، 1976 م.

سلطان: طارق فتحي.

ـ التاريخ الإسلامي في العصر العباسي الأخير، دار ابن الأثير ،الموصل 2008 م.

السيد: رضوان.

ـ الماوردي: قوانين الوزارة وسياسة الملك ،بلا،بيروت 1979 م.

شلبي: احمد.

ـ موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ،ط9مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1997 م.

صالح: خالد يوسف.

ـ الأوضاع الاقتصادية للعراق وأثرها في انهيار الدولة العباسية، أطروحة دكتوراه غير منشورة لكلية الآداب، الموصل 2005 م.

ألعريني: ألباز.

ـ المغول ،دار النهضة، بيروت، بلا.

عمران: محمود سعيد.

ـ المغول وأوربا ،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1997 م.

فوزي: فاروق عمر.

ـ دراسة في التاريخ السياسي للدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي، دار الحكمة، بغداد 1986 م.

القزاز: عبد السلام محمد.

ـ الخليفة العباسي القائم بأمر الله رسالة ماجستير غير منشورة لكلية الآداب ،جامعة الموصل 1988 م.

القزاز: محمد صالح داؤود.

ـ الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير، مطبعة القضاء ،النجف1970 م.

القصاب: محمد يونس فلح.

ـ مغول القجاق وعلاقتهم السياسية بالمماليك الاليخانيين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل 2004 م.

كاهن: كلود.

– تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة: بدر الدين قاسم دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت 1972 م.

كرد علي: محمد.

– الإسلام والحضارة العربية ،ط3، بلا، بيروت 1961 م.

كون: كارلتون.

– القافلة قصة الشرق الأوسط، ترجمة: برهان دجاني، مطبعة كريم، بيروت 1959 م.

مجيد: ميسون هاشم.

– علاقة الخلافة العباسية بدويلات المشرق الإسلامي ق3–ق6، أطروحة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب، جامعة الموصل 1983 م.

محمود: حسن احمد.

– العالم الإسلامي في العصر العباسي، بلا، القاهرة 1966 م.

المشهداني: محمد جاسم.

– في محكمة التاريخ ابن العلقمي والطوسي، بلا، دمشق 2001 م.

مصطفى: شاكر.

– دخول الترك الغز إلى بلاد الشام، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت 1974 م.

المعاضيدي: خاشع.

– تاريخ الدويلات العربية الإسلامية في العصر العباسي، جامعة بغداد ،
بغداد 1979 م.

ناجي: عبد الجبار.

– ثورة البساسيري في بغداد 447–451هـ، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة 1971 م.

سنيم: جوزيف.

– الوحدة وحركات اليقظة العربية أبان العدوان الصليبي، مطبعة الإسكندرية، الإسكندرية 1967 م.

هوخام: هيلد.

– تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين، ترجمة: اشرف
محمد كيلاني ،بلا، القاهرة 2002 م.

يحيى: فوزي أمين.

– نظام السلطنة في الدولة العربية الإسلامية، رسالة
ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة الموصل 1986 م.

اليوسف: عبد القادر احمد.

– العلاقات بين الشرق والغرب بين القرنيين الحادي عشر والخامس عشر، بلا، بيروت 1969 م.




تاريخ الدولة العباسية
(العصر العباسي الثاني)
222-656هـ 840-1258م




ISBN 9957-07-723-5
9 789957 077235


دار الفكر
ناشرون وموزعون
www.daralfiker.com